التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام

طبعة جديدة ومحققة 24
العنوان: التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام.
المؤلف: الشيخ/ محمد الغزالي.
إشراف عام: د.ا.د. محمد إبراهيم.
تاريخ النشر: الطبعة السادسة يناير 2005م.
رقم الإصدار: 1636 / 2003
الرقم الدولي: 977-14-2056

الإدارة العامة للنشر: 21 ش. أحمد عرابي - المهديين - الجيزة
ت: (02) 3426576 - (02) 3464634 ـ (02) 3428564 - (02) 3464634
البريد الإلكتروني للإدارة العامة للنشر: publishing@nahdetmsr.com

الطابع: 80 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر
ت: (02) 83300287 - (02) 83302898 - (02) 83302896
البريد الإلكتروني للطبع: press@nahdetmsr.com

مركز التوزيع الرئيسي: 18 ش. كمال صديق - القناة - القاهرة - ص. ب. 90 الفجالة - القاهرة
ت: (02) 5903395 ـ (02) 5909827

 مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 08002226222
البريد الإلكتروني للبيع: sales@nahdetmsr.com

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmsr.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/CD/DVD) وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع
www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © شركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر.
مقدمة

هذا بحث استكشفي أعداء الإسلام على خوضه، وهم لم يحسنوا إلى أنفسهم
إذا فتحوا هذا الباب - كما ظنوا - ولا أساءوا إلى الإسلام - كما أحبوا-
فالسؤال لا تعهد أن أحمق غرته الأماني فجأة ينارد القلاع الشم، فأصابته
قديفة أودت به ودمرت عليه مكنته، وبقيت القمم كما هي ترد الطرف، وعاد
المغزورون إلى أوكارهم الهشة إذا بها مسواة بالرغم.
لقد كنا سكونًا عن طمأنتين، مسالمين عن قوة، نخدم دينا وأمتنا في بَعْد عن
الجدال وشجاعة للمودة.

حتى جاء من يحاول - بغباوته - استفزنا! وم؟ بالهجوم على الإسلام،
ونبيه، وصحابته، وتاريخه منذ ظهور إلى اليوم...!!
ولم؟ لأنه يلمح في الأفق بوادر تجمع حول الإسلام وإيقاظ لدولته، وإحياء
لأمته، فهو يحول دون هذا كله؛ فغية إنقاذ العالم من مغبة عودة الإسلام إلى ميدان
الحكم والتشريع والسياسة.

وما العالم الذي يرى إنقاذه من الإسلام؟
أجعله يريد إنقاذ الأمريكان وأحالفهم، والروس وأشياعهم؟
إن الإسلام ليس خطرا على أمة بعينها أو جنس بذاته.
إذا هو خطر داهم على الإذلال والتعصب والختال، وما يخف شعب شريف الغاية
من عودته، ولا جنس نقي النية من دولته، وإننا لنجزم بأن كل عائق يوضع في
 طريق هذا الدين الكريم، إذا هو لحساب القوى الغاشمة، والسلطات العفنة، مدنية
كانت، أو كهنوتية.

* * *

ليس لي في هذا الكتاب أكثر من سوق الحقائق مجرد عن أهواء المغرضين
وأكاذيب الملدسين.
وهو جهد - وإن كان يسيرًا - إلا أن الناس فقراء إليه. فلن يسهم الحق بالباطل عمل
برع فيه كثيرون، وضل به الكثيرون، ولذلك يقول الله لأحبار اليهود: »ولا تلبسوا
الحق بالباطل وتكتموا الحق وأتمنى تعلمون«(1).
ولا يحسن القارئ أنَّ في هذا الكتاب - ضَخَم - شيئًا ثم هدمتها،
أو عُبت بحملات تافهة ثم ردتها.
لا. لقد أبصروا طلائع هجوم منظم على الإسلام، وكيد متين لأمته، فأحبت
أن أسحق الطليعة الجريئة حتى أشرد من خلفها، وأعلمنها ألا تُنهج مرة أخرى
أسباب الدنيا عليها، وإلا... فهي التي بحثت عن حتفها بظفَّرها.

**

أذكر أن الرجل(2) الذي كلفني بكتابة هذا البحث، قد طلب إلى أن ألتزم حسن
العرض، وأن أكتشف أنزغية القذى عن طريق الإسلام، دون غضب أو تحد. وقد
بذل الجهد في إجابة نصحته، وإن كنت شعرت أحيانًا بسورات الغيظ
تملكني وعيدي، إذ أجد حقًا يغطي الهوى وجهه المبين، عسفًا يراد فرضه على
الصراط المستقيم، وما كان الإنسان ينتظر من أحسن إليهم في أرضه أن يتصرصوا به
وبعينوا عليه أو يظلموا لأهل الأبراء شتى الفوائد.
وعلى أية حال، فقد رأينا في تحمل المغرفين على الإسلام فرصة مواتية لتجلي
دعوته وشرح تاريخه وتفنيد المفتيات الوجهة إليه.
ومثل هذه الدراسات تدل للنقاد الجدد، فقد سئل عالم: ما سعادتك؟
قال: »في حجة تبختر اتضاحًا، وشبهة تنضاءل افتضاحًا«.

**

لقد كتب هذا البحث، وأنا مسلم أحترم ديني وأتمسك به، ولم يكن اعتناقي
ل الإسلام حجابًا عن تلمس الحقيقة في مظلاتها، والنقاطها حيث وجدتها.
ولست أعرف ما يكون وقعه عند أصحاب الأديان الأخرى، ولكن أعلم أنني

(1) سورة البقرة : 42 .
(2) المستشار حسن الهضبي.
أتلقي بقبول حسن كل نقد علمي يعتمد على الحق وحده، كما أعلن أنني
- وكثيرًا من إخواني المسلمين - ما اعتدنا، بل ردنا العدوان، وما تحدثنا حتى
حملنا غيرنا على الكلام. وربما كانت الحقائق مرة في بعض الحلوى، ولكن ما
قبلنا، وقد أراد الذين من الناس تشويه وجه الأطرار، فكشفت الأقدار عما يضفي
وجوههم من غبار!

* * *

إن الأحقاد الطائفية والحوبر الدينية غريبة على أرض الإسلام.
فقد أتى هذا الدين منذ بداية أن يعاصر غيره على المياسرة والطرف، وأن يرعى
حسن الجوار فيما يشlaunch من قوانين ويضع من تقاليد.
وهو - في ميدان الحياة العامة - حريص على احترام شخصية المخالف له، ومن
ثم لم يفرض عليه حكمه أو يقهره على الخضوع لشرائه.
بل ترك أهل الأديان وما يدينون.

خذ مثالاً: الخمر والخنزير، إنهما - بالنسبة للمسلم - لا يعدان مالًا له قيمة، بل
الحكم بحرمتهم ورجسهما معروف، ومع ذلك فالمذاهب ترى أنهما بالنسبة إلى
النصارى مال متقيم يصح تملكه وتثليه، ومن ثم تعترف بالتعامل فيهما.
وانظر إلى ما يقوله أئمة الفقه الإسلامي في كتابي «البدائع» و«المغني»:
إذا أنكجة غير المسلمين لها أحكام الصحة. لم؟
لأنها قد أمرنا بتركتهم وما يدينون.

وبلغ من احترام الحرية الدينية عند المسلمين أن يقبلوا زواج المجوسى من ابنته ما
دامت شريعته تتيح له ذلك.

وفي «المغني» مجوزي تزوج ابنه، فأولدها بنتًا. ثم مات عنهما فلهما الثلاثة!!
إن الإسلام لم يقم بنة على اضطهاد مخالفيه أو مصادرة حقوقهم أو تجولهم
بالكره عن عقائدهم، أو المساس الجائر لأموالهم وأعراضهم ودمائهم.
وتاريخ الإسلام في هذا المجال أنصب تاريخ على وجه الأرض.
وليت التاريخ الآخر تقترب من ليوته وسماحته.

أقول: تقترب منه ولا أقول: تشابهه، لأن الواقع المقبض فيما حفظه الدنيا
من حروب الت Teeth وغارات الإبدا والتجني؛ يجعلنا لا نشطب مع التمنى ولا
ينسحب مع الخيال. وفي الخروج الدينية التي عرفها التاريخ الأوروبي دلالات يخزى لها أولو الضمائر.

* * *

والغريب أن نفرًا من المستشرقين والباحثين تعالى عمداً عن هذه الحقائق، وأراد أن يتعامى عن تاريخه القائم، لا بل أراد أن يقع على الإسلام مفتريات لا عهد له بها في تاريخه القديم والحديث.

فقدام يهم الإسلام بأنه أسس إلى مخالفيه وأنه صنع بهم كما وكذا (1). وكأنه يريد بذلك – إلى جانب إهانة الإسلام – خلخلة ثقة أهل الكتاب في الكثرة المسلمة التي تعيش معها في سلام منذ أجيال.

ونحن على يقين من أمرين:

أولهما: أن حبل الباطل قصير، وأن تعاليم الإسلام لن تتأثر أبدًا بمحاولات الكذب والاختلاط.

وسيبقى مسلك هذا الدين مثلًا أعلى لأروع ضروب الاعتدال والتسامح مهما اجتهاد المرجفون ونفثوا في أجساد الدخان.

واخرهما: أن عمال الاستعمار لن يحقق لهم أمل في استغلال الأقليات الدينية، وربط عواطفها بالغرب الصليبي، وإن بدأ لهم أن ذلك ميسور الإدراك.

وقد تيقظ العقلاء لهذه الأطياف، وجمعوا - مسلمين ونصارى - ضد العدو المغير، ورأوا ألا بد من رد على أعقابه وتطهير البلاد من يلوذون به ويعتمدون عليه.

ولعلنا في كتابنا هذا تكون قد أصفنا الحق وكشفنا الغطاء عن أمور ذات بال، ما ينبغي أن تغيب عن الأذهان.

محمود الغزالي

(1) نحن في هذا الكتاب نرد على حشد كثير من الادعاءات التي صنعها الدس الاستعماري الفرنسي، وحاول فيها إثارة الغلط حول سياسة الإسلام ضد مخالفيه، وقد استرسلنا في الحديث كي نهتاك السدر عن وجه الكذبة وندعهم عبرة للمعتربين.
الإسلام
بين عدوى العصبية والتعصب
هذه العصبيات:

مع غلبة الأهوام وانتشار التفاهات يستكثر الصغر من الأمجاد الكاذبة، ولم لا يستكنرون منها، وهي لا تغمرهم ثمنًا، ولا تكلفهم جهدًا؟

إن اختلاف البشرة في ألوانها يعطى البيض فضلاً ليس للسود.

وميلاد المرء فوق قطعة من الأرض دون أخرى يجعل وطنًا أرقي من وطن.

وتكوين جنين في بطن معين من نفحة معينة يخلق نسبة أشرف من نسبة.

 فإذا اصطنع أقوم من هذه الأحوال وأساهها فروقًا يتشبثون بها، ويدورون حولها.

فلماذا عليهم؟!

لقد صفرت أيديهم من الجد فملاوها بالهزل، ثم شقوا طريقهم في الحياة، وعلى خدوهم صغر، وفي قاماتهم تطاول.

وшаو عالمنا هذا غريب، لو أنه يتوقف عن المسير كما تتوقف السيارة حين ينفد وقودها فتتطلب مزيدًا تستأنف به رحلتها.

إنها لن تسير إلا بقودها الصحيح، أما عالمنا هذا فهو مستعد لأن يسير، ولو وضعوا له بلد الوقود نرابًا أو قمامة، إنه يسير مهما اضطربت وجهته واختلت حركته.

وهل اندفاع العالم بالعصبيات الغضبة - بعد تنكره للملل العالمية - إلا ضرب من هذا السير الجهنون؟

عصبيات للأسر، عصبيات للأوطان، عصبيات للأجناس.

أما الحقيقة الكبرى التي تعلو هذه النزاعات الطائشة، وتحكمها بحزم، فإن العالم في جاهلته القديمة أو الحديثة لا يلقى بالله إليها؛ لأنها تعكر عليه نعيم الأمجاد الزائفة التي ينتجها في ظلال هذه العصبيات.

إن ناسًا يريدن أن يسودوا، لأن فروع الأمهات يوم قذفت بهم إلى هذه الحياة أضافت عليهم هالة خاصة.
أصحُ جيدًا .. إنهم أشراح.
فلم غربت التربة السافرة عن رفاه آبائهم الذاهبين .. لبرق بالمواهب الدفينة التي
ستنثقل حتمًا من الأجداد إلى الأحفاد .. فيجب أن نحنى الهم إجلالًا.
وهلاء .. إنهم الجنس الأبيض المستاز .. لقد نضح صفاء قلوبهم على لون
جسومهم .. فكساهم شمائل لا تبلى من الفضل والإيثار ..
فلنفسح الطريق أمام الجنس المختار .. ولندفع الأجناس الأخرى إلى الخلف بمقام
من جديد.
ثم هؤلاء الذين ولدوا معنا في صعيد واحد .. إن لهم حقًا أكبر .. وأولئك هم
مواطنون الأعزاء .. يجب أن ترجم رابطتنا بهم كل رابطة أخرى ..
إنجلترا فوق الجمع .. ألمانيا فوق الجمع .. مصر فوق الجمع ..
لكن من هم الجمع الذين يجب أن يهبطوا إلى تحت ؟ لتنصب فوقهم الأوطان
الخاصة بعض البشر ؟
إن العصبيات لا يعنيها أن تخبئ .. لأن العصبيات لا تعرف منطق العقل المعتاد ..
إن العصبية حماس يشتعل وليست حقًا ضياء ..

الدين والعصبيات:

هذه العصبيات - رغم ما يساندها من قوائن وتقاليد - هي في نظر الدين
حماقة كبرى .. والاعتراف بها هدم للآركان الأولي من الرسالات التي أنزل الله
هداية للعالمين .. إذ قوم هذه الرسالات أن الإنسان مسئول بنفسه عن نفسه .. يقدهه
ما اكتسب من خير فحسب .. ويرجعه ما اكتسب من شر فحسب ..
ولا مكان في هذا الميزان القطع للتدخل بشر .. كبير أو حقيق ..
ولا حساب في تقوم شخص ما لوطنه أو نسبه ..
ولا اعتبار البطة لما تواضع الناس عليه من شارات الرفعة أو الخسة ..
ابن النبي أو ابن البغّي سيّان ..
إن تأخر الأول في سباق الصالحات لم ينفعه حسبه ..
وإن تقدم الأخير لم يضره نسبه ..
وقد أوضح الله هذه المبادئ لا في قرآن محمد فحسب، بل في كتب الأنبياء الأولين كذلك:

"أم لم يثبت بما في صحف موسى وإبراهيم النبي وفى ألا تر وازرة وزر أخرى وأأن ليس للإنسان إلا ما سعي وأن سعيه سوف يرى ثم يجرا الجزاء الأوفي".  

وذلك قاعدة تلتها العدالة الجردة.

ومن ثم فهي قديمة مع الأزل، مستريلة مع الأبد، لا يلحقها نسخ، ولا يخدشها.

استثناء:

"من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنا نضل عليه ولا تر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا".  

وأما كان الظن قد يسبق إلى أن اصطفاء الله لبشر ما كيما يحمل أعياء الدعوة إليه، ربما أشعر باختصاص بخرجه عن هذه القاعدة، فإن الله كذب هذه الظنون وبين أن المرسلين كغيرهم أمام هذا القانون العام:

"وإذ أخذنا من النبيين مينا سهم من من نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم مينا سهم عظيما ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذاباً أليماً".  

وحدد الله سباقته صلة الأتباع المستجيبين؛ بالنبي الذي علمهم، فكان هذا التحديد القاطع رداً للأقارب والأباعد إلى القانون الذي لا يهم بمجرد ولا قراءة قانون العمل والجزاء الذي لا يستطيع نبي أن يغير من نتائجه لتطبيقه براجح أو ترجح بطائش.

وإيام لهذه الحقائق أمر الله رسوله أن: "قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرر إلا ما شاء الله...".  

(1) النجم: 33-34.  (2) الأسراء: 15.  (3) الأحزاب: 87.  (4) الأعراف: 188.
«قل لا أقول لكم عنيدي خزائن اللہ ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إني ملكٌ إن أتبع إلا ما يوحى إلي قل هل يسوي الأعمى والبصر» (1)

«قل ما كنت بدعًا من الرسل وما أدرى ما يجعل بي ولا بكم» (2)

هذه الأوامر الصريحة تهدف إلى إفهام كل بشر، أين كان، ومتى كان، إلى أن تتعلقبه أو إسفاهه طوع إرادته الخردة، وأنه وغيره سوياً في جو طليق رحب، وأن كافة ما اختلقه الدجالون من تفاضل بأوطان أو أنساب أو ألوان هراء في هراء.

هذا هو الحق في حساب المنوبة أو العقوبة يوم الدين.

هو الحق في مقياس الرذيلة أو الفضيلة في الدنيا.

ولا تحسن ذلك مقياسًا خاصًا لضبط أعمال الأفراد، وتسجيل ما تبلغه الأنس.

من نقص أو كمال...

أما سياسة المجتمعات والدول فلا قانون آخر!

ذلك هو الفضل البعيد.

إن الله شرع دينه نظامًا للنفس والمجتمع والدولة جميعًا.

وما اعتبره شرعًا في أحوال النفس هو شر مضاعف يوم يقوم عليه مجتمع، وبنى عليه حكومة.

وما دام قد أهدى الأنساب والألوان والأوطان في تقدير النفس، فالخري أن يهددها في تقدير الدول والشعوب.

ومن ثم فأساس الدولة المختومة عنده أن تنفض على دعائم من الخير والصلاحية.

لا على مزاعم من الانتفاع الأجوف والعصبية العميمية.

فالبدا، والتعارف عليه، والاقتراض منه، هو أساس الحكم، لا قطعة الأرض، والمعيشة عليها، والجوار فيها.

(1) الأعجم : 50
(2) الأحقاف : 9
والحق الذي تكمل باعتناقه - وأنت فرد - هو الذي تكمل باعتناقه وأنت دولة.
إن الحق ليس الشمعة التي تضيء من الداخل فقط، بل هو الشعاع الذي تبصر عليه طريقك في الحياة كذلك.

وقد جعل الله من دينه رابطة تقرب البعيد، ورحمًا تعطف الأفئدة فقال:
إِنَّمَا السُّوءُ إِخْوَةٌ (١) وَأَذُّنَّا نَعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلْقُوا قُلُوبُكُمْ فَأَصَابْهُمْ بَعْمَةٌ إِخْوَانًا (٢).

وترةجح الجماعة المؤمنة ليس عصبية من النوع الذي نعيناه، وحاشا أن يكون كذلك!!
فإن أول خصائص المجتمعين على الحق أن يسووا به أنفسهم وغيرهم، وإذا قلنا: إن الإسلام عروة وثقي بين أتباعه جميعًا، فإن ذلك النصر في حدود دستور الإسلام القائل: وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعانون على الأثم والعذاب (٣).
وأي مسلك ينافى ذلك من منتقبين إلى الإسلام؛ فهو خروج على الإسلام.

إذا احترقنا العصبات كلها لأن قانونها الهموي.
واحتفينا بالدين؛ لأن الذي شرعه أخذ به أتباعه أولاً، فهم محكومون به قبل غيرهم من الناس.

وعندما قام نبي الإسلام يدعو إلى الله، تنكر له مواطنوه، وآله وأقوام.
فقرر أن يقطعهم، وأزره على دينه قبائل غرباء فوصلهم وخلق بهم.
ومن المؤمنين بالإسلام - على اختلاف منازعهم الأولى - قامت دولته الكبرى، قامت على أساس الانخلال التام من دعوات الجاهلية.
إن رجالها كانوا يبدعون الناس على ضياء الإيمان، كما نبصر نحن الأشخاص والأشياء على ضوء الشمس.

ولم لا؟ وقد علمهم الله أن وزن الأمور بغير ذلك ضرب من الردة.
روى المفسرون أن شايب بن قيس الباهلي - وكان شيخًا عظيم الكفر شديد.

(1) الحجرات: ١٠٠. (2) آل عمران: ١٠٣. (3) المائدة: ٢.
الطعن على المسلمين - مر بنفر من الأوس والخزرج وهم في مجلس يتحدثون،
فغاظه ما رأى من أَلْقَاطِهم وصلاح ذات بينهم في ظل الإسلام، بعد الذي كان بينهم
من العداء في الجاهلية.

قلت : اجتمع مالاً بني قيلة بهذه البلاد! والله ما لنا معهم - إذا اجتمعوا - من
قرار! فأمر شاباً من اليهود كان معه فقال له : امحمد إليهم وأجلس معهم، ثم ذكرهم
يوم "بعثت" وما كان قبيلة وأشدوهم بعض ما كانوا يتقلون فيه من أشعار!
وكان "بعثات" يوم قتال مرير بين الأوس والخزرج انتشر فيه الأولون على
الآخرين، ففعل الشاب اليهودي ما كلف به، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا،
وتفاخروا، حتى تؤثر رجلان من الحسين على الركاب.

وقال أحدهما : إن شئت - والله - ردناها الآن جذعه! وغضب الفريقان
جميعًا وقالا : قد فعلنا : السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة - يعنون حرة المدينة -.
فخرجوا، وانضمت الأوس والخزرج بعضهم إلى بعض على دعواسم في الجاهلية فبلغ
رسول الله ﷺ ما حدث، فخرج إليهم فيمن معهم من المهاجرين حتى جاءهم، وقال : «يا
معشر المسلمين، أبتعذرا الجاهلية! وأنا بين أظهركم؟ أبدر إذ أكركم الله بالإسلام،
ووقع عنكم أمر الجاهلية، وألف بنيكم، ترجعون إلى ما كنت عليه كفار؟».

الله الله... فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيان من عدوهم، فألقوا
السلاح من أيديهم، وبكوا، واعتقب بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله
سامعين مطيعين، ونزل قول الله :

يا أهل الكتب، إن تطيعوا فريقًا من أهل الكتاب يذكركم بعد إيمانكم
كفارين، وكيف تكفرون? وأنت تأتي عليهم آيات الله وفيكم رسول الله ومن يعتصم بالله
فقد هدى إلى صراط مستقيم» (1)

إذا اليهودي الخاقد على الإسلام أراد أن يكره بهله، فلم يجد أسرع - في نقض
غزيلهم - من إثارة العصبات القديمة بينهم.

(1) آل عمران : 1010.
والحق أن تعصب اليهود ضد الدين الناجح لم يكن شرآ عليه من استجابة أتباعه لوساوس العصبات البائدة.

والنظر فيما أصاب المسلمين - بعد - من متعاب، يدل على أن العصبات التي قسمت وحدتهم في الداخل كانت أنتكى بهم من تعصب أعدائهم ضدهم.

عودة الجاهلية:

في العالم الحديث عصبات عنصرية وجنسية لا يضمير لها، تثور بين الحين والحين لتوقع ظالم بالمستضعفين من أجيال الزنوج والهنود وأشباههم.

وفي تعصب لما ألف من أفكار ومبدئ، وتعصب ضد ما جهل من أديان وتاريخ، وحيدنا الآن لا يتناول هذه الأنهار المشتعبة.

إذا حديثنا عن العصبات التي تسود أرضنا، فإذا انتهينا منها خذننا عن التعصب الكامن في بعض الأشياء ضد إسلامنا.

ذلك أن الإسلام اختنق - أو كاد - بين عصبات المستحمقين من أتباعه، ثم تعصبات الناقمين على امتداده القديم من أتباع الدينات الأخرى.

ما العصبات التي تنتشر في بلادنا؟

إنها نزاعات بديائية سامة، قسمت الجماهير في القرى والحدود إلى قطعان متناحرة، وقبائل متنافرة، وركاب من الأشياء يزيده الهم وينقصه الهم، وتصرفه قيادات همية عفنة لا أمن لها ولا دين.

إنها عصبات قامت ودامت مع قيام الجهل ودوامه، وتئوله لياليه وتراحي أيامه.

إذا بآرض الإسلام معرض مشحون بالخربيات.

وحدها الصغير القربة التي تتنازع سيادتها أسر معينة، ووحدته الكبرى الدولة التي تتنازع حكمها أسر معينة.

إذا نظرت إلى الخرب والمعمور من أرض الله، واستعرضت القارات الخمس المحافلة بالأشياء، لم تثبت أن ترى هذه البلاد الإسلامية مدموعة بهذا الطاعم.

المذر.. مدموعة به وحده.
فهي في ميدان السياسة العالمية حقل العصبات التي تتضخم فتأكل دولًا،
أو تضاءل فتأكل جملاً قرى.
وقد اختفت قيمة الفرد - كإنسان - وهانت قيمة الأم - كرأى عام - وسط هذه
الأعوال الكائحة من العصبات الكبرى والصغري.
لقد استطاعت الهند - وهي أمة وثني - أن تتخلص من أوزار لم تزل بعض بلاد
الإسلام تعاني قيودها.
أنواع العصبات والتخصص التي تشيخ في العالمين - الشيوعي والرأسمالي -
أرقي من الطرد البديع الذي يغلب على أرضاً.
رئيس الولايات المتحدة - مثلًا - وصل إلى منصبه بعد أن تقلب في ماضيه
بين مهن تافهة - على ما نفهم - أو وضيعة - بتعريض أبناء البيتات الأصلية(!).
ويستحب على مثله لو كان بين ظهراني أن يحوز معشار هذا النجاح، لأن
الانتقاء إلى أسرة رفيعة العماد شرط الترشيح لرئاسة إقليم صغير في بلادنا العزيزة،
وإن لم يكن شرط التقدم لرئاسة الدولة الأولى في العالم أجمع.
وهذا مدى فهمنا، وفهم غيرنا لخديت محمد بن عبد الله ﷺ: «من أبطأ به
عمله لم يسرع به نسبه».
وقوله لابنته: «يا فاطمة بنت محمد لا أغني عنك من الله شيئًا».. وتحذيره
لأسرته بقوله: «لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأثونى بنسابكم» !!!

وقد تكونت في بلاد الإسلام عقدتان شنعتان كأنها حتمية لتغلف العصبات
في كيانه، وهيمنتها على مقرراته:
أولاًها: هوان الكفاحات الخاصة وكساد سوقها، وإحساس الكثير أنها لن تصل
في جدوى ما يصل إليه الحظ المواتي، بيد نسب عريق أو جاه وثيق.
وقد تخلخل ضغط هذه العصبات قليلاً بتقدم العلم وشيوخه.
ومع ذلك فإن رجلًا يقضي في تحصيل العلم عشرين سنة، قد يسبقه رجل يجيء
بشهادة ترفع نسبه إلى فلان.
ولن تكون مناعته الاجتماعية على كل حال مناعة رجل ذي أسرة ضخمة.

والعرب يقولون: إذا كان الرجل أبا عشرة، وأخا عشرة، وخلع عشرة فقد عز!!

وفي قبائل العرب، وقري الصعيد، بل عندما كنت في قطاع غزة، بقية ما أبقى الأقوام من فلسطين المكولة، كنت أنظر محسوزًا إلى هذه العصبيات المتنازلة بالألقاء المعيرة بالأخلاق.

ثم أليختت النظر إلى أحوال اليهود داخل إسرائيل حيث لا عزوة، ولا أسرة، ولا سناد، إلا الكفاية الخاصة، يجيء بها الإنسان مطاردًا من الدنيا، فيأوى في هذه البقاعة إلى جهده وكدفة فحسب.

مع هذا كانت أفواه تنفتح - وددت لو حسين بالتعال - تقول: نحن أبناء الأشتاس!... أولئك شاذ ذا الأفق الذين ما هذا العمي؟!

لقد اغتاظ نبي الإسلام أشد الانتباه من هذه النزعة السخيفة عندما قال:

"ليستهين أقوام عن الفخر بأبنائهم الذين ماتوا، إن هم حطب جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجهل الذي يدهه الخرير بائهم... إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالأباء."

ما قيمة سيف من بنى هاشم تكافه فاك الخط، إلى يهودي اخترع الغازات الخائفة؟

وبأي أصل في دين الله أو في دنيا الناس يستحق هذا أن يشرف؟ وهذا أن يتضيع؟ إذا كان حظ هذا من الإسلام أن يحفظ اسم أبيه، وحظ هذا من اليهودية أن يتعلم؟

وما زلت أذكر مسار الحرب الأخيرة بين العرب واليهود، كانت الصحف تنشر أسماء قادتنا الكبار، ومن بين يديها ومن خلفها مجموعة ألقاب!!

والغرب أن الذين هموهم رجال يعودون في الجاهلية، لم يطنطن بهم أحد، لأنه في المجتمعات السليمة تتقدم الأعمال أولاً ثم يزدّكر - بعدئذ - أصحابها.

أما في المجتمعات المنحطة، فإن الأسماء تذكر أولاً ثم تتصيد لها الأمجاد.

هذا هو منطق العصبيات المسيطرة!!

***
وثنية العقودتين اللتين خلقتهما العصبيات: التواطؤ على كتمان الحقائق وتضخيم التوافق وتعميم الفساد.

ففًى كنف هذه العصبيات الجريمة تفهم الأمم الأموات فهمًا مقلوبًا، فتشبه راكب القطار الذي يعتقد أن الأشجار والهناء على كلا الجنانين تجرى، وأنه واقف في مكانه، وهذه الجهات الركبة أفقدت أمم الإسلام خصائصها الجليلة.

فإن الله لما أثنا على المسلمين بخير ما فيهم قال: (كنتم خير أمّة أخرجتم للناس تأمرون بالمعروف وتهونون عن المنكر وتؤمنون بالله). (1)

أي إن إحقاق الحق وإزاحة الباطل وإقرار الإيام هي صفاتها التي تميز بها، ولكن الذي يحدث الآن، أن هناك جرائم خلقية واجتماعية وسياسية لا يجرؤ العمة على ارتكابها في أي بلد من بلدان العالم ترتكبه في بلادنا دون نكر ولا محاورة، والشياطين الخرس مكممو الأفواه!

إن هناك أنظمة ومناهج هي الإصلاح المفصول، لا يوجد في أقطار الدنيا قطر أحوج إلى تطبيقها منها.

ومع فقراً اللحى إليها فإن مردة العصبيات يعوقون انتفاعها بها ولت الشياطين الخرس بقيت مكممة الأفواه. فلم تأمر يعروف ولم تته عن منكر.

لقد اشتفروا بحرق البخار، وإدارة مجامعها لتعظير مجالات الظلمة.

والحق أن التعلق بهذه العصبيات ضرب من الوثنية الطاغية، وأن إضرامه بعيدة التوحيد لا يقل عن تعلق الجاهلية بـ (ود) و (سواة) و (يغوث).

**   **   **

أو ليس من المضحك أن تسمع بعدئذ عن دعاية للإسلام في الخارج؟ ولبشير ببادته، إن أمته تأخرت في داخل حدوتها برغم أنف دينها.

كم من منكر اجتماعي وسياسي توظف بيننا أركانه...!

وكم من معروف اجتماعي وسياسي مسحت عندنا معلمه...!
إن المراحل شاسعة جداً بين "كنتُمْ خيرٌ أمةً أُخرجتم بناس تأمونُون بالمعروف وترحون عن المنكر وتؤمنون بالله". وبين الأوضاع المزيفة التي تضطرب فيها أمّة تشتملها العاصيات، وأنتمها تحت وطأة رجعية مخرجة ملتثاثة. هى والجاهلية الأولى سواء.

وقبل أن ينجح حكماء الإسلام في إنقاذ دينهم من برائن هذه النزعات، ويخلقوا أمثالهم من طغيانهم المحتال، هبت على أرض الإسلام عاصفة أخرى عقيب سقوطها في أيدى المحتلين الأجانب، وسعيها الجاهل للتحرر من هذا الاحتلال.

فقد نظفت نزعات وطنية حادة لمقاومة الأعداء الدخولاء. ورأى الوطنون الجدد أن يجعلوا من مشاعر القومية الخالصة أسسًا لبناء الدولة الحديثة في الشرق الأوسط المجاهد.

الإسلام والوطنية:

ونحن نفهم أن يحتشد المواطنون صفاً واحداً لمقاومة خصم لدود، لكننا لا نفهم أبداً أن يتم ذلك على حساب الإسلام.
فأي وجه، ولأي حكمة؟ يطلب من المسلمين أن يتجاهلوا قرآنتهم، ويجدوا أحكامه باسم الوطنية؟!

وبأي وجه، ولأي حكمة تخرج عقائدهم ويلوث تاريخهم، وتصور رسالتهم على أنها نهضة ظهرت في العصور الوسطى ثم اختفت... وأن تطور الزمن وارتفع الحياة يجعل الحديث عن العمل بها لغوًا؟!

إذنا نتهم النوايا الدفينة وراء هذه الحملات السفيفة، وهي نوايا لا صلة لها بوطن.

وإذا كان لا بد من بيان صلتها فستتكلّم كثيرًا عن سلسلة التآمر الصليبي ضد الإسلام وأهله، وحكمه في شتى العصور.

(1) آل عمران: 110.
إن المسلمين يعرفون دينهم على أنه عقيدة نفسية وضرورة اجتماعية، وكتابهم ينص على هذه الحقيقة الكاملة.

والنصارى يعرفون دينهم على أنه عقيدة نفسية فحسباً، وهم لا يبالون - بعد بذل الضمانات لحفظ عقائدهم - أن يحكموا بشرع روماني أو إسباني أو أمريكي.

فأية غضابة في أن يتركوا المسلمين يطبقون شرائعتهم ليعيش الجميع في ظلها؟ يعيش المسلمون في ظلها وقد أحسوا أنهم أدوا واجبهم نحو ربهم.

وبعث النصارى في ظلها لأن الشرائع لديهم سواه.

فلماأنا يعتبرون على أمر ينفع غيرهم وليس فيه البهجة ما يضيرهم؟ إن الحكم الإسلامي لا يصاص عقيدة أخرى ولا يعطي عبادة أخرى؛ لأنه يقبل في يسر أن تجاوزه أديان أخرى، وأن يعيش مع أتباعها في سلام.

لذلك نحن نستطيع أن يثار غبار متفعل حول عودة التشريع الإسلامي. وأن يلأ الجو بالأراجيف كملا طالب المسلمين بتنفيذ أحكام القرآن.

ولنفترض جدلاً أن التشريع الإسلامي قاس في عقاب بعض الجرائم، فما دخل الآخرين في ذلك؟ وهو سينفذ في أرض تسع عشرة أعمارها مسلمون؟ أعني أنه في كل مائة مجرم يقعون تحت طائلة القانون، سيكون نحو التسعين من المسلمين؟

فالفسوقة المزعومة في هذا التشريع ستتنصب على رؤوس أتباعه قبل غيرهم.

فما معنى الاعتراف بعد ذلك على عودة الشرعية الإسلامية، من أبناؤه اللملل الأخرى، أجانب كانوا أم مواطنين؟ إننا مكرهون بإزاء هذا الوقف الدائم ضد التشريع الإسلامي إلى تقرير عدة حقوق، لقد حدث في الثورة الاستقلالية سنة 1919 أن اضطر المصريون جميعًا ضد الإنجليز، وظهور أن الاتفاق بين زعماء المسلمين والنصارى يومئذ كان على أن ينسى الجميع أديانهم في سبيل طرد العدو المشترك، وهو اتفاق غريب! وتنفيذه أغرب!
أما أن الاتفاق غريب؛ فلا أن المسلم لا ينبغي أن ينسى دينه، ولا أن يكلف غيره بنسان دينه، ومجاهدة الغاصبين من المستعمرين لا تتطلب شيئًا من هذا.
وأما أن التنفيذ أغرب؛ فلا أن الذي حدث هو أن الزعماء القوميين من المسلمين نسو الإسلام والنصرانية جميعًا.
وأما الزعماء القوميون من النصارى فقد نسو الإسلام فقط، وذكروا النصرانية جيدًا.
فلم ثمر سنوات قالائل على إبرام الاتفاق الروحي بين الفريقين حتى كانت الإدارات المصرية تبع بكثره ظاهرة من الموظفين النصارى !!.

***
أهذا اتفاق شريف بين مواطنين مخلصين، أم خديعة لإقصاء الإسلام وتغليب غيره عليه.
إذنا نعرف بأن للحكم الدينى سمعة سيئة، ولكن .. أي حكم ؟ وفي أى دين؟
كتب دولة السيد « محمد ناصر » رئيس وزراء إندونيسيا السابق كلمة يجيب بها عن هذا التساؤل قال فيها:
«كلما نادينا بحكومة إسلامية في أي مكان من العالم الإسلامي انزعج لذلك غير المسلمين، وفهموا أننا نريد حكمًا غاضبًا رهيبًا كالحكم الإلهي الذي عرفته أوروبا المسيحية في القرون الوسطى.
إن ذلك فهم خاطئ للإسلام، ولعنى الحكومة الإسلامية كما يدركه العاملون لها.
فليس في الإسلام قديسون، ولكن هناك علماء وفقهاء في مختلف شئون الدين.
ومهم ليسوا قديسين يؤدون الشعائر باسم الكهنة، فإنهم أئمة بين يدي شريعة واضحة، يستطيع كل مسلم - إذا تعلم واجتهد - أن يعرف أحكامها».


ثم إن الأئمة الرسميين ليست إمامتهم فرضًا في هذا الدين، ولكنها تنظيم إداري اقتضته الحاجة العملية للمسلمين.

ليس هناك في هذا الإسلام الذي تؤمن به قديس باسم السلطة الكهنوتية، ولا سلطة قدسية لها دور خاص في الحكم أو التشريع أو الإدارة أو القضاء.

وأوضح من ذلك أنه لا يوجد في الإسلام كنيسة ذات كيان مستقل داخل الدولة. بل يجب أن يقوم الإسلام - كعقيدة - في كل ناحية من حياة المسلمين الفردية والجماعية، الشعبية والرسمية.

وهكذا يحتضن الإسلام حياة الأمة ككلها، ولا يعترف بالفصل بين الدين والمجتمع، والدولة، يظل مع ذلك بعيدًا كل البعد عن الحكم المقدس البغيض.

لست أعتبر عن الإسلام، فالإسلام أعز من ذلك، وهو لا يحتاج إلى من يعتذر عنه.

وإذا أردت فقط أن أرد شبهة عميقية الجذور في أذهان الغربيين ومن ذهب مذهبه.

أما إذا كان المقصود أنهم يعيون علينا تدينًا، فليس من الممكن أن يكون صحيحًا.

إن أكثر الأميركيين يفكرون في بلادهم وأنفسهم كمسيحيين، ورئيسيهم الراحل "روزال" كان مسيحيًا سافرًا. وكان لا يغفل المسيحية في أي خطاب وجهه إلى العالم في أثناء الحرب العالمية الأخيرة.

والإخليال كنذك مسيحيون، دولتهم مسيحية، وملكم هو رأس الكنيسة وحامى الإيكان المسيحي، ولذلك فإن طقوس الكنيسة الدينية تحتل مكانًا كبيرًا من اهتمام الدولة.

والهولنديون مسيحيون، اشترطوا في دستورهم أن يكون الملك بروتستانتي العقيدة، بل إن هولندا حكمت حكمًا كنسيًا من 1603-1940.

هذه الدول كلا، ومعها غيرها من دول أوروبا المسيحية - حتى فرنسا البعيدة عن العالم في جهازها الرسمي - قد ظاهرت النشاط البشري للمسيحي في آسيا وأفريقيا وأستراليا، وخاصة في البلاد المستعمرة وشبه المستعمرة.
حتى أنه ظل يقال إلى القرن التاسع عشر : إن وسائل "أوروبا" في حكمها
الاستعماري ثلاث : "التجارة، والتبشير، والحرب".

غرارة على الإسلام :

بيد أن الإسلام - ولا يستثني من جراحات العصبيات القديمة - هوجم في
وقعته الرحبة بهذا اللون الجديد من الوظائف المحددة.
والقصد البيئ من وراء هذه العصبيات الإقليمية الإثبات على ما بقي من ترات
الإسلام وكيان أمته الكبرى حتى تذهب بدأ مع الأمس الداير.
هذه العصبيات الوطنية المبتدعة تختلف الشعبوية التي ظهرت قبلاً في تاريخ
الإسلام، واعتبرت حرباً عليه.
فإن الذين حركوا النزاعات الجنسية في بلاد الإسلام يزعمون قوميتهم المنتجلة
بالإسلام نفسه.
فإن افتخر أحدهم بعربيته أو فارسيته أو تركيته ضم إلى هذه النعرة الفارغة أنه
مسلم متمسك بتعاليم الإسلام.

 أي إنه كان يخلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا على نحو ما قال مهيار :

أين كَسَرَ على إيوانه !
أين في الناس أب مثل أبي ؟
قد ضمت المجد من أطرافه،
سُرُود الفرس ودين العرب.

و этاك منطق لا يعرفه الإسلام.
فكسرى أو رمسيس أو النعمان لا يشرفون أعقابهم، ولا معنى للفخر بهم.
والرجل يعتد بعمله وإنتاجه وكفايته فحسب.
والإسلام ليس دين العرب، إنها هو دين البشر قاطبة.
فليس عنصر أولى به من عنصر.

وتأياً ما كان الأمر، فإن هذه النزعة الشعبوية الباطلة ما كانت تجروه على هجر
الإسلام ومعاداة أحكامه، كما تزيد النزعة الوطنية الحديثة في أرض الإسلام في
هذة الأيام.
وقد رأيت أن هذه النزعة الوطنية تختلف كذلك قريبتها في أوروبا.
فليس مفروضًا على المواطنين هناك ولا على السياسة المحتفزين أن يشعروا
- كفريقة من وطنينا الآخر وساستنا الكبار - من الاتجاه الإسلامي، وتتهم
ثائرتهم كلا طالب المخلصون لديهم بتطبيق الشريعة الإسلامية في الداخل,
واحترام الجامعة الإسلامية في الخارج.

ونحن نؤكد أن هذه الوطنيات المبغضة للإسلام هي صناعة غربية بحتة، وأنها
مظهر لنجاح الغارة الكبرى التي شنتها الصليبية الحديثة على ديننا.
وقد اضطرت هذه الصليبية الحديثة أن تكشف النقاب عن وجهها الكالح لما رأت
بوادر تقرب شديد بين المسلمين هنا وهناك.

إنها أعلنت حربًا سافرة على الجامعة الإسلامية(1)، وتبرعت في طريقها العوائق,
وتأجت أبواب الدعاية لتلاقى على الوحدة الإسلامية المشروعة ظلالاً من الريب,
وتتهمها - قبل ميلادها - بأنها أداة للكاذب وكذا!

*********

وقد رأينا طالع هذه الحملات المدببة، فوجدناها تعتمد على صنفين من
الكتاب: صنف لا يزال يحمل اسمه المسلم - وإن كان لا يدرى عن الإسلام شيئًا -
وهو يستمد أصول تفكيره من مصادر أوروبية خالية.

ويغلب على مسلكيه وإدراكه التنبك للأديان جملة.

وهو منطقى مع نفسه في هذا التنبك، ولكن ليس منطقيًا مع نفسه حين يسخر
محاربة الجامعة الإسلامية لحساب جهات يهمها القضاء على الإسلام وحده، حتى
يبقى الميدان خاليًا للدول المسيحية وإسرائيل.

وقد سخر هذا الصنف بنجاح.

---
(1) تعد فكرة الجامعة الإسلامية إلى جمال الدين الأفغاني . فقد سعى إليها لضم كافة الشعوب الإسلامية
تحت راية جامعية، وقد تحسس لها السلطان عبد الحميد، لكن سيطرة المستعمر وغزوه الثقافي والعسكري وقفا
حائلاً عن فكرة الجامعة الإسلامية وحركتها . انتزارد . عبد العزيز الشناوي - الدولة العثمانية دولة إسلامية
مفترى عليها . طبعه دار الأنجليز جـ3 .
غير أن النتائج التي وصل إليها أو الظروف التي واجهها آخر الأمر جعلت فريقًا جديدًا من الكتب الكاثوليك ينزل إلى الميدان يكتب ضد الجامعة الإسلامية المشيدة.

والكتاب الكاثوليك والذين ظاهروهم في هذه الحملة يقولون:

إنهم فعلوا ذلك خدمة للعلم الجرّد! وليس كرهًا للإسلام وانتصارًا للمسيحية!
والدليل على هذا أن يؤلف أحدهم رسالة - في أثناء الدعوة إلى الجامعة الإسلامية - يتهم فيها النبي وصحابته بأنهم قوم أضرموا الجمعة وأغارهم بفتح البلاد!

وأن تاريخ الإسلام - مدى أربعة عشر قرنًا - كان تاريخ هضم وظلم لأبناء الأديان الأخرى (1)، وكأنه يقول: هذه صفحتكم السوداء، كيف تطالبون بإعادة الإسلام إلى الحكم؟
من حقنا أن نواجه الصليبية الحديثة بعد هذا التحدي، وأن نكشف الغطاء عن ماضينا وماضيها، وأن نفضح السرائر المغبرة التي تستخدم أخط الوسائل للتيحولة دون عودة الإسلام إلى ميدان القانون والحكم، و إلى ميادين السياسة الدولية.
ولا بأس أن نستعير العبارة التي قدم بها الكاتب الكاثوليكى اعتراضه على إقامة جامعة إسلامية . . قال:

"في هذا الوقت الذي تفكر فيه الجامعة العربية في توسيع رقعةنشاطها، وضم جميع الشعوب الإسلامية تحت رايتها. في هذا الوقت الذي يحبذ فيه نخبة من المسلمين بعث الإمبراطورية العربية القديمة من مروقتها. لا نشك في ترحيب عدد كبير من أقطاب السياسة بكلما يساعدهم على فهم الأوضاع الصحيحة، وتوجيه أفكارهم في سبيل المحافظة على الوئام بين الأغلبية المسلمة والأقلية المسيحية.

وإذا تعرّف علينا اقتراح حلول لهذه المسألة فلنحاول دراسة بعض وجوهها . . " .
والحق أن الكاتب لم يتعرّض عليه اقتراح الحل، كيف وهو مستقر في بؤرة شعوره أن الحل المطلوب هو إمامة كل محاولة لإقامة دولة إسلامية في مصر، وإمامة كل محاولة كذلك لإنشاء جامعة إسلامية في العالم.

وليس هذا رأي شخص فذ حتى نظرته جانبيًا، بل هو رأي هيئة منظمة مدثمة تواصل الليل بالنهار لبلغ أهدافها.

فهى - في قلب بلاد الإسلام - توهمن الأقلاب ترفض كل الرفض عودة المسلمين إلى شريعتهم.

وهي - خارج بلاد الإسلام - توهمن الوحدة الإسلامية خطر داهم على أمن العالم..!

أليس الاستعمار هو سياج الأمن للعالم المنكوب؟

يفح إذن أن تكون ذيلاً خسيساً لإحدى الجهات المتخصصة، وأن تنثر الفتوح الختيرة في كيانا الكبير، وأن نستورد فقهنا وفكرنا من أوروبا ».

وإلا فنحن دعة إلى دين خطر على الأقليات وعلى العالم أجمع ..

* * *

إن للصليبية الحديثة مأرب واضحة، إنها تجاوز أن تجعل من انكسار المسلمين عسكريًا ارتداً عامًا عن الإسلام.

وما كان نتصير هذا الجيل من المسلمين مستحيلًا، فهي تعمل ابتداءً على خلخلة يقينه، وتبتزمه في فكرة التدين على العموم.

والمرحلة الثانية تقوم على حركة تقرب، ومؤاومة بين جيل منسلخ عن عقائده الحقئة، وبين أبناء الدول المسيحية الغالبة.

أما المرحلة الأخيرة فاللفض فيها أن تتحى معالم الإسلام من أقطاره العتيدة، وأن ينصر ما يمكن تنصيره، ويستأنف ما يستعصى على الردة.

وبهذا الأسلاو نتجج الصليبية الحديثة حيث عجزت جرثومتها في القرن الوسطى.
غير أن هذه الخطة سوف يحققها الفشل الذريع لو قامت في الشرق الأوسط دولة مسلمة حقًا، أو تماسك المسلمين في جامعة تعلم شعثهم وتجمع شملهم.

ومن ثم يبذل أعداء الإسلام جهوداً لتعزيز أية نهضة تعمل على إحياء الجامعة الإسلامية، أو تسعي لتحقيق الفقه الإسلامي في بلاد الإسلام.

وليس من المصادفات العارضة أن تتولى جمعية الشباب المسيحيين في مصر - ورئيسها الفاخر سعيد سفير بريطانيا العظمي - أن تتولى علناً المعارضة لفكرة التكتل الإسلامي، وأن تتولى فروعها في صعيد مصر إثارة الشغب الطائفي كلما اعتدت نسبة الموظفين الأقباط مع إخوانهم الموظفين المسلمين في الوظائف الحكومية.

والخطة الظاهرة أن هذا اتجاه رجعي ردوده.

والعلاقة الدفينة هي الكره العنيف للإسلام وأهله، وتزيد الشر والغدر لحاضره ومستقبله.

فهل يعقل أن يكون التمسك بالإسلام رجعية سخيفة، والتمسك بالنصرانية أو اليهودية تقدمية لطيفة؟

وللاستحالة الحقيقة الصارخة:

إن إنجيلنت وأمريكا وفرنسا ومن للفقه، هم قادة الحملة على الإسلام، وأضعاد سياسة استنصاله جهارة واغتيالاً.

وليس الجبهة الشرقية بأقل منهم أضاغنا على هذا الدين، ورغبة في القضاء على حكمه.

وأما أكثر حكامنا الذين حسبوا في هذه المضيقة، ودروا أفكارهم داخل جدرانها:

قُرأت هذا النبأ في مجلة محترمة:

"تصاعد اليوم نظريتان سياسيتان خارجيتان، إحداهما - وهي القديمة - "أرى أن من المصحة أن تظل مصر معنوية بالأشتراك الإداري والعريبي والشرقية، ويشكون القضايا الاستردادية المختلفة، ولو أدى ذلك إلى دوام الارتباط مع بعض الدول الكبرى.

وأصحاب هذه النظرية لا يتوقعون أي أمل في عدالة هذه الدول، ولا في إنضاجها للقضية المصرية على أية حال."
أما النظرية الثانية- الجديدة- فهي ترى أنها في حاجة إلى التفرغ للقضية المصرية، وإلى عدم التشويش عليها بقضايا الآخرين- وإن كانت عزيفة- إلا في حدود القدر المعقول من الاهتمام. ونظريتهم ترتكز على أن مثل هذه المهادنة قد تريح لمصر بعض الأنصار في هيئة الأمم المتحدة.

* * *

هذا الكلام لا يجوز أن يردد في هدوء، بل إنه يتبع لنا فرصة إبداء رأينا السريع في قضيتنا الخاصة، وقضايا المسلمين عامة، وقضايا المضطهدين والمستضعفين في بقاع الأرض كلها، مهما اختلفت آدابهم وألوانهم.

ونحب أن نصف موقف حكوماتنا السابقة والحاضرة وصفاً دقيقاً.

فهي لم تعني بشكون العرب والمسلمين إلا في حدود ضيقة، وتحت عناوين مبهمة، وبالقدر الذي تسمح به السياسات القومية المتزامنة في تخومها المضلعة عن دينها.

السياسات التي تتجاهل أحكام الإسلام وتستحيى من الظهور به في مجامع العالم الضخم.

وأقرب الأمثلة إلى أذهاننا أنت ما اعترفنا بإندونيسيا دولة مستقلة تحررت من طغيان هولندا، واستردت حقوقها المحتلة بالحديد والدار.

قبل لنا: إنها سارعتنا إلى تأييد إندونيسيا في كفاحها الظافر بدفاع من التعصب للإسلام.

ونعت علينا دول أوروبا الفاخرة هذه الغيرفة العاطفة المعقولة.

والرغب أن ساستنا سارعوا إلى الدفاع عن أنفسهم أمام الاتهام الخطير الموجه إليهم، فأقررا أنهم لم يقفوا بجانب إندونيسيا دفاعاً عن الإسلام وانتصاراً لأهلهم، بل احترامًا للحق المجرد، واستنكارًا للعدوان المجرد، دون النظر إلى وحدة الدين بين مسلمي مصر وجاوه.

كان التمسك بالإسلام معرة، والانساب إليه سنة.
أما اجتماع أساطيل أوروبا في مياه اليونان، وتخطيطها للأسطول المصري، وتخلصها اليونان من سلطان الدولة التركية بدافع من الحمية الدينية الخضبة، فذلك أمر لا يغبار عليه!!

وفي مأساة فلسطين حرصت دول الجامعة العربية على إطلاق الإسلام عن ميدان السياسة، واعتقد أنها تدافع عن عرب فلسطين كبشر اثنين أكلتهم عصابات اليهود.

ونفدت ولا تزال تنفذ خطتها في إبادتهم، وإرث أرضهم وديارهم وأموالهم.

وقد ناشدت الجامعة المسكونية ضمير العالم المتحضر ليوثق هذه الكارثة الهائلة، ولم تحرر في مناشدتها الطويلة أن تشير إلى الإسلام بكلمة، ولا أن تومى من بعيد إلى أن هذا العدوان الصارخ يستفز القيام من المسلمين...

كلا، فاجمل الجامعة تشكيلا من الدول السائرة في فلك سياسي مرسوم بهجارة.

وآسيرة العروبة بينها كأصنة اللاتينية بين دول أمريكا الجنوبية مثلاً.

ولعل إفادة الروح الإسلامى كلما استيقظ من أهم الأعمال التي تقوم بها الجامعة الموقعة.

ونحن لا نظلم ساستنا فكنففهم فوق ما يطيقون.

إنهم لا يعرفون الإسلام كدولة ذات منهج وهدف، تضم الأجناس والألوان كما تضم الشجرة الواحدة أنواع الورود، ترى فيها الأحمر القاني والأصفر الفاعل والأبيض الناصع.

إنهم لا يعرفون الإسلام كذلك، كيف يفهون سياساته؟ وبيضرون غايته؟

ومنذ سنين صاد رئاسة «مات هذا الرئيس منذ مدة» مما صنعت قضية فلسطين؟

فقال: أنا الرئيس مصر، لا رئيس وزارة فلسطين!!

وكان الرئيس المذكور عائداً من لندن بعد مفاوضة فاشلة حول القضية المصرية.

ولولا بقية من المحافظة على التقاليد القديمة، ولولا التوجس من السفور بنبذ الإسلام والعلمانية بهجر أحكامه واتجاهاته ولولا غلاؤن الرأى العام بين الحين والحين غضبًا لدينه وسطخًا على خصومه، ولولا نفر من الحكام لهم ضمائر وشرف تسعد بهم مناصبهم على فترات متباينة.
لولا ذلك لأنقطع صلة مصر بالإسلام في الميدان الدولي، ولصارت صلتنا
بشقيقاتنا في الدين كصلتنا بسوسرا أو اليونان.
وقد أثر هذا موقفنا في أحوالنا كلها فزادها تعقيدًا وارتباكًا، وجر علينا
الفشل الذريع في سلمنا وحربنا على سواء.
والعلاج؟ ما هو؟ وأين السبيل إليه؟؟
العلاج في أن نبني سياستنا الخارجية على دعائم إسلامية بينة، وأن نعود إلى
الإسلام في باطن أمرنا وظاهره. وأن ننبذ سياسة التأرجح والميوعة أمام الكتل
dولليه التي مزقت الحجاب عن نياتها، وبارزتنا بالعذاب والتحذير، ووضعت خطأً
ماكرة لإهلاكنا.
ولن يستطيع جبارهم أو تو في من سلطان أن يفصص عرا الأخوة بين مسلمي الصين
ومسلمي المغرب ومسلمي هذا الوادي.
إن الاقتراح القائل بفصل السياسة المصرية عن السياسة الإسلامية هو تمثيل
رغبنا أوروبنا في تقريبنا دولتين متقاطعتين، تشغيل إحداهما ببعضها عن الأخرى.
بل لعل أوروبا تطمغ في أن تضرب بعضنا بالبعض، ما دامت آسيرة الدين قد
شلت تمامًا عن العمل.
وليس ذلك مستبعد، فإن أوروبا صنعت ذلك بنفسها قديمًا وحديثًا.
وهذا الكلام ينتظى على أمل ناطل في عدالة موهومة.
لا .. بل هو ينتظى على مساومة خنسية في سوق مملوكة.
إذ كيف تنتزل لفرنسا بالإضعاء عن المذابح الشنيعة التي توقعها اليوم بالغازية؟
وهل نتوقع من القذر - إذا اقتربنا هذا الجرم - إلا أن نلقى المصير نفسه على يد
الجرارين أنفسهم؟
إذا كنا نتبع في سياستنا منطق الإسلام، فهذا كتاب الله يفرض علينا أن نحقق
العدالة حيث كنا، وأن ندعو إلى الإنصاف في كل محلف لا نطالب بقلة أو كثرة،
بصدق أو عداوة، بغني أو بفقر.
يا أيها الذين آمنوا كُونوا قوامين بالْقُسْطِ شهداء لله ولو على أنفسكم أو أَوْلَادِكُم أو الأَئِمَّةَ أو الأَقرَبِينَ إن يَكُن غُبيًا أو فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلُوهُ وَهُمَا فَلَم تَتَبِعُوا الْهَوَى أَن تَتَّبَعُوا الْهَوَى أَن تَتَّبَعُوا الْهَوَى ۖ وَإِن تَتَّبَعُوا الْهَوَى فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرًا.

وَإِذَا كَانُوا نَتَبِعُونَ فِي سَيَاسَتِنَا مَنْطِقَ الْرِّجْلَةَ وَالْخَلْقِ فَهَلَّ مِن الْرِّجْلَةِ وَالْخَلْقِ أَن نَشْتَغِل أَذْيَالِاً لِلسَّمَاسِرةِ الْمَروُاتِ إِلَّا أَن أَنْتُمْ مَنْ يَبِعُونَهَا بِشَهْوَةٍ عَارِضَة؟

وَإِذَا كَانَتْ نَتَبِعُونَ فِي سَيَاسَتِنَا حَقًّا وَلَا عَدْلًا فَلَمَّا نَعِيبُ عَلَى أَكْلِيْ حَقَّنَا وَنُهِّيَ خَيرَاتِنَا؟

إِنَّ الخَيْرَ كُلُّ الخَيْرِ لَأَمَّنَا أَن تَتَسَمَّكَ بِالْإِسْلَامِ جَمْلَةً وَاحِدَةً أَن تَعْيِشِ بِهِ وَلَهُ وَأَنْ لَنْ تَفْتَنْنَهَا الْمَظَاهِرُ التَّأْهِبَةُ عَنِ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْحُلِيْلِيَّة.

رُوِى الْخَاَمِ حُكْمًا عَنْ طَارِقٍ قَالَ: «خُرَى عَمَّرُ إِلَى الْشَّامِ وَمِنَ حَضَرِ أَبُو عَبْدَ اللَّهِ فَأَتَوْا عَلَى مَخَاضِرِهِ وَعَمَّارُ عَلَى نَاَقَةٍ لَهُ فَنُزِّلَ وَخَلَعَ خَفْيًةَهُ فَفَضَرَهُمَا عَلَى عَاتِقَهُ وَأَخَذَ بِرَمَمِ نَاقَتِهِ نَخَاضٍ فِي المَاءِ فَقَالَ أَبُو عَبْدَ اللَّهِ: يَا أمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنتَ تَفْعَلُ هَذَا؟ مَا يَسْرِي أَن أَهْلَ الْبَلْدَةَ أَسْتَشْرَكُوا؟ فَقَالَ عَمَّارُ أَوَّهُ! لَوْ قَالَ هَذَا غَيْرُكِ يَا أَبا عَبْدَ اللَّهِ لَجُعِلَتْ نَكَالًا لَأَمَةَ مُحْمَّدٍ! إِنَّا كَانَا أَذْلِ قُوَّمٌ فَأَعْزِنَا اللَّهَ بِالْإِسْلَامِ فَمِنْهَا نَطِبُ الْعَزَّ بِغُيُورِ ما أَعْزِنَا اللَّهَ أَذْلِنَا اللَّهَ ...».

إِنَّا نَسْوَى هَذِهِ الْحَكِيمَةَ لِرَؤْسَائِنَا ... وَلَعَلَّ الْرِّجَالِ الْغَارِقِينَ فِي أَرْدِيَةِ الْحَرْبِ وَأَلْوَانِ الدِّعَةِ عِنْدَنَا يَسْمَعُونَ إِلَى قَصَةِ عَمَّرُ الْخَافِي وَهُوَ يَحْلَمُ عَلَيْهِ فِيِّتْضَخَّاحِهِمْ مِنْ بِدَايَةِ الْحُكَّامِ الْأَوْلِيَّةِ وَيَنْتَدُونُ فِيَمَا بِيْنِهِم بِطَرَافِ العَصْرِ الْأُوْلِيِّ ... وَيُسِرْنَا أَن نَنْضِعْ نَزْعَ عَنْ سَادَتِنَا النَّاعِمَينَ هَذِهِ الْقَصَةِ رُوِيَ «أَلَكَسْنَدرِ وَبِرْنَ» وَهُوَ كَاتِبٌ إِنْجِيلِيِّ يِهُدِي قَضَى سُنْنِ الحَربِ الْأَخِرِيَّةِ فِي رُوسِيَا قَالَ...«(1)

الإمساك: ١٣٥٥.
ربما لا يكون ستالين منزهًا عن الآخطاء، ولكنني لن أنسى أبدًا هذه القصة التي تكشف عن الجانب الإنساني في نفسه.
فقد فاجأ مرة مركز قيادة "زوكوف" بزيارة غير مرتبطة في أحلام أيام الحرب الألمانية الروسية.
وكان "زوكوف" قد عاد من الميدان مرهقًا، فاستلقي على فراش بلبنان، واستغرق في النوم.
ودلف "ستالين" على أطراف أصابع قدميه، فألقى حذاءه القائد مبتلين، وخشى أن يصاب من جراء ذلك بضرر، فخلعهما برقبة قدميه، وحملهما إلى ياور القائد قائلاً:
- من العار أن تترك عظيمًا مثله ينام بحذاءه مبتلين، جففهما في الحال وأخبرته عندما يستيقظ أنتي أنتظراً.
وارتبط الياور فما أن انصرف "ستالين" حتى أيقظ "زوكوف" وأنبه بالزيارة والرسالة.
وأسرع القائد فلبس حذاءه ولما يلفا، وادى إلى موسكو.
وإذ دخل على ستالين، ألقى هذا نظرة على الحذاءين ثم قال:
"مازالا مبتلين؟ إن ياورك مهما يا صديقى، ودجر بك أن تتخلص منه، ثم أرسل يستتحض له حذاءين جديدين ".
إن الصغار صغار الألسن ولعاشت في أبراج.
وإن العظمة لا يخرشها أن تخوض في الأوحال ولا أن تحمل الأحذية.
وددنا له أن رجالنا استروا بالإسلام وأشردوا روحه الكرية، ثمواجهوها ساحة الدنيا أجمعين.

* * *
(٣)
المسلمون وأهل الذمة
لا أريد أن أذكر اسم هذا الكتاب ولا اسم مؤلفه(1). وسأعرض في فصول متابعة لحقائق الموضوع الذي عالجته، وسأكشف الغطاء عن نواحية كلها.
إن المؤلف يمثل كثيرين من يختبئون خلفه، ويوزورهم على متابعة نشاطه ضد الإسلام.
وكتابه حلقة من سلسلة لا تخفي أطرافها ولا أهدافها.
وقد اصطنع موقف الباحث المثير، وليس مسوح العالم المجرد، وانتهى من تجوله في ثلاثة عشر قرناً على دخول الإسلام مصر إلى النقط الآتية:
- أن الفتح الإسلامي غارة عربية قامت بها قبائل كانت تستغل قديماً بالسلب والنهب، وأن العامل الديني يعتبر ثانويًا إلى جانب العامل الاقتصادي.
- وأن هؤلاء الغزاة هم بالنسبة إلى الرومان سادة جدداً.
ومن ثم فهو يصفهم بأنهم محتجلون ومستعمرون، وأن مسلكهم في مصر قام على استنزاخف خيراً، واستذلال أهلها - يعني بهم الأقباط -.
- وأن الشريعة الإسلامية تقوم على تأريث العداوة ضد أهل الذهب، وتضع سياسة دائمة لإهانتهم وعزلهم عن المجتمع العام.
- وأن تاريخ الخلفاء والولادة من بدء الإسلام إلى العصر الأخير شاهد يصرخ بما أوقعه المسلمون من مأس وصائب بغيرهم.
- وأن على الذين لم يذكروا بالإسلام أن يفقولوا الطبيعة الجافة لهذا الدين وأن يتوقعوا الصراع الدامي حين يرتبطون بعلاقات مع أهلها.
- وتتبيلة على هذه النقاط التي ملأها كتابه نقل صوياً من القرآن بعد أن حرفها عن موضوعها.
ونقل كذلك وقائع من التاريخ بعدما أبدها عن ملابساتها.
وجاهل من نصوص الإسلام، ومراحل تاريخه الطويل ما يدحض مزاعمه الجريئة.

(1) كتب أحد المسيحيين كتابًا شديد الطعن في الإسلام والشريعة الإسلامية.. وأعلن عدم مناسبة الشريعة الإسلامية لقيادة أوجه الحياة... إلخ. وقد حرص الشيخ لا يذكر اسمه أو كتابه نكرانًا له إلا أنه ركز رده على موضوع الكتاب لا على اسمه «المحقق».
واعتمد على مصادر صليبية، وحوادث وهمية في ملء أكثر من ثلاثمائة صفحة

باستمرار واستنادات تزود القارئ بفكرة واحدة:

وهي أن الإسلام منذ ظهور وهو بعبث - في مصر وفي غيرها - فسادًا، ويوسع

الأقليات النازلة بأرضه نكالاً واضطهاداً!

ولولا أن المؤلف يحتل وظيفة كبيرة في هذه البلاد، ولولا أن المصطدرين في الماء

العكر سيطرى بكتابه إلى كل أفق، ولولا ثقتنا من أن الكتاب يخدم فكرة تهيئة لها

وسائل شتى، ويسخر لها رجال كثيرون لتتركنا هذه الخرافات تموت وغداً وموت

صاحبة معها.

بيد أننا مضطرون إلى تتبع أخطاء المؤلف وخطيئاته لفضحها واحدة بعد أخرى

إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل، وقطعًا لدار المجرفين والمفسرين.

**

بني المؤلف فكرته كلها على أساس عجيب، اقتنع به وافتراض في الناس جميعًا

أنهم يعقلون به، هو أن القرآن يوصي بالتنكر للهجر والنصاري، ومجاعاتهم، ورفض

استخدامهم وموالاتهم والدم في نهبهم وسلبهم.

وينساء المؤلف في ص 313: "إذا لم يكن العرب في حاجة إلى مساعدة

الأقاطع، هل كانوا ينبعون معهم سياسة التسامح؟".

ثم يجب حضرة عن هذا السؤال قائلًا: "من الواضح أن النصارى لم يكن

موضوع اهتمام الحكام"! لماذا؟ "أن الإسلام يأمر بنبضه والبطش به.

ومع ذلك خرق الحكام الشرعية وخرقوا نصائح الفقهاء وأبقو في وظيفته لأنهم

كانوا في حاجة إليه. ولم يتذكروا الشرعية والفقه إلا إذا أرادوا البطش بالأقاطع".

هذا المؤلف المسكون يرى أن الإسلام قد أصدر حكمًا مبرّرًا باستثناص النصارى

واليهود، وأن حكام الإسلام عصوا بأمر دينهم لاجئتهم إلى كفاية أعدائهم!

أراه إلى هذا السخف؟

إنه الإله الذي دار عليه الكلام في مثل الصفحات!!

ومن أين عرف هذا الباحث الذي أن الإسلام يقف هذا الموقف من النصارى

واليهود؟
لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياءً من دون المؤمنين...» (1)
(2) يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياءً...
كيف وإن وضوعكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا دمَّة يرضونكم بأفواههم وتأتي قلوبهم...»
والآيات المذكورة لا صلة لها البينة بال موضوع الذي تعرض الكاتب له.
أو نكاد نعجز بأنه يعرف ذلك، وأنه يحرف الكلم عن مواضعه عمدًا. فهو جمعًا واردة في المتدينين على الإسلام والخارجين لأهله، وتنفير أفراد الأمة من معاونة خصومها واجب يتجدد في كل عصر.
وقد حدث في عصرنا هذا - في هذه الأيام القريبة - أن أصدرت الحكومة قانونًا يحرم التعامل مع القوات الأجنبية.
فهل يفهم من ذلك أن مصر تكن البغيض للعالم أجمع؟ وأنها تشترى خصومته من غير مبرر؟
لقد قال السيد المسيح: «ما جئت لآلقى سلامًا بل سيفًا»!
فهل يفهم أحد من ذلك أن رسالة المسيحية إيقاد الخروبة في الأرض، وأنها لا تجع بين الناس إلا لسفك الدماء؟ إن هذا فهم أخرق.
ونحن المسلمين لا نتهم النصرانية به، ولا نفهم من كلمة المسيح هذا المعنى الواسع للخصومة المتحدية أبدًا.
ولو كان المؤلف متحرِّيًا الحق في فهمه لنصوص الإسلام لقرأ عشرات النصوص الأخرى، بل لأكمل الآيات التي استشهد بها، خرج من ذلك بالحقيقة الناصعة الوحيدة التي يقرها كتاب الله:

(1) آل عمران : 28. (2) المائدة : 51. (3) التوبة : 8.
ويَهَيِّن الإسلام دفع عن نفسه إذا هوجم، ويأمَّر بمسألة من يتركونه وشأنه، غير متعرضين لسير دعوته في الأرض، ولا صادقين أحدًا عن الدخول فيها إلّا إذا لجَّبَراً يعوق دعوته، ويهين أمته، واشتبك معه في حروب باردة تارة، وحامية تارة أخرى حتى يؤمن طريقه فحسب.

**

وتنقل من كتابنا "الإسلام والاستبداد السياسي" تفسيرًا لقوله تعالى:

لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياءًا... إلّا ينجون مبادئ الدين في أوضاعها كما نزل بها الوحي.

... يجيء أحدهم إلى هذه الآية فينيرها عما قبلها وما بعدها ويفهم منها أن الإسلام ينهر نهيبًا جاسموًا عن مصادقة اليهود والنصارى ويجبر قطع علائفهم ويهدد المسلم الذي يصادقهم بأنه انفصال عن الإسلام والتحق باليهودية والنصرانية والمعنى بهذا التعميم باطل.

والأيات اللاحقة لهذه الآية المرتبطة بها في موضوعها تحدد الموضوع بجلاء لا يتحمل خلطًا.

فاحظ أن الآيات نزلت تطهيرًا للمجتمع الإسلامي من ألاعب المنافقين، ومن مؤامراتهم التي تدبّر في الخفاء لمساعدة فريق معين من أهل الكتاب أعلنوا على المسلمين حربًا شعواء، واشتبكوا مع الدين الجديد في قتال هو بالنسبة له قتال حياة أو موت.

فاليهود والنصارى في هذه الآية قوم يحاربون المسلمين فعلاً، وقد بلغوا في حربهم منزلة من القوة جعلت ضعاف الإيذان يفكرون في التحجب إليهم، والتحمل معهم فنزلت هذه الآية ونزلت معها ما يفضح نوايا التخاذلين في الدفاع عن الدين الذي انتسبوا إليه: "فَئِنَّ الذي في قلوبهم مرض يسارعون فيه، يقولون نحن من أن.
تصبيح دائرۃ فعسی الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عينه فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين

ثم تستطرد الآيات في توصية المؤمنين بتدعم صفهم أمام المنصفين والمتهمين تطالبهم بمقاطعة المجرمين للإسلام من أهل الكتاب مسوغة هذه المقالة بأنها رد للعدوان، فـ*«يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين أتخذوا دينكم هزوا ولعما من الذين أرتو الكتب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنت مؤمنين وإذا ناديتهم إلى الصلاة أتخذوها هزوا وَلَعَا...»* (1)

فهل هناك ضير على دين ما إذا معن أتباعه من مصادقة الذين يهتمون بتعاليهم، ويسخرون من شعائره؟... » (2) هـ

أما قوله تعالى: *كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكَ لَا يُرِيَّنَّكُمْ إِلَّا ذِكْرُهُمْ* (3) فوالآية قبلها مباشرة تشرحها: *كَيْفَ يُكَونُ لِلنَّاسِ عَهْدٌ عِنْدَ الله وَعَهْدُ رُسُولِهِ عَهْدٌ أَلْبَنَانَ* (4)

عاهدتم عند المسجد الحرام لما استقمارا لكم فاستقبواهم. (5)

والمعنى الذي لا يستغرب عاقل في إدراكه أن المقصود بالآية هم الوثنيون المهاجمون للإسلام، الناكثون بعهودهم معه. (6)

وقد أشتبك هذا الموضوع بحثًا في كتابنا *تأملات في الدين والحياة*.

فكيف ساهم هذا المؤلف أن ينقل كلامًا واردًا في المشركين الناقضين للعهود زاعمًا أنه نزل في أهل الدمعة؟ إن هذا كذب صريح.

والآية الثالثة ذكر المؤلف نصفها الأول فقط لأن نصفها الثاني يكذبه.

ثُمْ قَالَ اللَّهُ: *لَا تَمْنَى الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ* (7) ثم قوله: *إِلاَّ أَنْ تَنْتَقَوْا مِنْهُمْ تَقَاةً* (8) فهنا إشارة بينة إلى أن الكلام قبل في حالة حرب يطرد فيها المؤمنون.

وقد تضطرب الأحوال العصيبة إلى اتخاذ وسائل النجاة، فنبهوا إلى ألا يكون ذلك على حساب إيمانهم.

وقد بلغ هوس الكتاب في اتهام القرآن بأنه يغري بالعدوان إلى الاستشهاد بقوله تعالى:

(ولا تنهوا ولا تحزنوا ولا الأعلون إن كنتم مؤمنين)

مع أن الآية قيلت بعد غزوة "أحد" تعزية للنبي في قتل أصحابه وتبنيًا للمسلمين في كفاحهم المتعب مع المشركين، حتى لا تكسر الهزيمة همهم في ضعفوا أمام الوثنية العنيفة في جزيرة العرب.

***

ولم أؤلفًا فقد خصائص الأمانة في البحث والنقل والاستدلال كالخواجة الذي وضع هذا الكتاب.

فقد زعم أن الشريعة ستّ "المبدأ الذي يشد أحيانًا على أهل الكتاب ويدلهم": ص 52، وأورد من القرآن الكريم الآيات التي رأيتها - وليس لها موضوعه صلة - وغض النظر عن الآيات التي توصى ببر أهل الكتاب فلم يُشر إليها.

ثم تجاوز السّنة المطهرة فلم يعلق بشيء على قول رسول الله ﷺ: «من قتل رجلاً من أهل الذمة لم يجد ريح الجنة وإن ربحها لتوجد من سبعين عامًا». ويكذل كقوله: «من ظلم معاهداً أو أنتمبه حقه، أو كله فوقع طائفته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فإنها حجيجه يوم القيامة».

ومرّ على النصوص الثابتة والسواقي المقررة في صدر الإسلام، والتي تنطوي بما أفاد الدين على أهل الذمة من رعاية ووفاء ورحمة، فلم يكتثر بشيء منها. لأن غايةه من كتابه تضح في كل صفحة.

فهو يريد إهانة الإسلام وتشويه تاريخه واتهام أهلها بما هم منه براء، اتهامهم بالتعصب الدين، واستثمار الأفقيات التي تعيش بينهم.

إذا أعوزه الصدق للوصول إلى هذه النتيجة. ففى المعارض والأكاذيب مندوحة.

(1) آل عمران: 139.
ممالك عمر نحو الزمن:

إن الخليفة الراشد عمر من أعرف الحكام بطبيعة الإسلام وأدرارهم بما يكنه هذا الدين للبشر جميعًا من عطف وود.

إن ما يحفظ التاريخ من ممالك عمر نحو البلاد المفتوحة ونحو آلها ليس موضع مراء وريبة.


فدخل على الأمير فحدثه فأمر بهم فخلاو.

قال أبو يوسف: وحدث أن مر عمر بباب قوم وعلى سائل يسأل، وكان شيخًا ضرير البصر، فضرب عمر عضده وقال له:

من أي أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودي.

قال: فما أجابك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والخِزاء والسن.

فأخذ عمر يبدهه، وذهب به إلى منزله وأعطاه ما وجدته ثم أرسل به إلى خازن بيت المال وقال له انظر هذا وضرباه(1)، فوالله ما أنصفناه إذ أكلنا شبيبهه ثم تخذه عند الهرم. إما الصدقات للفقراء والمساكين.

الفقراء هم الفقراء المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب. ثم وضع عنه الجزية.

(1) أمثاله ومن على شاكلته.
والعاطفة التي جاّشت في الرحمة في نفس عمر نحو هذا اليهودي البائس، نبعت من قلب متحمس للإسلام، متمسك بمبادئه، وقد كان عمر شديدًا في دين الله، ولكن الشدة التي عرف بها لا تعني التعصب الأعمى، والضغينة القاسية على المخالفين للدين من أهل الكتاب الأولين.

روي الترمذي عن رسول الله ﷺ: "ثلاث من كن فيه نشر الله عليه كنفه، وأدخله جنّته: رفق بالضعيف، وشفقة على الولادين، وإحسان إلى الملكوك".

وروى يحيى بن آدم في كتاب الخراج: "أن عمر لما تداني أجزله أوصي من بعده وهو على فراش الموت يقول: أوصي الخليفة من بعدي بأهل الدنيا خيرًا، وأن يوفي لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفهم فوق طاقتهم".

وقال الدكتور "أ. س. ترون" مؤلف "أهل الدنيا في الإسلام".

وفي الأخبار النصرانية شهادة تؤيد هذا القول. وهي شهادة البطريرك "عيشوباته".

الذي تولى منصبه 427–457 هـ. إذ كتب يقول:

"إن العرب الذين مكثهم ربهم من السيطرة على العالم يعاملوننا كما تعرون. إنهم ليسوا بأعداد للنصرانية، بل يتدرون ملتها، ويوقرون قديسينا وقسيسنا، وعدم يد الملونة إلى كئيسنا وأديرتنا.

والظاهرة، أن الاتفاق الذي تم بين "عيشوباته" وبين العرب كان لصالح النصارى، فقد نص على وجوب حمايتهم من أعداؤهم، وألا يحملوا نفسًا على الحرب من أجل العرب، وألا يؤذوا من أجل الاحتفاظ بعبادتهم ومارسة شعائرهم، وألا تزيد الجزيةgages في من الفقير على أربعة درهم، وألا يؤخذ من الناجر والغنى أثنا عشر درهمًا، وإذا كانت أمة نصرانية في خدمة مسلم، فإنه لا يحق لسيدة أن يجبرها على ترك دينها أو إهمال صلاتها والتخلي عن صيامها".

هذا إن نصوص هذه المعاهدة التي تم في مطلع القرن الثالث عشر للميلاد تبين عن روح التسامح الذي كان يسود بلاد الإسلام، وممّا يكون على عكس ما كان يزحم بلاد المسيحية من مجازر ومخاز في معاملة المذاهب المخالفة والأقليات الضعيفة.
قال الدكتور توفيق الطويل في كتابه "قصة الاضطهاد الدينى" تحت عنوان مذبحة الألبينيين في سنة 1209.

"أصدر مجلس أميون قرارًا دعا فيه القساوسة إلى مطالبة السلطة المدنية باستئصال الهرطقة وهدد البابا "أنوسنت" باتخاذ قرار الحرصان ضد كل أمير يرفض الاستجابة لهذه الدعوة.

وبعد ستة أعوام قرر مجمع "لاتران" أن يقسم كل حاكم يطمئن أن يكون في عداد المنتميين بأن يجاهم ما وسعه الجهاد، حتى يستأصل من إقليمه كل من تسمه الكنيسة بالهرطقة.

ولنعد إلى الحديث عن مذبحة الألبينيين:

فشا الإتخذ في لندن دوك على يد الألبينيين من رعايا أمير تولوز، وكان هذا في عهد "أنوسنت الثالث" الذي بلغت البابوية على يديه أوجها.

فأشار على أميرهم أن يستأصل الهرطقة من إمارته، فأبقى الأمير من يذعن لطلبه.

وعندئذ نهضت الكنيسة لإبادة الحركة وأعوانها، فأعلنت غفران كل ذنب ارتكبه من يجاهد للقضاء عليها، وصبت عذابها على أعدائها، ولو كانوا نساء أو أطفالًا وتعقبتهم شنقًا وحرقًا واعدامًا.

فانظر إلى الحالة الاجتماعية في عصر واحد بين بلدين يختلفان في الدين.

وانظر إلى حكم البابوات وضيق عطنهم وغلظة قلوبهم في معاملة أعدائهم.!

وقد تدهش إذا علمت أن الهرطقة التي تفريخها الكنيسة لم تكن إلا مقدمات البقظة العقلية والتحرر الفكري الذي شمل أوروبا كله في أواخر العصر المدرسي.

* * *

ومعاملة الإسلام لم لا يدلون به من أهل الذمة قامت منذ العصر الأول على قاعدة أصلية لم يشروا حولها نقاش كمبدأ مشروع، ولم يفضلون تطبيقها على توالي الأزمنة، إلا فلنت شاذة لا يجوز الالتفات بها أو الالتفات إليها.

هذه القاعدة تقوم على أن "لمهم ما لنا وعليهم ما علينا".
وقد استقرت الأقليات في الشرق الإسلامي دهوًا في ظل هذا المبدأ العادل، بينما
بادت الأقليات الإسلامية في الغرب؛ لأنها لم تجد مثل هذه المعاملة النبيلة. ومن
الأدلة الطيبة على ما كانت تسترشد به الحكومة الإسلامية في معاملتها الذينما
جاء في الأمر الذي وجد بين أوراق البريدي اليونانية المحفوظة في المتحف البريطاني،
وعلى الرغم من فساد قسم منها فقد جاء في الباقى ما يلي:

« خوفًا من الله وحفظًا للعدلة والحق في توزيع القدر المفروض عليهم...»

«بيض في الأصل»، رتب ناظرًا يعاونه أربعة من البازين في كورتوك لمساعدتهم
في جمع الضريبة ». 

كما جاء بها: « ... ولا نقطعنا نعرف أنك قد خدمت أهل كورتوك بأي صورة من
الصور في مسألة الضريبة التي كلفت بها، وأنك حابيت أو ظلمت أحدًا ما في
جمعها ».

كما جاء فيها: « فإذا وجدت أنهم قد عاملوا أحدًا بلين زائد نتيجة محاباتهم
إياه أو أثقلوا عليه لكراهيتهم له، فإننا سنقتص منهم في أشخاصهم وأملاكهم
تنفيذًا للشرع.

ومن ثم أنذرهم وحذرهم، وأخبرهم ألا يرهقوا عاملاً، وألا يحملوه ما لا
يطيق، حتى لو كان بعيدًا عنهم، أو ليس من زمرتهم في جمع الضريبة، وتجب
معاملة الجميع بالعدل... إلخ. »

وقد بلغ من مرونة النظام الإسلامي أن اعتبار أهل الذمة جزءًا من الرعية الإسلامية
مع احتفاظهم بعقيدتهم ».

وجملة صاحب عبد الله بن أبي السرح ملك النوبة، تقر في الصلح أنه أمان وهدنة جارية
بينهم وبين المسلمين من جاورهم من أهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين وأهل الذمة.
وأخذ النوبيون على أنفسهم العهد بحماية من نزل ببلدهم أو طرقيه من مسلم أو معاهد.

وقد روى أبو يوسف في كتاب " الخراج " :
واستمعت البعثين بجريتهم الدينية ووضمانهم لمصالحهم العامة كان ملحوظًا في
المعاهدات التي أبرمت بينهم وبين المسلمين في إيان الفتوحات الكبرى.
وإليك نص المعاهدة التي أمضاها عمر بن الخطاب مع رسل «سفيروس» أسقف
بيت المقدس كنموذج لوقعه مع المسيحيين، إذ قال - كما روى الطبري - :
"بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل
"إيلياء" من الأمان.

أعطاه أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنهم وصلبانهم، وسقيمة وبريتها،
وسائر ملتها، أنه لا تسكن كناشهم، ولا تهمد، ولا تنقص منها ولا من غيرها،
ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضاي
أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.
وعلى أهل إيلياء أن يعتدوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، عليهم أن يخرجوا
منها الروم واللصوص.
فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم.
ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.
ومن أعج من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلع بيعهم وصلبةهم
فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبةهم حتى يبلغوا مأمنهم.
ومن كان بها من أهل الأرض ما شاء منهم تعد، وعلىه مثل ما على أهل "إيلياء"
من الجزية.
ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع إلى أهله.
وأوَّله لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.
وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين،
إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.
وختتم عمر الكتاب بتوقيعه وشهد عليه خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد
الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان.
وهذا العهد الذي أمره "عمر" يتفق مع ما سنذكر بعد من وصايا النبي ﷺ في معاملة أهل الكتاب، ومع ما استقرت عليه الأوضاع في علاقات المسلمين بغيرهم.

ولكن الخواجة الأفلك افتترى على "عمر بن الخطاب" أنه كان عدو أهل الديمه، وأنه شرع في قتله، ومن بعده من الولاة سنتمهم وإذلالهم وهم متعلمون وتفكيك صلبانهم.

وقد ذكر أن عمر بن الخطاب شروطًا تضمنها عهد، ثم بينه وبين أهل سوريا نص فيه السيوف على "ألا يحدثوا بيت عبادة ولا صومعة ماء ونافذة"، وألا يجدون من كنيسة أو دير، وألا يمنعوا المسلمين من كوايسهم أن ينزلوا بها ويطعموا فيها ثلاث ليالي. كذا "ألا يعلموا أولادهم القرآن!"

وتضمن هذا العهد المزوم كذلك "ألا يشتهروا بالمسلمين في شيء من لباسهم، قلنسوة أو عمامان أو نعلين أو فرق شعر.. إلخ".

وقد بحثنا عن أصل لهذه الشروط في مصادر القفص الإسلامي أو كتب الشريعة والسيرة والتاريخ فلم نجد لها أثراً ألمث. بل ما وجدنا في كتاب الله وفي سنة رسوله. وفي معاهدات "عمر" نفسه يتلاقى هذا العهد المكتوب.

وقد علق الدكتور "أ. س. ترنت" مؤلف "أهل الديمه في الإسلام" على هذا العهد بقوله:

".. في هذا العهد نلاحظ نقاطاً بالغة غريبة، وذلك أنه لم تجبر الأمة أن يشترط المغول الشروط التي يرضونها ليوادهم الغالب.

أضاف إلى هذا أنه من الغريب أن يحرم المسيحيون على أنفسهم تناول القرآن بولاهم وأولادهم بأبى صورة من الصور، ومع ذلك يقيسون منه في خطابهم للفلسطيني في قولهم - "أن يعطفوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

و الأمر المستغرب من الوجهة العامة أنه عهد لم ينص فيه على اسم البلد.

فلو كان صادرًا عن دمشق - قصبة الولاية - لوردت الإشارة إليها .."
ثم قال: "ومن ناحية أخرى فإننا لا نجد قط عهدًا مع أي مدينة من مدن الشام يشبه عهد "عمر" هذا بحال من الأحوال إذ كله عهود بالغة البساطة ...".

ثم قال: "إذا تبين لنا هذا ساورنا الشك في نسبة العهد إلى "عمر" ...

هذا الباحث الغربي يتشكك في نسبة العهد إلى "عمر". ولكن الخروجة الجرئ على الافتراض يضع شروط "عمر" المزعومة في هذا العهد على أنها بيان لموقف الشريعة الإسلامية من أهل الذمة.

ومن أي كتب الشريعة نقل هذا العهد؟

من كتاب القلقشندى "صيح الأعشى في صناعة الإنشا"!
ولا يعجب المرء لشيء عجبه من جرأة هذا الخروجة في اعتبار كتب الإنشاء العربي مصادر للتاريخ. لا بل مصادر للدين نفسه.

وكتاب القلقشندى ألف بعد "عمر بن الخطاب" بسعة قرون.
وفيهم من الخيالات الأدبية والروايات الشعرية ما يعين التلاميذ على اصطناع الأساليب الحسنة.

وقد نسوا إلى "عمرو بن العاص" كتابًا في وصف مصر "طولها شهر وعرضها عشر وترابها ذهب ... إلخ".

وقد جزم الأدباء بأنه موضوع لا أصل له، كعهد عمر هذا.

***

أخرج أبو داود عن رجل من جهينة أن رسول الله قال:
"لعلكم تقاتلون قومًا فنظرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وذراريهم، فيصلحونكم على صلح فلا تسبوا منهم فوق ذلك. فإنه لا يصلح لكم".

وعن العريض بن سارية قال: نزلنا مع رسول الله في قلعة خيبر، ومعه من معه من المسلمين، وكان صاحب خيبر رجلاً مارداً متكبراً.

فأقبل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! لكم أن تذبحوا حمرنا وتأكلوا ثمرنا وتضربوا نساءنا!
فغضب رسول الله ﷺ لما حدث وقال: "يا بن عوف اركب فرسك، ثم نادى: إن الجنَّة لا تجلى إلا لمؤمن، وأن اجتمعوا للصلاة، فاجتمعوا، ثم صلى بهم.
ثم قام فقال:
"أحبس أحدكم متكنًا على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئًا إلا ما في القرآن. ألا وإنما والله لقد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء، إنها مثل القرآن أو أكثر.
وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتب إلا بإذن، ولا ضرب نساءهم ولا أفك شارهم، إذا أطبقوا الذي عليهم.”
وحدث أن يهود "خبير" أرادوا رشوة "عبد الله بن رواحة"، ليقبل مما يأخذه من خراج أرضهم - على حسب الصلح الذي تم بينهم وبين المسلمين -.
قال عبد الله: "تطعمونى السحر؟ والله قد جئتكم من أحب الناس إلى ينى رسول الله - ولأنتم أبغض إلى من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملني بغضي إياكم على ألا أعدل فيكم. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض.
هكذا صنع المسلمون بأهل الكتاب. وعلى هذه العدالة التامة قامت المعاهدات.
إن رعاية الحق وإقامة العدل هما أسس الصلة التي ينشئها الإسلام مع أبناء الديانات الأخرى.
وأبو عبد الله بن رواحة يقت يهود أشد المفت، ولكن يأبى أن يجوز عليهم في حكم.
وقد روى عن "عمر بن الخطاب" أنه قال لقاتل أخيه "زيد بن الخطاب": والله لا أحبك حتى تعجب الأرض الدم!
فقال الأعرابي القاتل: أفسدمني حقى يا أمير المؤمنين!
قال عمر: لا! فقتل الأعرابي: إذا يا أمير المؤمنين.
ومسلك "عمر"، "وأبو رواحة" وغيرهما ليس إلا استجابة لقول الله تبارك وتعالى:
"يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالفعل ولا يجرمنكم شئان قوم على.
"لا تعدلوا أعدلاً هو أقرب للتقرب واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون" (1)

(1) المائدة: 8
فالعدالة - ولو مع الأعداء المبغضين - خُلُقَ فِ غْرِ الإِسْلاَمِ مِن تُوْفِيرِهِ فِي سُيُسَاسِ الجماعات والأفراد. فكيف إذا كانت هذه السياسة تجاه معاهلين مسلمين؟
قال الخواجة الكذوب تحت عنوان "عدم منح أهل الديمة الانخراط في خدمة المسلمين":

"أمثلت شروط "عمر" نقطة في غاية الأهمية. وهي: هل يستطيع المسلمون استخدام المسيحيين في أعمالهم؟ لاسيما أن الخليفة لما رأى القرآن أجاب عن هذه المسألة بالنفي، أهمل ذكرها من جديد، وتمكن بتعليمه القرآن طول مدة خلافته". ص 55.
ثم ذكر المؤلف قصة نقاش دار بين "عمر بن الخطاب" و"أبي موسى الأشعري". وقصصين أخرين قال: إنهما حدثنا بين "عمر بن الخطاب" و"أبي موسى الأشعري".

وقصصين أخرين قال: إنهما حدثنا بين "عمر" وبعض قواده.
ورابعة حدثت بين "عمر" و"معاوية".
وتتضافر القصص التي ذكرها المؤلف على نسبة أمر واحد لعمر: هو أنه رفض استخدام الدميين لأن القرآن أمر بذلك!
والفيلسوف هناك يخرج من فرصة ليدخل في أخرى.
فليس هنا شروط لعمر على النحو الذي ذكرته.
ولم يحرم القرآن استخدام أهل الكتاب في الأعمال التي يصلحون لها، وجميع الآيات التي ذكرها في منابة اليهود والنصاري مثبتة الصلة بهذا الموضوع كما أسلفنا.

وجميع القصص التي ذكرها مكذوبة على "عمر" وقادته وصحبه!
وربما نعم "عمر" توظيف نفر من أهل الكتاب لتهم خاصة، كسبت الرشوة عليهم مثلًا، أو إضرارهم بال المناصب التي يتولونها.

وهذا المنع عدالة تطبق على المسلمين واليهود والنصارى جميعًا.
ولكن الخواجة يفترى على كتاب الله ما ليس فيه، وعلي الحكم الإسلامي ما ليس من طبيعته.

والواقع أن الإسلام ينظر إلى من عاهدهم من اليهود والنصارى على أنهم قد أصبحوا من الناحية السياسية أو الجنسية مسلمين، فيما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات، وإن بقوا من الناحية الشخصية على عقائدهم، وعباداتهم وأحوالهم الخاصة.

ومن ثم فهو يقيم نظامه الاجتماعية على أساس الاختلاط والمشاركة.

ولا يرى حرجًا من أن يشتغل مسلم عند أهل الكتاب، أو يشتغل أهل الكتاب عند مسلم.

و إن كان كثير من اليهود والنصارى لا يقدرون هذا النبل.

وربما استغلوا هذه السماحة في الإساءة إلى الدين الذي وسعتهم دائرة المرنة.

و إلى القارئ الشواهد المبينة على صدق ما أسلفنا.

روى الطبراني عن كعب بن عجرة أنه أستغل عند يهودي، فسقى له إبله كل دلو بتمرة، وأخبر النبي ﷺ بذلك، فما أنكر عليه شيئًا.

وروى أبو يعلى مثل ذلك عن «علي بن أبي طالب».

وقد استخدم النبي في هجرته قائدًا مشركًا.

ولما فتح المسلمون الأوائل أقطار الدنيا المعروفة، ومثل أيّموا البعث في أعمالهم الأولى، فلم يكرهوا أحدًا منهم على الإسلام، ولم يفصلوا رجلاً عن عمله بكرفان.

قال الدكتور ترتون: «. . . كانت عادة الحكومة قد جرت على استعمال النصارى الذين قلما خلا منهم ديوان من دواوين الدولة.

و نلاحظ في سنة 253 ه وجود إيضال ضريبة باللغتين العربية واليونانية.

وقد استعملت اللغة العربية لأول مرة في أعمال الحكومة بأصفهان زمن "أبي مسلم".»
كما أننا نرى رجلاً مسيحياً يتولى إدارة السجن قريباً من الكوفة سنة 26 هـ.
وقت أن كان «الوليد بن عقبة» عاملاً عليها.
ولذا للعرب فتح مصر أبقوا من فيها من العمال البيزنطيين » 1 هـ.

**

وقد أسرف الحكام المسلمين في استخدام أبناء الديانات الأخرى واستغلو سماحة الإسلام في معاملته لأهل الذمة استغلالا جعل أحد الشعراء (1) يقول: مندداً بعلو المنزلة التي وصل إليها اليهود:

**

يُهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالهم وقعد ملكوا
وعمهمو المستشار والملك
هُم عددوا قعد تهدّد الفلك
ويا أهل مصر إنك قد نصحتم لكم
لابد أن الموظفين من اليهود والنصارى خانوا الأعمال التي وضعت إليهم، وانتهوا فرصة توليهم المناصب الهامة، خدمة الطوائف التي انحدروا منها، وإهانة جمهور المسلمين!

وقد استقرنا أحوال كثير من أولئك الموظفين، فوجدناهم يكيدون للدولة التي ائتمتها، والأمة التي احترمتها.

بين المسيحية والإسلام:

والأساس الذي تدور عليه معاملة أتباع الديانات الأخرى يختلف في المسيحية عنه في الإسلام.

فبينما يقبل المسلمون وجود أديان مغايرة لديهم، ويرفضون إكراه أحد على ترك ملته، ويرفضون أن يتالف المجتمع من مسلمين وغير مسلمين، ويشرعون نظمًا عادلة لتطبيق عليهم وعلى من في ذمهم من مسيحيين أو يهود.

بينما نفعل ذلك، نرى المسيحية تتبّر بالديانات الأخرى، وترسم سياساتها الظاهرة والباطنة لإبادة خصومها أو تحرّبهم وحرمانهم حتى ترغبه على ترك دينهم، وتحبّهم على النصرانية جبرًا.

(1) وهو رضي ببن يأباد، كما في كتاب في الفاطميين في مصر للمدّور حسن إبراهيم حسن.
وبينما يقول القرآن: "لا إكرأ في الدين"  
قال خوارجهم: أجبروه على اعتناء دينكم!

وقد نشأ عن هذا النتفاوته بين المبدأين أن حركات التنصير، أو التحرير والاستئصال، كانت ظواهد عامة في تاريخ المسيحية.
ولا يتصور - بداءه - فقوم تلك أحوالهم أن يوظفوا في حكمهم يهوديًا أو مسلمًا.
أما الإسلام فلا تعرف في تاريخه هذه الفوضى، ولا تعتبر له سياسة عامة ولا خاصة.
واستعمال اليهود والنصارى في الوظائف الكبيرة والصغيرة أمر شائع في بلاد الإسلام إلى هذا العصر.
أما التخصص المسيحي فهو لم يتجه إلى اضطهاد أهل الأديان الأخرى فحسب،
وإلى تحري الوظائف الجليلة والذبوذة عليهم.
بل إن أتباع الديانة المسيحية الواحد يحرون أن يلي عموًا بينهم صاحب مذهب مسيحي آخر.

وقد حدث في القرن الثامن عشر أن قتل محام بروتستانتي لأن القانون الفرنسي
يوحده تحيز مهنة المحاماة على البروتستانت!!
وقد جاء هذا الحقوق المتبادل بين التحلي وارتداد عن مذهب إلى الكاثوليكية
ليس تستطع العمل في مهنتها. فماذا يصنع؟ أيها لاحقيه ابتعاه الزرق!!
ولكن ارتداده يثير عليه أسرته المتخصصية!!
ثم انتهت هذه الحيرة بقتله، واتهم أبوه باغتياله، فأعدم!
وقبل: إنه انتحر أسأ، وإن أبا لم يقله تعصبًا لذبه الدينى، وتعرف هذه القصة
بأناشة "كالا".
ووقعت في العصر نفسه قصة مشابهة تسمى "أناشة سيرفين".
فإن امرأة كاثوليكية كانت تخدم أسرة بروتستانتية، فافرغت ابنتها بالفرار إلى دير
كاثوليكي حيث ستمت سوء العذاب لتغير عقيدتها.
غير أن الفتاة تخلصت من عذابها بالانتحار غرقًا في بحر.

(1) البقرة: 256.
فاتهمت السلطات الكاثوليكية أباها بإغراقها ليحول دون ارتدادها عن دينها!

ثم صدر حكم قضائي (!) بقتل الرجل ومرأته ومصادرة أملاكهما!!

هذه المسألة المثيرة شاعت في معاملة المسيحيين بعضهم مع البعض.

وفي هذا الجو الكثيب المكثفر لا يمكن أن تستروح نعمة الحياة الكرية، والحقوق المصونة أقليات دينية أخرى، بل أن تشمل بعض المناصب في الدولة!!

فإذا طوحت هذه الصحيفة، واستقررت أحوال الديميين في ظلال الحكم الإسلامي، انقلت من النقيض إلى النقيض، ورأيت المناصب من الوزارة فما دونها مباحة للأكفاء من اليهود والنصارى، بل لرأيت من تمكن هؤلاء في الحكم، وأطمثانهم إلى رسوخ أقدامهم، وشعورهم بخلو جروهم ما أغرهم - وهم القلة المدنية - بمحاولة إزاء المسلمين وإذلالهم، وتجربة طوائفهم في كل شيء، استغلالاً خسيراً لذروة الدين الذي منهجهم حق الحياة الكرية في جنباته!!

قال الدكتور «ترتون»: «لا لام الناس ابن الفرات وروموه بالفكر لسقته إمرة الجيش إلى أحد المسيحيين، دافع عن نفسه بأنه أقدم بالخلفاء السابقين الذين ولوا النصارى وظائف الدولة، وكان هؤلاء العمال النصارى يلقون كل مظاهر الاحترام.

إلا أن المسلمين رفضوا تقبل أبادهم بعد أن فرض ذلك عليهم!.

وحدث في «بغداد» أن دخل أحد الوزراء النصارى، واسمه «عبدون بن مساعد» على القاضي «إسماعيل بن إسحاق»، فوقع له مرحبًا.

ولاحظ القاضي أن الشهود وبقية الخاضرين أنكروا عليه هذا العمل.

فلما خرج الوزير قال لهم القاضي: قد علمت إنكاركم، وإن الله تعالى يقول:

لا ينهاكم الله عن الذين لما يقتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتهبطوا إليهم! (1).

وهذا الرجل يقبض على نكاخر المسلمين، وهو سفير بيننا وبين خليفتنا، وهذا من البر، فأمّ السامعون على قوله ورضا به».

* * *

(1) المتناة: 8.
لكن إغراء السلطة ووسواس التعصب الكامن كانت تكيد كيديها ضد الإسلام من وراء ستار، حتى ضح الناس منها.

وحدث في سنة 387 هـ = سنة 776 م أن آتت الريادة في بلدة دوقا إلى اثنين من النصارى، وتمكناهما وتركهما فيما تصرف الحاكم، واستعدا المسلمون...

فقدم بعض هؤلاء المسلمين على "جبرئيل بن محمد"، وقالوا له: إنك تريد الغزو ولست تدرى أبلغ غرضًا أم لا؟

ونحن عندنا من هؤلاء النصارى ممن قد عبدها وحكم علينا.

فلم أقبل عندنا وكيفنا أمرهما ساعدناك على ذلك.

فقبض "جبرئيل" عليهما وصادر أملاكهما.

واستؤزر "المعز لدين الله" "عيسى بن نسطور" النصراني واستناب بالشام "منشة" اليهود، فمال الوزير "عيسى" إلى النصارى، وشجع "منشة" اليهود.

فضع الناس بالشكوى! فألقي الخليفة القبض عليهما، وأخذ من "عيسى" ثلاثمائة ألف دينار، وغرم "منشة" مبلغًا ضخمًا.

وفي سنة 595 هـ استؤزر "الحافظ لدين الله" مسيحيًا أرمنيًا يدعى بهرام ويلقب تاج الدولة (!) وقد عمد بهرام هذا إلى فصل المسلمين من وظائفهم وتعيين المسيحيين بدلهم، انحر حرأة الأقلية وتوجها على الأمة التي تعيش في ظلها!

وقد كان مسلك هذا الوزير المتخصص سببًا في إثارة المسلمين ضده.

وخصوصًا لأنه أوعز إلى النصارى بالإسراف في بناء الكنائس والأدير.

حتى ظن أن الإسلام سنقرضه من مصر.

فلما هاج الجمهور ضده عزل عن الوزارة.

وقال "ابن الأثير" في كتابه "الكامل": بل قتل.

ولنحذ نساء في أي عهد من التاريخ المسيحي استؤزر الملك المسيحيون يهوذاً أو مسلمين؟ بل في أي عهد استؤزر الكاثوليك بروستانتيًا أو بالعكس؟ إن المسلمين وحدهم هم الذين فعلوا ذلك.
ومن الحقائق التي لا يجوز نسيانها، أن هذا الصنيع لم يقابل بحمد ولا تقدير.
بل أصاب الإسلام منه ما أصاب صاحب الأفعى حين نقلها من برد العراة إلى الدفء وطيب الماء، فكان الجزيء أن تحرك برأسها تزيد أن تلذغه.
ثم يجيء أفلاك في هذا القرن يريد أن يقلب الحقائق، وأن يشوه التاريخ، وأن يتهم المسلمين ومسلمي مصر بالذات - أنهم أذلا الأقباط!!
وهكذا تصل القصة بأصحابها إلى الحاضر.
وصدق الملَّل «رتنى بديئها وانسلت».
وللنتبع سرد الوقائع:
وحدث أن خرج إلى بعض الجهات من يسحها من شاد وناظر وعدول.
وتأخر الكاتب النصري، ثم حقهم.
وأراد الكاتب عبور النهر إلى الناحية الأخرى فحمله ضامن المعدة حتى إذا بلغ به وجهته المصوحة سأله أجره، فغضب الكاتب وسبه، وقال له: «أنا مصاحب هذه البلدة، وريد حق التعدد!!».
فقال له الضامن: إن كان لى زرع فخذه.
ثم تقدم فخلع جام بلغة القبطي، وألقاه في معدته.
فلما يجد الكاتب بدأً من دفع الأجرة حين أخذ جام بلغته.
ولا انتهى من مسح البلد، وفرغ من تببيض المكلفه وحملها إلى ديوان الخراج في العاصمة كما جرت العادة، أضاف عشرين نفادًا إلى الجموع، وترك فراغًا
بإحدى الصفحات، وأطلع الشهود على القائمة فوقعوا بصدقها.
ثم كتب هو في البياض الذي تركه "أرض اللجام" باسم صاحب المعدة وقدرها
بعشرين فداناً، لكل فدان أربعة دنانير، ثم حمل المكلفة إلى ديوان الأصيل.
وكان المعدة قد جرت أنه بعد انقضاء أربعة أشهر من السنة الخراجية، ترسل
جنود أصحاب بطش وقوة وكتاب وشهود، وكان نصراني إلى الولايات
لاستخرج ثلاث خراج الأرض وفقًا للمكلفات.
وكان هذا القدر من المال يفق علٰا الجند إذ لم تكون لهم وقتئذ إقطاعيات.
ولم يكن من المألوف إرسال الرجل الذي قام بسح الأرض بل يندب آخر مكانه.
وأما ذهب هذه الجماعة وأعنى بها "الشاد والكاتب والعدل" جمع ثِلث مال
الناحية استدعوا أرباب الزرع، ومن بينهم ضامن المعدة وأرغموا على دفع سنة
وعشرين وثلثي دينار.
فأنكر أن يكون مالكًا لأية أرض في هذه الناحية وأيد القرؤون في إنكاره.
رفض الشاد، وكان فظًا عسوفًا، الاستماع إلى شهادتهم وضربه بالمقارع،
وأرغمه على بيع قاريه وغيره لدفع الثلث الثابت عليه.
فسار صاحب المعدة إلى القاهرة، وأبلغ الخليفة قضته، فأعيد النظر في قوائم
الخراج فلم يجدوا أي إشارة إلى أرض "اللجام".
فأمر الخليفة بإحضار الكاتب وسمّى في مركب وقام له من بطمته ويسقيه، وتقرر
أن يقف به في سائر الولايات وينادي عليه، كما أمر بكفيد النصارى كلهم عن
الخدمة.
وكان الحافظ مولعاً بالفك والتنجيم، فعمد النصارى إلى رشوة منجمه الخاص
وطلبوا إليه أن يفضي للخليفة بأن مصر ستزدهر إن أقام السلطان في تدبير الدولة
واحدًا معينًا من النصارى - هو "الأكرم بن زكريا" -.
فنجازت الخيلة على الخليفة وجعل "الأكرم" أمير الدواوين.
وبادر "الأكرم" من ساعته إلى زيادة عدد المسيحيين أكثر ما كانوا قبلًا،
وظهرت عليهم دلاًًل النعمة، فازدهروا الملايين الجميلة وركبوا البغالات الرائعة
والخيلون المسمومة بالسروج، وبالغوا في الشدة على المسلمين، وضاقوهم في
أراظهم واستولوا على الأحباس الدينية والأوقاف الشرعية، واتخذوا العبيد
والملكي واجواري من المسلمين والمسلمات، حتى لقد حملوا أحد الكتاب المسلمين على بع يافذ ومنه بحثة بغرةه فضوه عليه…» 
والألزم الخطة نفسها "أبو نجاح النصراوي" المعروف بالراهب.

فقد اقتضت مشيئة الخليفة "المصور أبو علي" الملقب بالأمر وهو عاشر الخلفاء الفاطميين - أن ينضب إليه منصب الوزارة (!)。

وبعث الرجل عمله فاترك مطالب كثيرة، وسار في سياسة أحبطه على الناس.

وبغضنه لدى العامة.

ولم يفلت من باليه كبار الموظفين ومنهم القضاة والكتاب.

بل لقد أثر عنه ما يدل على تائف ملكة النبي (!) 

ثم أخذ يشدد في مصادر أموال الناس على اختلاف طبقاتهم (!) إلى أن لقي مصراعه أخيرًا في الحادثة الآتية:

ذلك أنه كان يجلس بالجامع العتيق ويرسل في استدعاء من أراد مصادر أمواله 
وفي يوم من الأيام، طلب رجلًا من العدول المنتميين، يعرف بابن الغرس، كان قد
نال قدرًا كبيرًا من إجلاء الناس واحترامهم. فأناه.

فخرج من عنده ووقف في المسجد يوم الجمعة، حيث يشدد ازدحام الناس، وعبر
عما شعر به من آلام وأحزان قائلاً:

يا أهل مصر انظروا عدل مولانا "الآمر" في تمكينه النصراوي من المسلمين!

وأهاجت هذه الكلمات عوامل الغضب في الناس، وكان كل مظلي إلى شوب الفتن والاضطراب لولا تداخل خواص الخليفة في الأمر، وأعلموا موالاتهم بالخلق
بالمسلمين من عدوان هذا الوزير، وخوفوه سوء العاقبة.

فبعث الخليفة في طلب أبي نجاح.

فلما مثل بين يديه انطلق رجل من الأشراف كان في حضرة الخليفة وأنشده هذا البيت:

إن الذي شعرت من أجله يزعم هذا أنه كـثـاذب.

يقصد تذكير الخليفة بما أنشع عن الراهب من تهجم على مكانة رسول الله.
وعندئذ التفت الخليفة إلى "أبي نجاح" وقال له:

ما تقول يا راهب ؟ فسكت، فأمر بقتله.

أرأتي هذا الهواء النازل بالمسلمين؟ وهذا السواد اللاصق بوجههم؟

إن هذا - ومثله كثير - يقع عليهم، والدولة لهم، والملك فيهم.

هذا ومثله هو ما استدل به الكاتب الصدوق النزيه: على أن المسلمين يتعصبون

 ضد مخالفتهم في الدين، ويصدعون إلى إذلالهم، بل إلى إقناعهم.

إن الكاتب المسيحي الذي أرسلته الحكومة المسلمة لمح الأرض وتقدير الضريبة

عليها كان رجلاً حرب الذمة.

وليس التسبيح الذي أوصته بأن يظلم ويذبح.

ولكننا نفحص تصرفه فلا نجد فيه إلا بطر الحق وغمط الناس.

إنه يرتكيز ما يرتكيز وهو متليل النفس ثقة بأنه مالك عمله وسيد وظيفته - والدولة

مسلمة كما رأيت.

فهل ترى في مسلكنا إثارة من توجس تغريب بتملك الشعب المسلم، أو مراعاة

الحكومة المسلمة؟!

لا. إنه يظلم ويذبح، غير محاذر أمة ولا دولة.

والمسلمون لا يرون ضرير ولا عجب في أن يساكنهم ويصاحبهم من لا يتفق معهم في الدين.

فانظر كيف تستغل هذه السماحة العالية في تولى المناصب - كبراه وصغراه - ثم

في استغلال هذه المناصب للبغي والتعصب والتحزب.

من؟ وعلى من؟

من الأقليّة المتعة المرفهة على الأكثرية المتراخيّة!!

إتنا سنستعرض أحداثًا شتى من هذا اللون عندما تتكلم عن حال الأقباط في مصر

منذ الفتح إلى اليوم.

ونريد أن نبين أن هذه المسالك النابية لم تخف على كثير من الحكام الأيقاظ.

٧٠
قال في "سياسة نامة":
أما في فارس فقد انزعج نظام الملك وزير الملك شاه من استعمال الذميين في الحكومة مكان الترك.
لذلك كتب سنة 844هـ يقول: "ما قام بهود أو نصارى أو مجوسي أو قرمشط بعمل جليل، أو حل محل تركي - مسلم - إلا كان الإهمال أبرز صفاته.
إذ لا احترام عند هؤلاء الناس للدين، ولا إخلاص عندهم للدولة، ولا رحمة في قلوبهم على الرعية، بل سرعان ما يسوع موقورئ الشراء.
وإن المؤمن ليخشى العاقبة السيئة ولا يعرف ماذا تؤول إليه الأمور.
ولم يحدث في أيام السلطان محمد مسعود ولا طغرل بك، ولا ألب أرسلان أن تجرأ مجوسي أو بهودى، أو نصارى، أو كاهن على المساهمة في الحياة العامة". ١. ١.
وعندى أن للعقلية التركية دخلًا في هذا التوجه.
فإن صرامة الترك لا تطبق الجحد والعبث من يبغى أن يشكروا ويهمدوا !!.
أما الأمور في مصر فقد سارت في اتجاه آخر لأن مصر "بلد كل شيء فيه ينسى بعد حين".

**
والغريب أن هذا الكاتب المتحامل على الإسلام وأهله يرى بهذه الحقيقة فيصورها تصويرًا مبشارًا مورضًا.
فقول - في معرض الكلام عن حال الأقباط في عصر الفاطميين -:
"في هذا العصر نال الأقباط من المجد والثراء والخطوئ والسلطان ما أدى إلى غضب الشعب عليهم واضمحلال نفوذهم.
ذلك لأن الأقلية الدينية استغلت ثقة الخلفاء بهم ليفوزوا بأكبر نصيب من التسامح للذميين."
بينما أظهروا عدم مبالاتهم، بل جهروا بعداوتهم للأغلبية الدينية...
فالاستهانة بالكثرة، والجهر بعداوة دينها، واستغلال الثقة المنوحة للتنفيذ عن الأحكام الكامنة - هذا - في نظر الكاتب النزهي - دليل على تعصب المسلمين، وعلى
سعى الأقلية للفوز بأكبر نصيب من التسامح!!
هذا الفكر المريض في تصوير الحوادث، أرسل الكاتب حكماً آخر على الإسلام نفسه فرغم في ص 25:
«أن القرآن بتعليمه الدقيقة فيما يجب اتباعه حيال أهل الذمة - لم يسهل المهمة الملائمة على عاتق الحكام الذين اضطروا إلى تجاهل بعض تعليمات القرآن والحديث أو تفسيرها حسب أهوائهم...».

كما يقول في ص 19: «استن المشرع المسلم لأهل الذمة عددًا من القواني استلهمها من تعاليم القرآن والحديث.
غير أن الفقهاء لم يستطيعوا دائمًا فرض وجهة نظرهم على الحكام، وكان هؤلاء يحيدون عنها كلما اضطروهم ظروفهم ومصالحهم إلى ذلك».

وهذا الكلام يتلوى على الصفحات التواف الأعضي الحبينة.
إن قائله يريد ليهؤم القراء بأن المبدأ الذي سنه القرآن، وشرعه النبي في سياسة أهل الذمة، هو الاضتهاد والغفاء!!
فلما رأى الكاتب المفترى أن أربعة عشر قرنا مرت على أهل الذمة في بلاد الإسلام وهم أسعد الأقليات في العالم، زعم أن هذه المعايير الخمسة ترجع إلى أهواء الحكام!!
وأنهم خرجوا بها عن تعاليم الكتاب والسنة، وعصوا بها نصائح الفقهاء!!
فمماذا نقول لأسرئ تصل به أحقاده على الدين وأهله إلى هذه المنزلة من الكندور والكران؟
يراك توصيب به خيرًا، ويرى وصانك قد نفذت على نحو يوجب الشكر. فينكر أنك نوحت بحقته! ويرد الرعاية التي لحقته - على مر القران - إلى شهوات الولاة ومصالح الحكام!
إنا نعرف أن في البشر أفرادًا لا يجدون في تأليفهم صنع، ولا يصلح في معالجتهم لطف.
ولا نحب أن نذكر في وصفهم المثل السائر: "اتق شر من أحسن إلى هله".!
ولا قول الشاعر:

إذا أنت أكرمت الكرم ملكته
وإن أنت أكرمت اللثيم تمردا
فإن العلاقات بين الأم والطوارئ لا تزال منها هذه الإساءات العابرة من أفراد
غلبت على طاعبهم الخسة - ولكننا غضب للحق المنكر - ننسال:
هل القرآن لم يسهل المهمة الملائمة على عاتق الحكام في معاملة أهل الذمة كما
يدعى هذا المخلوق؟
ونحن نورد القصة الآتية ليبرى القراء مبلغ ما شرعه القرآن من عدلية وإنصاف، في
معاملة أهل الكتاب، ثم ندع لهم بعدئذ أن يحكموا: هل القرآن يسر مهمة الحكام في
معاملة الآخرين، أم صعبها كما يدعي هذا المؤلف؟
حدث في «المدينة» أن سطا رجل من إسرائيل، «يدعى عطمة بن أبيرق»،
على أهل بيت من المسلمين، وسرق منهم درعًا ثم خبأه عند يهودي.
وبحث أصحاب الدروع عنها فوجدوها في بيت اليهودي، فاتهموه بأنه سارقها.
ودكر اليهودي أنه أخذها من «طعمة» وديعة، وأنه برئ من أية ريبة تتجه إليه!
وأيضاً القرائة تتضفر على اتهام اليهودي، فالدروع عندله، ثم هو يهودي.
و«طعمة» يحرف أنه ما أخذ الدروع، ولا استوجبها أحدًا.
وقد ذهب قومه إلى الرسول يطلبون منه أن ينصر رجلهم لأنه مسلم ظاهر البراءة
وخصمه يهودي.
ولا ينبغي أن يخجل رجل معروف بإسلامه أمام آخر معروف بيهوديته...
والقضية أمام الرسول غامضة، فهو لم يموت معرفة الغيب: قل لا أقول لكم عدنى
خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك» (1).

ولم تكتشف له طبايع النفس وخفاياها البعيدة فهي ما استائر الله يعلمها.
ومن أجل المدينة مردوا على النظر في تعليمهم، نحن نعلمهم منعذبهم مرتين ثم
يردون إلى عداب عظيم» (2).

(1) الأعلام : 50
(2) التوبة : 101
وقد جاء قوم «طمعة» يجادلون عن صاحبهم ويطلبون من الرسول أن يعاصم دونه، وأن يأخذ اليهودي بالعقاب، وأن يدع القضية تم بظواهرها الغريبة دون مزيد من البحث والاستقصاء.

فإذا بالوحي ينزل كافشاً الغطاء عن الحقيقة الخفية، مبررًا ساحة اليهودي المخرج داعمًا خصمه بأنه خائن أثم - وإن تظاهر بالإسلام - مؤمنًا قومه جدلهم عنه وسعيهم لدى الرسول كي يجادل عنه كذلك.

وبدأ الآيات الكريمة بخطاب الرسول: «إبنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله» (1).

فالقرآن مظهر الحق وجوهره وحكمه به إقرار الحق بين الناس قاطبة.
فالناس أمام الحق سواء، يهودًا كانوا أو نصارى، أو مسلمين.
فإذا خان رجل يدعو الإسلام - فلن يكون أهلاً خاصمته الرسول عنه. ولو كان ضد يهودي أو نصارى أو مجوز.

ومن ثم يقول الله له: «ولكن للخائنين خصيمًا» واستغفر الله إن الله كان غفورًا رحيمًا ولا تجادل أن الناس يختارون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانًا أثيمًا (2).

ثم يتوجه التقرير إلى قوم السارق الذين حسبوا الإسلام عصبية عميا، والذين توهموا أنه ما دام في القضية يهودي ظنن فعله أن يحمل الوزراً ولو كان مظلومًا!
فإيقول الله لهم: «يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبتون ما يرضى من القول وكمان الله بما يعملون محبًا. أنت هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم؟ وكبلاً (3).

ثم يتجه الوحي إلى السارق بالنصيحة كيا يرجع عن غبه ويتوب من ضلاله:

«ومن يعمل سوءًا أو يظل نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورًا رحيمًا (1).»

ويحذر ويحذر غيره من المسلمين ألا يرمو بأحلامهم جزافًا.
فإن إسناج الجرائم إلى الأبرياء إثم كبير، مهما كانت أجناسهم ودياناتهم.
فإن السئلة تقع على رأس مرتقبها وحده:
"ومن يكسب إثمًا فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليه حكيمًا. ومن يكسب خطيئة أو إثمًا ثم يرميه برثثًا فقد احتمل بهتنا وأثنا مبينًا (1)."
ويعود الوحي الكريم مرة أخرى ينبه الرسول إلى التبقيف لألا يعيب الخصوم وكيد المتفاضين، فإنهم قد يلبسون الحق بالباطل.
وفي سبيل النجاة بأنفسهم وإهلاك أعدائهم يضللون القضاء ويجرون القضاة:
"ولولا فضل الله عليك ورحمته لهتمت طائفة منهم أن يضلوا وما يضلُّون إلا أنفسهم وما يضرون من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيمًا (2)."
أرأيت إلى هذه النزد المتتابعة والنصائح الحكيمة؟
أرأيت إلى هذه التعاليم الواضحة والخطوط المستقيلة؟
أرأيت إلى آيات القرآن العزيز وأسلوبها في خطاب الرسول ومن حوله، وإنصافها للأبرياء أياً كانوا؟
لماذا هذا كله؟ لإنقاذ يهودى كانت القرائن تدنه ودائنة رجل يعرف بالإسلام بين قوم يتعصبون له يوصف أنهم جميعًا مسلمون !!
وبعد ذلك تبلغ القصة بكتاب ملتئط فيقول:
إن القرآن لم يسهل مهمة الحكم للمسامحين! إن تفسير القرآن مهمة صعبة ودقيقة، كما يقول فيه ص 57.
(1) النساء : 112، 111، 113.
(2) النساء : 112.
اليهودية والبيهية في الإسلام:

يرى اليهود أن موسى نبي الله وأن بنى إسرائيل شعبه امتحان، وأن عيسى ومحمدًا كليهما رجلاً دعاهم ليست لهما رسلة، وألا تباعهما قطعان من المضلين لا يقامت لأدريانهم وحن، ولا ينحون أية حمرة.

والنصاري - في نظرهم - أبدعون في لقية حملت به أمه سفاحًا.
والسلاطين - في نظرهم - أبدعون في أمرابي جاء من الصحراء لا يعقل شيرًا.
والسياسيون - وإن اتفقوا بوسى وسورةه إلا أنهم ناقمون على اليهود افتراهم على عيسى وأمه، ولذلك سنا في معاملتهم قوانين الإذلال والاستئصال، وكما نكروا على اليهود موقفهم من المسيح، فهم كذلك ناقمون على المسلمين.

لأنهم يرون الإسلام ديانة مفتوحة، جاء بها من عند نفسه رجل كاذب في دعوته النبوة.
والدين الذي نسخ ما قبله، وأنكر ما بعده هو المسيحية، التي يجب أن تنفرد وحدها بالحياة والسيادة.

أما المسلمون ففي دينهم قاسم مشترك بين الديانات كلها.
فهم يؤمنون بوسى ويوصونه ويعبرون التهمة على مكانه كفرًا بالإسلام.
وهيم كلاً يؤمنون بعيسى، ويكرمون مولد وينهبون نسبته، وبرون الطعن في عفائ أمه أو شرف ابنها كفرًا بالإسلام.
وهم يضمنون إلى إيمانهم بوسى وتراثه، وعيسى وإبنه إيبانًا، إيبانًا جديدًا بحمد وقراط، على أساس أن النبوة الأخيرة جاءت تصديقا لما قبلها، ومحفوقة للفوارق والخلافات التي مزقت شمل العالم أجمع: "وما أنزلنا عليك الكتب إلا لتتبعنه لهم الذي خلقوا فيه وخلو لهم قوم يؤمنون".  

فالإسلام هو يهودية موسى ونصرانية عيسى معًا، وهدایات من قبلهما من رسول الله الأكرم جميعًا.

"فأقولوا آمناً بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلي إبراهيم وإسحاق ويعقوب والمس법 وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من بنيهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون".  

(1) النحل : 136.  
(2) البقرة : 124.
ومن هذا الشرح تجد أن الانكماش والتعصب، والاتهام والتهجم ليس من طبيعة الإسلام وأهله.

ولكنه طبيعة من يرون أن يؤمنوا بموسى فقط، ويعتبدوا الله بالطعن في عيسى ومحمد، أو يريدون الإيان بعيسى فقط، ويعتبرون من جاء بعده دجالاً يحاربه النصارى بالسيف إن كانوا أكثرية، وبحارون به الدس والمؤامرات إن كانوا قلة.

ومن هذا الشرح ترى لما اتبع صدر الإسلام للأديان الأخرى فهو يعطيها حق الحياة معه، في الوقت الذي ضن فيه المسيحيون بحق الحياة لا على المسلمين فحسب، بل على المذاهب المسيحية الأخرى.

ومن هذا الشرح تعرف السر في جهود صنيننا الذي أسدينه طويل أربعة عشر قرنًا. إن إخواننا المسلمين الذين أوقعهم سوء الحظ بين جماهير المسلمين في روسيا، وبوغوسلافيا وأسبانيا وجنوب إيطاليا... إلخ قد هلكوا جميعًا.

أما الأفكار المسيحية في ربوتنا الشسيحة، فقد اغتنت وتكاثرت وعزت، ولكنها مع ذلك لا تستريح لما ترى.

ولماذا؟ لأنها لا تقر عينًا إلا إذا طمست تعاليم الإسلام، وارتد عامرها بلهًا.

إن المسلمين في نظرهم خوارج على المسيحية.

وهم قوم يبتعون أشيًا أساء إلى الكنيسة وكهنوتها.

وعلما تطري قلبك على شعور التنقص والإزدراء لا مراء ما، فإنك لن تقر له بإحساس، ولن تعترف له بجمال.

وهذا الشعور الخسيس هو الذي أوجى بتأليف كتاب يقوم في جملته وتفصيله على الافتراض والتضليل، والنبل من محمد ودينه وحكمه.

والمؤلف رجل ينال المرتب من دولة تنصر في دستورها على أن دينها الرسمي هو الإسلام.

وأعجب لرجل يأكل من مال المسلمين، ثم لا يطوي بطنه على ما فيه من جمل ضد الإسلام، بل يفتح فمه ليتهم المسلمين الذين أرووه وأمنوه، بأنهم متعصبون ضد المسيحيين.

* * *

14
إن الغور والتعصب ليسا حديثين في هذه المعاملة الشائعة التي يلقاها الإسلام من اليهود والنصارى.

فديًا أكد الفريقان أن الدنيا والآخرة لهما وحدهما.

فصور القرآن هذا التفكير الضيق ورد عليه في إيجاز وأدب:

قالوا لَيْنَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوَ أُوْلَٰٓيَاءُ أَوْ نَصَارَىٖ تُّلْكَ أُمَّانِيَّتُهُمْ فَلَهُمَا بِرَّكَانُكُمْ
إن كنت صادقين بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (1).

وبين القرآن أن على المسلمين مصابة هؤلاء اليهود والنصارى ورد عدوانهم على الدين الجديد برقة وحلم:

أَوْدَى كُثْرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا يَرْدُونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَداً مِنْ عَدَّةٍ
أنفسهم من بعد ما بين لهم الحق فاعفوا وأصبحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير (2).

كما بين القرآن أن محاسنة هؤلاء لن تطفئ نيرانهم أبدًا.

إذ إن راحتهم الكبرى هي في محو الإسلام، وهدم مساجده، ورد الناس قسرًا إلى الكنيسة والبيع.

مع استبانة هذا القصد السيئ في مسائلهم المعوقة فإن الإسلام لا يعاملهم بالمثل، ولا يوحى لنبيه وأتباعه أن يعفوا على آثار الديانات السابقة ويجنوا من الوجود.

بل يكتفون أن يطلب من النبي ومن معه التباني على الحق وعدم التزحزح عنه، مهما لاقوا من صعاب:

وَلَوْ تَرَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَالْمُوْلِمَيْنَ أَخَذُوْا قُلْ إِنَّ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعَلَّمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ وَلَيْسَ نَصِيرٌ (3).

(1) البقرة : 112 - 113.
(2) البقرة : 109.
(3) البقرة : 120.
علاقتنا الإسلامية بغيره من الأديان:

عرفت نجاح الكتب لظهور الإسلام وبعثة نبيه. وأيهم تساءلون - مستغرين - ما هذه الدعوة الجديدة؟ أو بعبارة أخرى: ما هذه الدعوة البعيدة؟ وما حاجة الناس إليها وهم قائمون في الحياة يباشرون مرااسم العبادة ويربطون الخلق بربهم على النحو الذي يألقوه؟

إن ظهور هذا الدين يعني أن هناك نقصًا في العمل الذي يعودونه، أو خِلالًا في المنهج الذي يقدمونه، أو تفريطًا في الواجب الذي يحملونه، أو... أو.. إلخ. ولم يكن لديهم في أنفسهم ولا فيما معهم شيئًا من ذلك. فقد اعتبروا ذلك النبى المبعوث من العرب نافلة يستغنى عنها.

بل خرافة يتعترض طريقها ويستنكرون تصديقها !!! إن هذه الرسالة الجديدة تهددً لوجودهم وإنها لبقائهم.

ومسارتها لحظة من الزمن اعتراف بانقضاء أمدهم، وانتقال دور التوجه إلى غيرهم !!! ومن الذي يرضي بذلك ما معه من يقين، لينضم إلى هذا العربي المبعوث بين الأميين؟

فإذا اضطرنا إلى ذلك ما يكمن في طبع نفر من البشر من سورات الحقد وهيجان الحسد أدركنا أن تكذيب اليهود والنصارى للإسلام يعود إلى عوامل شتى تقتضى علاجًا معقولًا، وتعلقًا تامًا في العرض، وإغضاءًا كبيرًا عن الصد، وتحملًا موصولاً للآذى، ومطالبة مثالية في الجدل، واعتزازًا في أغلب الأحيان عن البطء في الإجابة والاسترسلام بالتقليد.
وإيضاح الصلة بين الإسلام وما سبقه من أديان تال قسطًا كبيرًا من القرآن الكريم، والتأمل في الوعي الشارح لهذه الصلات العديدة يحمل المنصف على القول بأن الإسلام لم يدع مجالًا لظلال التجاهل، ولا خلال التجاسد، وأن فحال الطريق لتعاون شامل بين أهل الاعتدال من أرث الأديان كلها. فان الإسلام أدرك إكرارًا على انتفاخ السيف ليستبقى لنفسه حياة ضمن بها الجامود والخافدون.
وهكذا صورة للعلاقة التي أقرها الإسلام مع من سيقمه، شرحناها بإسهاب هذا ومتبناها الأخرى.
ونثبت إيجازًا آخرًا بقلم الشيخ الجليل المرحوم محمد عبد الله دراز، وهذا نصه:
«... إذا أخذنا كلمة "الإسلام" بمعنى القرآن، إنها لا تدعو مجالًا لهذا السؤال عن العلاقة بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية.
فالإسلام في لغة القرآن ليس اسمًا لدين خاص، وإنما هو اسم للدين المشترك الذي تبت به كل الأنبياء وانتسب إليه كل أتباع الأنياب.
هكذا نرى نوحًا يقول لقومه: "أمَرْتُ أن أكُونَ من المُسلمين".  
ويعقوب يوصي بنيه: "فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسلمُونَ".
وأنباء يعقوب يجيبون بأيامهم: "قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهُكَ وَإِبْنَكَ إِبْرَاهِيمَ إِسْمَاعِيلَ وإِسْمَاعِيلَ، إِنَّا نَعْبُدُ مَنْ كَبِيرٍ وَكَبِيرًا، وَإِنَّهُ إِلَى هُمَّ وَأَحَدهَا وَرَحْمَةٌ لِلمُسْلِمِينَ".
وسومي يقول لقومه: "يَا قُومِ إن كنتم آمنتم بالله فعليه تؤكلوا وإن كنتم مسلمين".
والخوارج يقولون لعيسى: "آمنًا بالله واشهد بأنك مسلمون".
بل إن فريقًا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن: "قَالُوا آمنًا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنَ الْحَقِّ مَنِ نَا، إِنَّا كَانَ مِنْ قَبْلٍ مُسْلِمِينَ".

(1) البقرة: 132  
(2) البقرة: 132  
(3) القصص: 52  
(4) بنيس: 72  
(5) آل عمران: 52  
(6) بنيس: 84
وبالجملة نرى اسم الإسلام شعارًا عامًا يدور في القرآن على ألسنة الأنباء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصر النبوة الحمدية.

ثم نرى القرآن يجمع هذه القضايا كلها في قضية واحدة يوجهها إلى قوم محمد، وبسببهم في أنهم لم يشعروا منهم دينًا جديدًا، وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم:

«شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا ولدًا أوجينًا إليك وما وصيناه بي إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه».

ثم نراه - بعد أن يسرد سيرة الأنبياء وأتباعهم - ينظمهم في سلك واحد، ويجعل منهم جميعًا أمة واحدة لها إله واحد، كما لها شريعة واحدة:

«إن هذه أمة واحدة وآتنا ربك فاعدون».

ما هذا الدين المشترك الذي اسمه الإسلام، والذي هو دين كل الأنبياء المرسلين؟ إن الذي يقرأ القرآن يعرف أنه هذا الدين: إنه هو التوجه إلى الله رب العالمين في خضوع خالص لا شوابه شرك.

وفي إيمان واثق مطمئن بكل ما جاء عنده على أي لسان وفي أي زمان أو مكان، دون ترد على حكمه، ومنه تميز شخصي أو طائفي أو عنصري بين كتاب وكتاب من كتبه، أو بين رسول ورسول من رسله.

هكذا يقول القرآن: «وما أُمرها إلا ليبعدوا الله مخلصين له الذين ».

ويقول: «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأسبا وصادفة وما وعيسى وما مؤتى موسى وعيسى وما أُمر بهم من رحمهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون».

نقول - إذا، إن الإسلام بعناه القرآن الذي وصفناه لا يصلح أن يكون محلاً للسؤال عن علاقة بينه وبين سائر الأديان السماوية.

وإذ لا يسأل عن العلاقة بين الشيء ونفسه، فهناك وحدة لا انقسام فيها ولا ثينية.

(1) البقرة: 135
(2) الأنباء: 92
(3) البينة: 60
(4) الشورى: 126
غير أن كلمة "الإسلام" قد أصبح لها في عرف الناس مدلول معين، هو مجموعة
الشريعة والتعليم التي جاء بها محمد أو التي استنبطت ما جاء به.
كما أن كلمة "اليهودية" أو "الموسيوية" تخص شريعة "موسي" وما اشتق منها.
وكلمة "النصرانية" أو "المسيحية" تخص شريعة "عيسى" وما تفرع عنها.
فالسؤال الآن إذا هو عن "الإسلام" بمعناه العري ف الجديد.
أعني عن العلاقة بين المحمدية وبين الموسوية والمسيحية.
ولإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن تقسم البحث إلى مرحلتين :
المرحلة الأولى : في علاقة الشريعة المحمدية بالشريعة السماوية السابقة.
والثانية : في علاقة الشريعة المحمدية بالشريعة السماوية السابقة.
ويق الوضع الأولى - لم تبعد عن منبعها ولم يتغير فيها شيء بفعل الزمن.
ولا بيد الإنسان.
المرحلة الثانية : في علاقته بها بعد أن طال عليها الأمد، وطرأ عليها شيء من
التطور.
أما في المرحلة الأولى : فالقرآن يعلمنا أن كل رسول يرسل، وكل كتاب ينزل، قد
جاء مصدقًا ومؤكدًا لما قبله :
فالمجيء مصدق وموضوع للتاريخ.
والقرآن مصدر ومؤكد للإنجيل والرواية وكلا ما يليه من الكتاب (5: 46-48).
وقد أخذ الله الميثاق على كل نبي إذا جاءه رسول مصدق لما معه أن يؤمن به.
وبينصه (3: 81).
غير أن هنا سؤال: ما سائله :
أليس قضية هذا التبادل الكلي بين الكتب السماوية أن تكون الكتب المتاخرة
إلا هي تبادل للمتقدمة وتذكير بها، فلا تبدل فيها معنى، ولا تغير حكمًا؟
وألا... فكيف يقال: إنها تصدق إلى حينما هي تبدل وتعدل؟

* بقصيدة الشيخ "داراز" السورة رقم 35 ـ المائدة ـ الآية 46
** 48. ويلاحظ القارئ هذا طوال بحث الشيخ
"داراز" أنه يستخدم رقم السورة أولا ثم رقم الآية المقصودة... وهكذا. "لاحق".
وإذا كان من قضية التصادق الكلي بين الكتب ألا يغير التأخر منها شيئًا من المتقدم .. فهل الواقع هو ذلك؟
الجواب: ليس الواقع ذلك.
فقد جاء الإنجيل بتعديل بعض أحكام التوراة.
إذا أعلن عيسى أنه جاء ليحل لبني إسرائيل بعض الذي حرم عليهم (3: 50)،
وذلك جاء القرآن بتعديل بعض أحكام الإنجيل والتوراة.
إذا أعلن أن محمدًا جاء ليحل للناس كل الطيبات، ويحرم عليهم كل الخبائث،
ووضع عليهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم (7: 157).
ولكن يجب أن نفهم هذا وذاك أنه لم يكن من التأخر نقصًا للمتقدم، ولا
إنكارًا لمحكمة أحكامه في إبانها.
وإذا كان وقوعها عند وقتها المناسب، وأجلها المقدر..
مثل ذلك مثل ثلاثة من الأطباء .. جاء أحدهم إلى الطفل في الظهر الأول من حياهه فقرر قصر غذائه على اللبن.
وجاء الثاني إلى الطفل في مرحلته التالية .. فقرر له طعامًا لينًا وطعامًا نشويًا خفيفًا.
وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها .. فأذن له بغذاء قوي كامل.
لا يدري أن ها هنا اعتراضاً ضميماً من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقاً كل التوفيق في علاج الحال التي عرضت عليه.
نعم إن هناك قواعد صحية عامة في النظافة والتهوية والتدفئة ونحوها، لا
تشتت بالاختلاف الأسنان «الأعمار».
فهذة لا تعديل فيها ولا تبديل، ولا يختلف فيها طب الأطفال والناشئين عن طب الكهول الناضجين.
هكذا الشرائع السماوية كلها صدق وعدل في جملتها وتفصيلها.
وكلها يصدق بعضها بعضًا من ألفها إلى يائها.
ولكن هذا التصديق على ضررين:

1- تصديق القدوم مع الأذن ببقائاه واستمراره.
2- تصديق له مع إيقائه في حدود ظروفه الماضية.
ذلك أن الشرائع السماوية تحتوى على نوعين من التشريعات:

1- "تشريعات خالدة" لا تتبدل بتبديل الأصقاع والأوضاع (كالوصايا العشر).

وتحووا.

إذا فرض أن أهل شريعة سابقة تناضوا هذا الضرب من التشريع جاءت الشريعة
اللاحقة بمثله (أي أعادت مضمونه تذكيراً)، وتأكيدًا له.

2- "تشريعات مؤقتة" بأجال طويلة أو قصيرة.
فهذه تنتهي بانتهاء وقتها وتهيء الشريعة التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة
الطارئة.

وهذا - والله أعلم - هو تأويل قوله تعالى: «ما ننسخ من آية أو ننسخها نأتين بخيرٍ منْها أو مثلها ..." (2)
ولولا استعمال الشريعة السماوية على هذين النوعين ما اجتمع فيها العنصران
الضروريان لسعادة المجتمع البشري.

1- عنصر الاستمرار الذي يربط حاضر البشرية بحاضرها.
2- وعنصر الإنشاء والتجديد، الذي يعد الحاضر للتطور والرقي اتجاهًا إلى مستقبل
أفضل وأكمل.

(1) تقول الوصايا العشر إلى آخره.
(2) الأثرة: 106. وذهب البعض إلى أن المقصود ينسخ الآية هنا ليس الآية القرآنية المثلو، بل هي العلامة
المعجزة كعمة موسى - مثلها- والدليل على ذلك أنها وردت في سياق حديث عن المعجزات المصاحبة للنبوة
المؤيدة للأباء، والباحثين أن ينظروا إلى الآيات السابقة واللاحقة على هذه الآية المذكورة.
وهو رأي من لا يرى النسخ في القرآن... ولزيده من التفصيل في هذا الموضوع أنظر: الشيخ محمد الغزالي
- نظرات في القرآن - طبعة دار نهضة مصر، والدكتور: عبد المتعالى الجربى - لا ننسخ في القرآن - لماذا - طبعة
- مكتبة وحية.
ونحن إذا نظرنا نظرية فاحصة إلى سير التشريع السماوي من خلال الشرائع.

الثلاث نجد فيه هذين العنصرين واضحين كل الوضوح. إذا نجد كل شريعة جديدة تحافظ على الأسس الثابتة التي أرستها الشريعة السابقة، ثم تزداد عليها ما يشاء الله زيدته.

نرى شريعة الاحترام مشاً قد عنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك: "لاتقتل" و"لا سرق" إلخ.

وبرى الطابع البارز فيها هو طابع الحقوق وطلب العدل والمساواة بينها.

ثم نرى شريعة "الإنجيل" تجيء بعدها فتقرر هذه المبادئ الأخلاقية وتؤكدها، ثم تترقى فتزيد عليها أدابًا مكملة: "لا تراء الناس بفعل الخير". "أحسن إلى من أساء إليك".

وبرى الطابع البارز فيها التسامح والرحمة والإيثار والإحسان...

وأخيراً نجيء شريعة القرآن: فنراها تقرر المبدأين كليهما في نسق واحد:

"إن الله يأمر بالعدل والإحسان" (1) مقدرة لكل منهما درجته في ميزان القيم الأدبية، فعبارة بين المفضل منهما والفاصل: "وجزاء سيرة سيئة مثلها فمن عاقب وأصح فاجر إلى الله" (2).

وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقيتم به ولتَن صبرتمت لهو خير للصابرين" (3).

ثم نراها - وقد أضافت إليها فصولًا جديدة - صاغت فيها قانون آداب اللياقة.

رسمت بها مناهج السلوك الكريم في المجتمعات الرفيعة.

ففي التحية والاستئذان، والمجالسة والخطابة إلى غير ذلك... كما نراه في سورة النور والحجرات والجادلة.

هذه مثال من أمثلة الجمع في سير التشريعات السماوية بين عنصر المحافظة على القديم الصالح، وعنصر الأخذ بالجديد الأصلح.

والأمثلة كثيرة لا يسع لها نطاق هذا البحث.
هكذا كانت الشرائع السماوية خطوات متصاعدة ولبنات متراصمة في بنى الدين والأخلاق وسياسة المجتمع.

وكان أهمية اللبنة الأخيرة منها أنها أكملت البناني وملأت ما بقي في فرغ.

وبنها - في الوقت نفسه - كانت بثابة حجر الزاوية الذي يسك أركان البناء.

وصدق الله حين وصف خاص أنبيائه بأنه: «جاء بالحق وصدق المرسلين» (1).

و حين وصف اليوم الأخير من أيامه بأنه كان إمامًا للنعمنة وإكمالًا للدين: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتمت عليكم التسمية» (2).

وصدق رسول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير:

مثلًا ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بني بيتا فأحسنه وأجعله إلا موضع لبنة فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هل رأوا هذه اللبنة؟ فأنى اللبنة: و آنا خاتم النبيين» (البخاري، كتاب المناقب، باب خام النبئين).

إنها إذاً سياسة حكيمة رسمتها يد العناية الإلهية، لتربية البشرية تربية تدريجية لاطفرة فيها ولا ثورة، ولا توقف فيها ولا رجعة، ولا تناقض ولا تعارض.

بل تضاعف وتفاقم، وثبات واستقرار، ثم نمو واكتمال وازدهار.

وننتقل الآن إلى المرحلة الثانية.

"المرحلة الثانية" في بحث العلاقة بين الشريعة المحمية والشرائع السماوية بعد أن طال الأمد على هذه الشريعة، فنالها شيء من التطور والتحرر.

رأينا في المرحلة السابقة كيف كان القرآن يعلن عن نفسه دائمًا أنه جاء "مصدقًا لما بين يديه من الكتاب" (3).

ونرى الآن أن القرآن أضاف إلى هذه الصفة صفة أخرى، إذ أعلن أنه جاء أيضًا "الصديد " على تلك الكتب "5:48" أي حارسًا أمينًا عليها.

ومن قضية الحراستة الأمينة على تلك الكتب ألا يكتفي الحارس بتأييد ما خله.
التاريخ فيها من حق وخير، بل عليه - فوق ذلك - أن يحميها من الدخيل الذي عساها أن يضاف إليها بغير حق.
وأن يبرز ما تمس إليه الحاجة من الحقائق التي عساها أن تكون قد أخفيت منها. وهكذا كان من مهمة القرآن أن ينفى عنها الزوائد، وأن يتحدى من يدعى وجودها في تلك الكتب.

»فلَأَفَتَوا بِالنُّورَةِ فَاتَّلوها إِن كُنْتُم صَادِقِينَ«(1)

كما كان من مهمته أن يبين ما ينبغي تبينه ما كتموه منها: »فَيَا أَهْلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُم رَسُولُ اللَّهِ لِكُنِّيَّتُكُم كُثْرًا مَّا كُنْتُم تَخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ«(2).
وحملة القول أن علاقة الإسلام بالديانات السماوية في سوتها الأولى هي علاقة تصديق وتأييد كلي.
وأن علاقته بها في سوتها المنظورة - علاقة تصديق لما بقي من أجزائها الأصلية، وتصحيح لما طرأ عليه من البدع والإضافات الغريبة عنها.

هذا الطابع الذي تسمى به العقيدة الإسلامية وهو طابع الإنصاف والمبصر الذي ينقضي كل مسلم، ألا يقبل جزافًا، ولا ينكر جزافًا، وأن يصدر دائمًا عن بصيرة وبينه في قبوله ورده - ليس خاصًا بوقفها من الديانات السماوية.
بل هو شأنها أمام كل رأى وعقيدة.
وكل شريعة وملة، حتى الديانات الوثنية، ترى القرآن يحللها ويفصلها فيستبقي ما فيها من عناصر الخير والحق والستة الصالحة، وينحي ما فيها من عناصر الباطل والشر والبدعة.

»أما بعد! فهذا هو موقف الإسلام من الديانات الأخرى من الوجهة النظرية.
وقد بقى أن نبحث عن موقفه من الوجهة العملية.
هل يقف منها موقف السكون عليها والإغواء عنها اكتفاء بالأمر الواقع؟ أو هل يقف موقف المحارب المقاتل، لا بدًا له بال حتى يظهر الأرض منها ومن أهلها؟

(1) آل عمران : 93.
(2) المائدة : 15.
قليل من الكتاب الغربيين يجيبنا بالشاق الأول.

حتى قال قائل، منهم "جوتيه" في أخلاق المسلمين وعوائدهم:

إن المسلم أنانى، وإن الإسلام يشجعه على هذه الأنانية.

فالإسلام لا يعني ضل غيره أم اهتدى، سعد أم شقي، ذهب إلى الجنة أم إلى السعبر.

وأكثر الكاتبين يجيبون بالشاق الثاني:

 فالإسلام في نظر هؤلاء يريد أن يفرض نفسه على الناس بحد السيف.

والقرآن في نظرهم - يأمر المسلم بأن يضرب عنك الكافر أينما لقبه.

الواقع أن كلا الفريقين لم يصب كبد الحقيقة في تصوري لوقف الإسلام.

ليس الإسلام فائرا ولا منطويًا على نفسه، كما زعم الأقلون.

فالدعوة إلى الحق والخير ركن أصيل من أركان الإسلام.

والنشاط في هذه الدعوة فريضة مستمرة في كل زمان ومكان.

يأمر الله نبيه بتبلغ كلامه، وأن يبذل جهده في هذا التبلغ:

وجاهدهم به جهادًا كبيرًا (1).

والقرآن يحظر المؤمنين على هذه الدعوة:

(2) ومن أحسن فولاً من دعا إلى الله (3).

بل يجعل الفلاح والنجاة وقتًا على هؤلاء الدعاء:

ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير وأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (4).

إن الإنسان لفي خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق.

وتواصوا بالصبر (1).

(1) الفرقان : 52.
(2) فصلت : 33.
(3) آل عمران : 104.
(4) العصر : 204.
ولكن الإسلام - في الوقت نفسه - ليس كما يزعم الأكشرون - عنيفا ومتعبعا للدماء.

وليس من أهدافه أن يفرض نفسه على الناس فرضًا حتى يكون هو الديانة العالمية الوحيدة.

فنبى الإسلام هو أول من يعرف أن كل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هي محاولة فاشلة.

بل هي مقاومة لسنطة الوجود، ومعاندة لإرادة رب الوجود:

"ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين." (1)

"وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين." (2)

"ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جمعًا أفئد أن نكره الناس حتى يكونوا مؤمنين." (3)

إذاً لا تهدي من أحبب ولكن الله يهدي من يشاء." (4)

ومن هنا نشأت القاعدة الإسلامية الم✨كنة المبرمة في القرآن في قاعدة حرية العقيدة: "لا إثراء في الدين." (5)

ومن هنا رسم القرآن أساليب الدعوة ومنهاجها، فجعلها دعوة بالحجج والنصيحة في رفق ولين:

"ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بما خيرًا." (6)

على أن الإسلام - لا يكتفي منا بهذا الموافقة السلمي السلمي، وهو عدم إكراء الناس على الدخول فيه، بل يتمدنا نا إلى الأمام، فيرسن لنا خطوات إيجابية نكرم بها الإنسان في شخص غير المسلمين.

هل ترى أسمى وأنبل من تلك الوصية الذهبية التي بوصينا بها القرآن في

معاملة الوثنية التي هي أبعد الديانات عن الإسلام، فضلاً عن الديانات التي تربطنا بها أواصر الوحي السماوي؟ اقرأ في سورة النبوة: «وَأَنَّ أَحَدَ مِنَ الْمُشَارِكِينَ أَسْتَجَرَكَ فَأَجَرَهُ حَتَّى يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبَلَغَهُ مَأْمَةً».

فأنت تراه لا يكتفينا منا بأن غير هؤلاء المشركين ونؤوبهم ونكفيل لهم الأمن في جوارنا فحسب.

ولا يكتفينا منا بأن نرشدهم إلى الحق، ونهديهم طريق الخير وكفى بل يأمرنا بأن نكفيل لهم، كذلك، الحماية والرعاية في انتقالهم حتى يصلوا إلى المكان الذي يأمنون فيه كل غائبل.

ثم هل ترى أعدل وأرحم وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من تلك القاعدة الإسلامية، التي لا تكتفينا بأن نكفيل غير المسلمين في بلاد الإسلام حرية عقائدهم أو عوائدهم وحماية أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم.

بل تمنحهم من الحرية والحماية، ومن العدل والرحمة قد يمنحها للمسلمين من حقوق العامة «لله ما لنا وعليهم ما علينا».

هل ترى أبشع أقل، وأرحب صدرًا، وأسبق إلى الكرم، وأقرب إلى تحقيق السلام الدولي والتعايش السلمي بين الأمم، من تلك الدعوة القرآنية التي لا تكتفينا في تحديد العلاقة بين الأم الإسلامي وبين الأمم التي لا تدين بدينها، ولا تحكم إلى قوانينها.

لا تكتفينا في تحديد هذه العلاقة بأن تجعلها مبادلة سلم بسلم: «وَإِنْ جَنَّحْوا للسَّلَّمَ فَأَجْحَّلْ لَهُمْ».

فإن اعترضوك فلما قاتلوك وألقوا إليكم السلام فما جعل الله لكم عليهم سيئًا. بل تدب المسلمين إلى أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقف رحمة وبر، وعدل وقسط.

وعدل وقسط:

(1) التربية 26. (2) الأنفال 61. (3) النساء 90.
لا يبهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تروه وتقسطوا إليهم فإن الله يحب المقتضين

ليس هذا هو كل شيء في تحديد الموقف الإنساني النبوي الذي يقفه الإسلام عملياً من غير أتباعه . ولضيق المقام نكتفي بكلمة واحدة:

إن الإسلام لا يكف لحظة واحدة عن مد يده لمصفحة أتباع كل ملة ونحلة في سبيل التعاون على إقامة العدل ، ونشر الأمن وصيانة الدماء أن تسفك ، وحماية الحرمات أن تنتهك ، ولو على شروط يبدو فيها بعض الإجحاف .

ناهيك بالمثل الرابع الذي ضربه لنا رسول الله ﷺ في هذا المعنى حين قال في الحديثة:

والله لا تدعوني قريش إلى خطة توصل فيها الأرحام وتعظم فيها الحرمات إلا أعتديهم إياها .

وهذا هو مبدأ التعاون العالمي على السلام . يقرر نبي الإسلام . ورسول السلام» .

الفتح الإسلامي في العصر الأول:

هناك سؤال يجب أن يوجه إلينا نحن المسلمين ، ونحب أن نسمع إليه في آن آت ، وأن نشرح إجابته على ضوء من الفكر الحر والتجرد المطلق ، تاركين لكل امرئ بعدئذ أن يحرص هذا الرد وأن يقبله على وجهه كلها ثم ليقتنع بما شاء !!

أما السؤال فهو : لماذا خرج المسلمون الأولون من الجزيرة التي انتشر الإسلام فيها زاحفين على مصر والشام وفارس وما وراء هذه الأقطار ؟

ولذا لم يعيشوا بديئهم في نطاق أرضهم مكتفين بإرسال الدعوة من حين إلى حين

للغث الأنظار إلى الرسالة الجديدة وما تضمنت من مبادئ ونظم ؟

وإذا كان الإسلام لا يخوض الحروب إلا رداً لعذاب أو منعاً لفتنة ، فهل هذه الجيوش التي هدمت الممالك المجاورة وأقامت فيها كانت تشن حرب دفاع أم كانت تهاجم فعلاً ?

(1) المحتارة :
(2) انتهى سبحة الشيخ محمد عبدالله دراز.
هذا هو السؤال الذي يجب أن نسمعه! وأن نقدم جوابًا مقنعًا عنه!
وإننا بؤنا وبناء ديننا معنا بالصفة التي يستحقها. ونستحقها معه!
ولنحن نرحب بهذا السؤال، ونود أن نسمعه من كل فم، وأن نسمع الإجابة عليه
كل آذن!

* * *

إن الإسلام يجعل الاعتقاد الصحيح شرآ الإرادة الحرة.
وكم أن المكره على عمل ما لا يتحمل نتائجه، لأن إرادته استعيدتها قوة قاهرة،
فكذلك المكرهون بالعنف على الدخول في دين ما لا يعتبرون متدينين به موضوعًا،
وإن خضعوا له شكلاً.

وحسابهم الحق عند الله يقوم على اتجاهات قلوبهم وحركات ضمائرهم فحسب.

وهذا المبدأ يعتبر حجر الزاوية في الدعوة الإسلامية:

«إذ أعد إلي هكذا ربك بالحكمة والموصى بها وسعة الحكمة وجادلهم بالفي التي هي أحسن إنسان إن
ريك هو أعلم بمن ظل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين.»

وقد ظهرت في العالم أديان كثيرة، وتستمد حكمه دول شتى.
والإسلام لم يبدأ دعوته الكبرى في الأرض إلا بعد أن سلخت النصرانية قرابة
سبعة قرون، فضلاً عن اليهودية القديمة، وعن الوثنية الأقدم من المجتمع.
فلننظر ما هي الطرق التي سلكتها هذه الديانات في سيطرتها على الشعوب؟
ولنفضح الطرق - أولاً - عن قيمها الذاتية ومدى ما فيها من حق وباطل.
ثم لنستأهل هنالك كل فرد من البشر حقه المطلق في اعتناق الدين الذي يتجه
إليه بحذف إرادته؟

وهل الحكومات التي أقامتها هذه الديانات أعطت رعاياها حريةاتهم المطلقة في تخبر
ما يرون من مذاهب وأفكار؟

(1) التحليل 125.
وهل انفردت الوثنية بالحكم في فارس لأنها قامت على دعائم مكينة من حرية العقل والضمير؟

وهل انفردت المسيحية بالحكم في أقطارها الواسعة لأنها كذلك وليدة إيمان حر ورغبة مطلقة؟

وما الرأي إذا كانت الحكومة المسيحية ذات السلطة الهائلة قد قامت على أنقاض مذاهب مسيحية أخرى، خنقها الاضطهاد وقتلها الكبج والجبروت النازل بأشياعها عدة قرون؟

وما الرأي إذا كانت المذاهب المنتصرة بقوة السيف مذاهب مخرفة، والمذاهب المنهزمة أدنى إلى الرشد والصدق؟

هل يعتبر الهجوم على هذه الحكومات عدوانًا؟

إذا قبل أن نجيب بالتفصيل على هذه الأسئلة، وقبل أن نتبين معالم التاريخ القديم نؤكد من جانبي: أن الإسلام لو استخدم قوة عسكرية ضد حكومات تعتمد سياساتها على تأميم حقوق الفرد وإطلاق حرية الدينية، كان قد ارتكيب جريمة من أقبح الجرائم.

وأما أن ياخذ بها إلى يوم الدين.

وحسينا أن نسرد تاريخ الكنيسة في القرون السبعة التي سبقت الإسلام، ثم في القرون الثلاثة عشر التي أعقبته، لنتعب تحت أعجوبة سلسلة من الآماة والفواجع لطخت جبين البشر باللويل.

وما زال تاريخ الدنيا ين من ذكرياتها ويفزع إلى يومنا هذا من أشارها.!!

إنه اضطهاد المخالفين كان صبحة عامة للمسيحية منذ تحولت إلى دولة على يد الإمبراطور الويئ قسطنطين.

ولم يكن اضطهاد أولئك المخالفين عملاً فردياً يبدو حنيفاً ويخفيف أحياناً بل كان سياسة ثابتة حاسمة تستهدف إفناء الخصوم ومحو آثارهم محوًا.

وكانت المذاهب العامة والقوانين الصارمة التي توحي بها تدب وتنفذ بوحشية بالغة.
ولم يستوي المسيحية التي أنزلها الله على نبيه عيسى هي التحريش للنصارى في العصور الأولى أو الوسطى، هذه التعاليم الهامة المتضمنة إلى السفك والهلام.

فإن المسيحية الخالصة تبخرت بعد وفاة عيسى بأقدام قليل.

ولقد حاول بعض الأئمة النصفيين أن يعيدوا من أوضاعها الصحيحة - كأبوليوس وأتباعه - ففشلا وأبدوا، على ما سيعرف القارئ بعد.

وتولى زمام الدين الكاهن الشيوخ أقسموا على أنفسهم في فهم عقيدة التنثيث، ولكن بعضهم بعضًا، ونصبوا لأنفسهم المشتاقين والمثيرين، وعانيا العالم من تعصبيهم، وتشغيفهم من خصومهم الويل الكبير.

مظالم متبادلة:

عاني المسيحيون الأولون صنوقًا من العسف والآذى تحت حكم الرومان، وشردهم.

الأضطهاد الدائم فالتمسوا المطار في كل فج.

وكان اليهود الحيدرة، والوثنيون الجهلة أعوانًا على التنكيل بالملة الجديدة والكيد لها.

ولكن المسيحية - رغم ما نزل بها - تثبتت بالبقاء حتى أتيت لها على نحو نعتبره نحن المسلمين هزيمة لعقيدة التوحيد، وبداية للعون جديد من الدين المعقد المثقل.

بخرافات الوثنية الأولى!

وامتزاج النصرانية بأفكار أرضية بحتة بدأ من قدم.

وعل ذلك حدث حاجة الديناء المصطبة إلى متنفس تسرب منه وترى ضياء الحياة.

قال "تروليان" سنة 202م: "... إننا بريئون من الذين ابتدعوا(1) مسيحية روائية، أو أفلاطونية، أو جدلية.

iskey bi al-hal wal-ejil. Lsna be-hajah il-axo".

ولكن الذي حدث - للأسف - أن هذه المستعدين هي التي قدر لها بعد أن تعيش وأن تسوء.

وسنشرح وجهة نظرنا في هذا الموضوع عند الكلام عن اختلاف الفرق.

النصرانية في حقيقة عيسى بن مريم.

(1) عن مبتذوات المسيحية ومدخولاتها أنظر: الشيخ رحمة الله الهندى - إظهار الحق - والشيخ محمد أبو زهرة - محاضرات في النصرانية - طبعة دار الفكر العربي.
ويقول الدكتور الطويل: "... يذهب صفوة المؤرخين إلى تبرير الاضطهاد الذي
أنزلته الدولة الرومانية بالسياسية وآتباعها.
إذ كان الدين الجديد ينصح العقائد الأخرى العداء ولا يلين في حكمه عليها
ورأيه في اتباعها.
وقد بدأ من تصرفات المسيحيين واعترافاتهم أنهم على استعداد لإبادة المذاهب
كلها، وتحطيم الحضارة التي يعيشون في ظلها، متي تهيأت لهم سلطة تمكنهم من
بلغ هذه الغاية.
فكان على الدولة أن تنهض للدفاع عن نفسها، ومحو دين يهدد بإثارة الشفق
بين رعاياها، وينذر بتحطيم الحضارة التي يتعز بها.
ولو لم يكن أتباع هذا الدين الجديد طلاب حرية دينية.
فالمعلوف أن شهداء المسيحية قد راحوا استجابة لداء ضمائرهم ووعي
إيابهم، ولم يموتون في سبيل الدفاع عن مبدأ الحرية الدينية...".
ويقول كذلك: "صرح المؤرخون عن أمثال "بيري" أن اضطهاد الأباطرة
للمسيحيين قد أدت إليه رغبة هؤلاء الأباطرة في الانتصار لبدا التسامح العام".

**

وهذه الآراء تعبن - في جملة - أن المسيحيين الأولين لم يعتمدوا في دعايتهم على
المناقشات والمحاورات التي لا تتطلب أكثر من جو حري لنة بدأ الصائب، مع أن
الأديان كلها لا تطلب أكثر من ذلك.
فهل يعود ذلك إلى أن مبدأ التثليث لا يخضع لمناقشة عقلية حرة ؟ ربما.
ونحن - على أي حال - لا نظلم إلى ضمائر الحكومات الوثنية.
سواء كانت وثنية دينية تقوم على عبادة الأصنام، أو وثنية سياسية تقوم على
تقديس نفر من الحكام...،
ونستنكر المظام الذي وقعت على المسيحيين، أو تقع على غيرهم أيًا كانوا.
على أن النصرانية حكمت فعلاً.
وكان أسلوبها في الحكم مصدقًا لأсовأ الظنون ومлечفًا بالضمير الديني أفتح التهم.


ثم شرعت عقوبة الإعدام للملحدين ونظم إنفاذهم.

ووضع "تيودسيوس" في أوائل القرن الرابع قوانين صارمة تتضمن ستًا وستين مادة لمقامة الهرطقة، وإلى جانبها بنودًا أخرى لاستئصال الوثنية، ومناهضة الديانة اليهودية، والارتداد عن الدين ومزاولة السحر، ونحو ذلك.

وكان هذا الدستور يقضي بإقصاء الوثنين عن وظائف الدولة، وتحريم طقوسهم وحظر عباداتهم، وهدم معابدهم، وتعذيب صورهم».

وفي أوائل القرن الخامس ظهر القيس "أوغسطس"، وهو رجل عنيف المشاعر، بالغ القسوة.

كانت حياته سوط عذاب على مخالفي المسيحية، ورافض الين والدخل فيها.

وقد أمد حركة الاضطهاد بالوقود الذي زادها ضررًا، ورسم للأملاك مثلاً سيئة للمجاه والتوحش.

وقد وصف الدكتور الطويل بأنه: «.. صاغ مبدأ الاضطهاد لهداية الأجيال التالية، وأقامه على أساس الكتاب المقدس مستندًا إلى كلمات فاته بما المسيح في مثل من أمثاله: "وأجرواهم على اعتناء دينكم".

وشابًا مع هذا سلم "أوغسطس" بعاقبة الملحد بالنفي والجلد وفرض الغرامات،
وعوض للكنيسة دستورًا تلتزم به إزاء كل حركة إخاديدة . . . ، ومن رأى «أوغسطين»
- الذي استمده من عقيدة الخلاص، ومن نصوص العهد القديم -  . . . أن عقاب
الملحدين هو من دلالات الرفق بهم وشواهد الرحمة، إذ كان هذا العقاب ينذههم من
العذاب الأبدى الذي ينتظر المرتدين عن المسيحية . . .».

«إن الهبرطة توصف في الكتاب المقدس، وكأنها نويع من الفسق والمروق وعبادت
الأوثان، إنها أسوأ أنواع القتل، لأنها قتل للأرواح.
من أجل ذلك اقتضت العدالة أن ينال أهلها ما يستحقون من عقاب.
وإذا كان العهد الجديد قد خلّ من رسول استخدم القوة والعنف في نشر
الدين، فقد كان هذا لأن عصرهم قد خلّ من وجود أمير يعتنق المسيحية».

هكذا يقول «أوغسطين».

يعني أن المسيحية لم تستعمل القوة من عهد عيسى، لأنها لم تتح لها، ولم تتيمر
وسائلها، ولو أتيحت لها، ما تورعت عن فجر الأم بها.
ويقول القديس الإجبار مستدلاً على آرائه هذه من حوادث العهد القديم: ألم يذبح
اليشع» بيد أنبياء «بعل»؟

ألم يحطم «حزقٌ» و «يوشع» ملك «بختنصير» بعد ارتداده؟
ألم يحطم هؤلاء الأنبياء بالقوة عبادة الأوثان في أقاليمهم؟
ألم يكونوا موضع ثناء محمود من أجل ما انطروا عليه من تقوى؟

قبل بعثة محمد ﷺ:

هذه فلسفة المسيحية قبل بعثة محمد ﷺ تجاه البشر أجمعين.
يجب أن نكشف النقاب عنها، إذ لا معنى للموارية في الحقائق أو الاستحياء من
تقريرها مع قوم لا يبالون بقلب الحقائق، وتنمس العيون للألباب.
فعقيدة الخلاص هي لب المسيحية، وأساس فكرة التثليث.
وعن عقيدة الخلاص صدر التفكير في الإضطهاد.
إذ أخذ المسيحيون بنظرية مؤداها: أن الخلاص لا سبيل إليه إلا عن طريق الكنيسة الكاثوليكية وحدها.

ومنذما روجوا للإذعان بها أذاعوا: أن الذين لا يدينون بصدق نظريتهم تحيق بهم اللعنة الأبدية لا مساحة.

فأقرض هذا الاعتقاد إلى الاضطهاد والتنكيل بكل من أبي الإذعان للكنيسة.

وعُنت الوهابية أعظم خطأ، لا يقاس ما يتبلي به أصحابها في الدنيا من صنوف الآلام بما ينكرهم من الجحيم، وأضحى إنقاذ الدنيا من أعداء الله واجبًا مقدسًا.

والانصاف بالفضيلة لا ينضج عذرًا للمرفق.

فالطفل - على براحته وخلو ساحته من الخطابا - متأتى من غير تعميد.

مضى بقية حياته الأخوية في جهنم (!).

فالطبيع - بعد هذا - أن يستهدف المتهمون بالمرق لأشد العذاب.

أجل فالكلينسة التي تستبجع عذاب طفل وتنصره عدالة، لا ينكر منها أن تعامل جماهير الناس بمنطق سليم.

وكذلك مضت المسيحية تشق طريقها في الحياة، على ركام يعلو مع الزمن من جثث الخصوم ورفات الضحايا.

كان الوثني يقول - عن المسيحيين في القرن الأول - « انظروا كيف يحب المسيحيون بعضهم بعضًا!! فما انقضت بضعة قرون حتى كان يقول: هل عرفت الدنيا وحوشًا كهؤلاء الذين يفترسون كل من خالفهم في الدين؟».

أثر الاضطهاد في النصرانية نفسها:

كان ميلاد عيسى لغير أبي سبيًا في اختلاف واسع الشفقة بين من عاصروه ومن جاءوا بعده، وقد جمحت الآراء في نعت عيسى وأمه، من الضد إلى الهد، فبينما يزعم اليهود أن المسيح لقبي، وأن أمه بلى أتت به لغرض رشدة، يذهب النصارى إلى أن عيسى إله في صورة بشر، وأن ميلاده الخارق ينفصل به عن مشابهة غيره من الأناسى.
وأما القرآن في أواخر القرن السابع لميلاد «ابن مريم» كان مسيحيًا في تخطيط
الفرئين وناسبًا كليهما إلى العقل القبيح والشرود عن الحق، قال الله عز وجل:
«يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق وإنما المسيح عيسى
ابن مريم رسول الله وكلمه ألقاه إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا
ثلاثة انتهوا خيرا لحكم الله إنه أحد سبحانه أن يكون له ولد في السماوات وما
في الأرض وكفى بالله كفيلاً» (1).
\\qquad «قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعة أهواء قوم قد ضلوا من
قبل وأصلروا كثيرًا وصلوا عن سواء السبيل» (2).
\\quad والواقع أن المسيحية في العصور الأولى لم تظهر برعى يبسطون حمايتها عليها ولا
دعاء مظلمتين يجمعون الناس في هدوء على حقيقةها.
\\quad وقد كانت ولادة «عيسى»خارقة ووفاته الخارجية على السنن المعتاد كذلك، مثلاً
لاطلاق الأخيلة في ظلمات الاضطهاد النازل في كل مكان.
\\quad أخيلته تضفي على عيسى هلالات من المجد مازالت تتضاعف حتى سلحته تمامًا عن
مصاف البشر!!
\\quad ولكن أين تضع هذه الأساطير المتحمسة؟
\\quad وإن النبيين من لدن آدم لم يدعوا إلا إلى رب واحد، لا شريك له، ولا ند ولا ضد.
\\quad والاعتقاد بين أيدي النصارى شاهد على ذلك.
\\quad فما تكون صلة «عيسى» بهذا الإله الواحد، إذا لم يكن عيسى بشّر؟
\\quad هذا ما حبر الغالين في فهم حقيقة المسيح، النازحين إلى إشراق طبيعته معنى الألوهية.
\\quad وقد انقسموا فرقًا شتى حول هذا اللغز المعمر، ولم يعودوا من خلافهم بطلاء.
\\quad لأن الفرض إذا كان خطأً، فإن الاستدلال عليه صعب، والدعوة إليه أصعب.
\\quad وتأليه «عيسى» فرض موجّل في الضلال، ولم يتحول هذا الفرض إلى مذهب

(1) النسخة: 171.
(2) المائدة: 77.

ومن حق كل امرئ أن يسأل: هل كانت هذه الفرضيات القائمة على تأليفه «عيسى» والمضطربة في تحديد وضعها بالنسبة إلى الإله الكبير؟ هل كانت هذه الفرضيات التي انتصرت وشاعت هي الصورة الفريدة للتفسير المسيحي في العصور الأولى؟ واجواب: لا..!! فقد كان هناك كثيرون يشعرون من أعماق قلوبهم بأن عيسى لا يوجد أن يكون بشرًا ميزة الله ببعض الخصائص الجليلة، وأن الآلوية أسمى مكانًا وأعز مكانًا من أن يشاركونها في أوصافها القديمة المطلقة الخالدة أحد من الخلق، ظهر في فلسطين من العصور ثم اختفى. 

وقد كان هؤلاء النصارى الموحدون يفهمون دينهم على أصوله الصحيحة، إلا أن تقول المسحية إلى دولة آيات «قسطنطين» وما طرأ على سيرها في هذا التحول، جعل عقيدة التوحيد وأشباهها تتعرض ويتعرضون معها ما عرف به الحكم الكنسي من فظاظة وإرهاب.
في سنة 236 قرر "آريوس" محاولة ما شاع في عصره من بدعة التثليث ويبين أن
"عيسى" لا يمكن أن يكون مساويًا لله في جوهره وطبيعته. بل هو خلق حادث شأن
سائر الخلقات الخاضعة في وجودها وفنائها لإرادة الله الواحد القهار.

وقرر مطاردة "آريوس" وبدأ الناس يغلبون إليها.

ولكن الإمبراطور "فستنطيك" الذي لم يستأصل الوثنية في بلاده الواسعة، وتركها
تعيش من بعده قرابة مائة عام حتى استأصلها "تيودوسيوس"، هذا الإمبراطور أمر
بتشكيل مجمع "نيقية" الذي حكم بأن المسيح يساوي الله في جوهره وطبيعته، ثم
قرر مطاردة "آريوس" واتباعه.

وبدأت الكنيسة الوعاية والسلطات الحاكمة تتضافر على محاولة الوحدانية الحقة.
فأحرقت كتبها، وحرم اقتناها، وتعرض رجالها لما يتعرض له كل خارج على الدين
والدولة، موسوم بالإخاد، والرموخ.

وقد استقبل الأمر للكنيسة، وتفكك المحدود كجماعة لها شأن وقوة، وانفردت
الكنائس بالسيطرة العامة في أقطار المسيحية الجديدة، المسيحية القائمة على التثليث
وملك الكنائس بالتماثيل والبخور والتعاون.

حول مؤتمر "نيقية":

اجتمع في مدينة "نيقية" 2058 من الأساقفة والبطاركة، وكانوا مختلفين جدًا في
آرائهم وعقائدهم.

فمنهم كان يقول: "المسيح ومرم إلهان من دون الله".

فمنهم من يقول: "إن المسيح من الأب ببنزيلة شعلة نار توقنت من شعلة نار، فلم
تنقص الأولى لإيقاد الثانية منها".

فمنهم من كان يقول: "لم تقبل "مرم" لسعة أشهر، وإنما نور في بطن "مرم" كما
يمه الامراء في الميزاب، لأن كلمة الله دخلت من أذنها وخرجت من فرشا لساعتها".

فمنهم من كان يقول: "بثلاثة آلهة: صالح، وطالع، وعدل بينهما".

فمنهم من يقول: "ربنا وإلهنا يسويس المسيح".
ومنهم من يقول: "إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت واحد من في جوهره، وأن
ابتداء الأبن من "مريم"، وأنه اصطفى ليكون مخلصًا للجوهر الإنساني، صحبته
النعماء الإلهية. فخلق منها بائحة والمشيئة، فذلك سمع ابن الله".
ويقولون: "إن الله جوهر واحد، وأقنوم واحد يسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون
بالكلمة ولا بروح القدس".
ومنهم من يقول: "إن المسيح إله حق، وإنسان حق، بطبيعتين مختلفتين,
ومشيئتين كذلك".
ومنهم من يقول: "إنه طبيعة واحدة ومشيئة واحدة".
إلى غير ذلك من الآراء والأفكار المختلفة المتناقضة.
وقد اجتمع هؤلاء عند "قسطنطين" وتناطروا واختلفوا.
وصار كل منهم يزيد رأيه وعقيدته وينكر ما عداهم.
واسترد الخلاف والنزاع بينهم حتى لعن بعضهم بعضًا، وانسحب كثير منهم من
الجتمع، فلم يبق إلا 318 أسقفًا.
هؤلاء هم الذين بقوا في المسجى ووضعوا أساس العقيدة الجديدة للمسيحيين، التي
يعلن من خلافها ويطرد من الكنيسة.
ووافق الملك "قسطنطين" على ذلك، وأصدر أمره به.
أصل هذه العقيدة منقول عن عقيدة الهند القديمة في الشمس التي كانوا
يعبدونها.
قال "مالفي" في كتابه المطبوع عام 1895م وترجمه إلى العربية "نخلة بك شفوات"
سنة 1913م ما يلي:
"لقد ذكر في الكتب الهندية القديمة التي ترجمت إلى اللغة الإنجليزية شارحة
عقيدة الهند القديمة ما نصه:
نؤمن «بسفاسترى» أي الشمس، إله واحد، ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، وابنه الوحيد «آتي» أي النار، نور من نور، مولود غير مخلوق، محض من «فأي» أي الروح في بطن «مايا» العذراء.

ونؤمن، «بفأي» الروح الحي المنبع من الأب والابن، الذي هو مع الأب والابن، يسجد له ويجد. »

والثالوث القديم هو «بسفاسترى الشمس» أي الأب السماوي، وأتي، «النار» أي الآب وهو النار المنبعثة من الشمس. وفأي، «نفخة الهواء» أي الروح، هو أساس المذهب عند الشعوب الأرثانية، أي الهنود القدماء.

وإلا حظ أن المجتمع المسكونية القديمة للنصارى قد انتهت إلى إقرار عقيدته عامة.

للنصارى جميعًا، ننص على ما يلي:

نؤمن بإله واحد، ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، كل ما يرى وما لا يرى، ورب واحد يهود المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر، الذي من أجلنا نحن، ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، ومن مريم العذراء، وتأسس وصلب على عهد «ببلاطس النبئي» وتلام وقام في اليوم الثالث كما في الكتب وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب، وسأتي بجده ليدين الأحياء والأموات، الذي لا فاته ملكه، وروح القدس، الرب الحيي المميت المنبع من الأب المتعدد مع الأب والابن المسجون له ... إلخ.

اضطهد الموحدين في العالم المسيحي:

لكن صوت الفطرة لا يخفت مما أشيع حوله من إرهاب وسلطة على من أخطر.
فبين الحين والحين يصرخ رجل حر باستمكار التعدد في الألوهية ويعلن ضيمقه بثالوث الأب والابن وروح القدس.

ونحن نقرر - أسئف - أن الكنيسة تكون أسرع من البرق في إخفاء هذا الصوت وإخفاء معامله.

ومصرع المصلح الأسباني الكبير «سرفيوس» دليل على صدق ما نقول ...
فإن هذا الرجل ما إن جهر برأيه في خلط التنفث حتى اقتيد إلى السجن، ثم قدم للمحاكمة، فقرر القضاء العادل (إ) إعدامه حرفًا سنة 1553م.

وبتبدأ رجال الدين والدنيا التهنئ عقب إحراجه!!

واستعاد الموحدون نشاطهم في إيطاليا وألفوا طائفة انشقت على الكنيسة وعرفت بالصوصونية وأظهر هؤلاء مبادئهم التي تتلخص في إنكار ألوهية المسيح ونسبة الرفيعة إلى الله وحده.

ومن البديهي أن تناصب الكنيسة هذه الحركة العداء، وأن تشن عليها حربًا شعواء.

مكررة التهمة التي ترمى بها خصومها من القرن الأول: تهمة الهرطقة.

ما اضطر معه هؤلاء الموحدون إلى الفرار من وطنهم إلى سويسرا، فكان حظهم هناك أسوأ إذ هاجمتهم الكنيسة البروتستانتية، ففرنها من وجهها إلى بولندا وترنوفاليا.

وهناك أاذعوا عقيدتهم القائمة على مبدأ التوحيد. قال الدكتور الطويل:

"حث تأثير الروح الصوصونى أعلن "كاستيلوين السافوي" مبدأ التسامح في رسالة شهر فيها بتعصب "كلفين" وحقده، وندد بوقفه من إحراق "سرفييوس" والقضاء والقدر. وأعلن أن الدين إذا صاحبه الاضطراب كان لعنة".

والحق أن الحرية العقلية تلازم دائمًا عقيدة التوحيد.

فإن الرجل الذي يبني يقينه على الفكر الصائب، لا يبالى أية مناقشة حرة.

ويرى أن سداد المنطق في كل شيء عون له على دعم مبادئه وإظهار حقه.

أما الرجل الذي يشعر بالربكة والغموض في أساس عقيدته فهو يعزلها عن العقل أولًا، ثم يجتهد أن يهون من قيمة العقل ومنطقه في سائر الحياة.

إذا حدثت مجادلة بينه وبين مخالف له في مذهبه اعتمد في الغلب على السنان.

لا على البرهان.

وعدوى القوى كعدوى السباع من الناب والظفر برهانها...
ولكن كان الكاثوليك قد نكلوا بالعلماء والأحرار والمفكرين، أقنعن أن البروتستانت كانوا أهدى منهم سبيلًا؟

إن الرؤية نفسه كان يسمى "أرسطو" الخزير الدنيا الكذاب!

وقال عن "كويري نيكوس" - وهو أول رائد عرفة علم الفلك الحديث - : "إنه منجم مأمون مصوب بس!!"

ولم يستقر الموحدون "الصموئيل" في بولندا طويلاً، فقد طاردتهم الكنيسة ففرعوا إلى ألمانيا وهولاندا، حاملين معهم عقائدهم المضطهدة، وتبشيرين كذلك بالحرية العقلية والنسامح الديني.

بيد أن أصاب الكنيسة ما زالت تدوس وراءهم وتتبعق أشيعهم، حتى سحقتهم سحقًا.

هذه سطور قليلة من صفحات طويلة لتاريخ الكنيسة التي دار بينها وبين الإسلام. قتل تراجعت بعدة عن مصر والشام وغيرها.

إن الإسلام ينتهر على أساس فذ هو توحيد الله.

فهل رأيت في تاريخ الكنيسة أن هذا الأساس منح حق البقاء يومًا أو استرق بأصحابه كمؤمنين مخلصين؟

لقد حرقوا وأبيدوا.

ومن نتائج الاستبداد:

إذ ذابت حرية الفرد في سلطان الحكم المطلق، وشعر جمهور الأمة بالأزواء والانكسار أمام إرادة واحدة مكنتها من السيطرة والامتداد.

(1) "مارتن لوثر" : ألماني درس اللاهوت وتخصص فيه. اعتذر على مسلك البابوية الكاثوليكية، وثار على بعض آخرين من المسيحية مثل صكوك الغفران وأسس العقيدة البروتستانتية وهم من يسعون بالطائفة الإنجيلية ورغم ذلك لم يكن أحمد حالاً من غيره. "نحقير".
فمن العبث أن تتجه عناية الملوك إلى أفراد فقدوا نقتهم وأعطوا قيادهم لغيرهم، بل يجب حسم الأمر أولاً مع صاحب السلطة المطلقة.

فإن بقاء في وضعية العائلة يتنافى مع كل إصلاح.

والعالم في عصوره الأولى لم يسلم بل لم يخل من أولئك المستبدين الجبارين.

وقد كانت أفكار المسيحية كثيرة أو أشد تعرضا لهذا اللون من الطغيان.

ولنلاحظ أن حرب الثلاثين عامًا التي اشتعلت في أوروبا خلال القرن السابع عشر للميلاد قد انتهت بصلح عجيب.

إذ متحت كل أمير الحق في اختيار الدين الذي يفرضه على شعبه!!

وهذا الملك النابي يدل على قيمة الخريطة الفردية في أوروبا قديماً.

والواقع أن هذا الملك يطرد مع الفهم القديم للكاتنة الإنسانية في البلاد التي يسودها الاضطهاد والاستبداد.

وتاريخ الكنيسة يعرف هذه الشؤون حق المعرفة.

وقد كان الرسول الكريم محمد ﷺ يدرك الأحوال العامة في فارس والروم، فلم يرسل دعاته إلى الشعوب المضطهدة المكولة.

فأين لها سماع هديه؟ والختانة بوحية؟ وهى مغلوبة على أمرها، مستسلمة لآكليها؟

فأرسل دعاته إلى الرؤساء المتكبرين أولاً.

روى مسلم عن أنس قال: كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى، إلى قيس، إلى النجاشي (1) وليس بالنجاشي الذي صلى عليه، إلى كل جبار عيند يدعوهم إلى الله عز وجل.

ولو أرسل إلى الشعوب المكولة نفسها، أفتري أصحاب الحكم المطلق يدعونهم خطة لإبلاغ رسالتهم؟

أما السلطنة الضاغطة على الشعوب تمنعها أن يصلها من الخارج نداءً، وتقتل أيّة محاولة لذلك.

 ولم تجد هذه الرسائل التي بعث بها النبي الجديد إلى حكام عصره.

(1) النجاشي: لقب حاكم الحديثة وقائدة وليس اسم فرد بعينه.
وهي في حقيقتها - لا تعد أن تكون إعذارًا إلى الله بِإِبَالَاغِ الْحَقِّ لِكُلِّ امْرِئٍ عَظِيمٍ
شأْنِهِ أمِهٌ.

كما أنه إبانة لمنهج الدين الجديد في إرشاد الناس إلى أصوله.

إن «موسى» الفريد الأعزل لا يتصرف في حقه أن يكره فروعه على الإيمان بالله.

ومحمد ﷺ المعلم في قلب الصحراء المنقطعة لا يتصور في حقه كذلك أن يكره
كسرى وقيصر على الدخول في دين.

وإبلاغ الدعوة لا يتطلب أكثر من عرض حقائقها على صفحة قرطاس ثم
شَاءَ فَلِينَ وَمَنْ شَاءَ فَلِيْكُفِّرُ»).

فَأَمَّا «كسرى» فقد تناول الخطاب ثم مزقه، وأمر بإرسال اثنتين لاحضار المجرد
على دعوته، كما ينزل به ما يستحق من عقاب.

وأما «قيسير» فقد دار بينه وبين حاشيته نقاش طويل الكتاب بعده من غير رد.

ومشت الأمور على منطقها المألوف في تاريخ الكنيسة الرومانية من سبعة قرون فأعادت
الجيوش لمقاومة الديانة الناشئة بالقوة ومنع تعاليمها أن تعر عدود الدولة. ولا شك أن
المسلمين لو كانوا رعاة رومانيين من نشأتهم الأولى لا بدوا وطمست عقيدتهم، كما
حدث لأسلافهم الموحدين الخاضعين لسلطان الكنيسة.

ولكن القدر في هذه المرة ذَٰلِك الموحدين بالخليج ذي البأس الشديد.
فلما فغرت الكنيسة فما وأطقتها لتعض الموحدين الجد تهشمت أسنانها وانكسر
عدوانها!!

وكان ذلك بعد سنين من هزيمة المسلمين في معركة «مؤئة» ومقتل دعاتهم عند
حدود الشام على عهد النبي نفسه.

* * *

وأبشع نتائج الاستياب يتعدد من تواصل أحزانه وتتابع عدوانه، وإجلابه بخيله
ورجله على المضطعفين يلقى آمنهم وبروع ساكنهم.

(1) الكهف : 29.
وإذا وضع المستبدون سياسة بعيدة المدى لتغيير عقائد ومجرم أجيال وقت قلوبهم
فهم بالرغم ما يعرض سياستهم من صعب ومغارم، فإنهم واصلون لارتب إلى غايتهم
الأئمة على أنقاض من الأشلاء الخوارج.

قال الدكتور الطويل: "إن الاضطهاد نجح في مجال الاعتقاد الدينى، فأخف كل
صوت ارتفع بالمقاومة، وأثارت القسوة والسيطرة فزع العامة وملأت أفتدتهم هلعًا.
فادرت عن دينه أصلب الناس قناعة، أو تنافوا في سبيل عقائدهم فذهبو شهداء،
أو ولوا الأذرب الرازم بديهم، فأخذوا الطريق للظلمين.

وهذه الحالات جميعا تعتبر نصرًا للإضطهاد، إذ تمت الأجيال الجديدة في
البلد المضطهدة - وقد طبعها الاستبداد على ما يريد فرضه من مذهب وآراء.

وقد باد المسلمون في أوروبا المسيحية تحت أطراق هذه الرحى المجنونة.
إذ لم يكن الاضطهاد النازل بهم أزمة تعرض ثم تزول، أو غيزة تظل ثم تنجل.
بل كان مجزرة نضافة بالدم، مرعة بالردى، سبقت إليها النساء والرجال والأولاد
والشيوخ، فإما الاستشهاد أو الارتداد.

ومن هنا بجلده ترك من بعد بلد حكم عليه أن ينتصر إلى الأبد!!
حدث ذلك لمسلمي أسبانيا إبان القرن الوسطي، إذ استأصلتهم عن آخرهم
محاكم التفتيش.

وحدث مثل ذلك لمسلمي البلقان في هذا العصر.
فإن المذبح التي أوقعها القائد اليوغسلافي (ميخايروفتش) بألف المسلمين هنالك
قد طابور لنا راششها القانون (1).

إن كانت (أوروبا) المتحضرة (1) قد تكتمت أنباءها ليطويها النسيان ثم نغفو
ونصحون إذا بأنقاض الإسلام في البلقان قد زالت أو كادت.

وهذه النزعة المجرمة إلى إفناء الخصوم ومحق الأراء المختلفة، توثرها سدة الكلاس
المسيحية من أول يوم تكون فيه رجالها من الاستيلاء على السلطة التنفيذية.

(1) مؤخرًا انتهت بفجيعة البوسنة والهرسك على مسمع وشهاد من أصنام الأمم المتحدة وشبايطها الحرس.
وقد استطاع الكاثوليك قبل ظهور الإسلام أن يوطدو سلطانهم المطلق عدة أجيال متعاقبة، فاضيها بما على مذهب الموحدين، فلم يعد له كيان متماسك.

وطاردوا اليهودية فهم أبناءها على وجههم في مشارق الأرض ومغاربها، وأبادوا الوفود الحشمة ودموها معابدها، ثم استار الكاثوليك على مخالفتهم في المذهب يريدون إقناعهم فيقبعوا بأقطاب مصر.

وعقد أحس الأحياء قاتبة بضرورة تجريد الكنيسة من سلطتها التي أساطئ بها إلى العالم أبلغ إساءة.

وذنب الإسلام أنه فعل بالكنيسة المسيحية ما فعله المسيحيون أنفسهم بها بعد بضعة قرون!

حرمان المسيحين من الحكم:

ماذا معنى الإسلام بالمسيحية عندما اصطدم بها في ميدان القتال؟

إنه لم يحاربين كدين، بل حاربوا كدولة، وهذا ما فعله المسيحيون أنفسهم.

إنه لم يغلق أبواب الكنيسة، ولم يحرم أحداً من الدخول فيها، أو الخروج منها.

بل جرد الكنيسة من السلطة التي أوغرت صدور البشر عليها، وجعلت لا تشكر لأصلها وتخرج عن شرعها.

ولم يشرع الإسلام، كما شرع الكنيسة - قوانين لا استئصال الوثنية بالسيف، وتصير اليهود بالعنف، وإبادة الخصوم في الرأى - لولا كانوا مسيحيين - كما فعلت الكنيسة المتاخمة عندما أعلن بعضها على البعض حر فلا ترى...

بل أظهر الإسلام حرية العقل والضمير، فكان المسيحيون الذين حكمهم الكاثوليك أول من رحب بزوال الكنيسة التي طالما ذاقوا بطشها وعانوا وبلغها...

وقد رحبت مصر والشام بزوال الحكم الكاثوليكي الذي فرضته دولة الروم الشرقية على هذه البلاد.

***
فأما مصر فقد أراد "هرقل" أن يقترب منها عن مذهبها المسيحي، وأن يلزمها بتنفيذ قرار
مجمع "خلقدونية". فأجاب الأقباط ترك معتقدهم، فصب عليهم الرومان سوط عذاب، وحولت الكنائس
والأدبيات القبطية إلى سجون تخيل بألوان الأذهان.
وجيء بأخي الأسقف الأكبر "بنيامين" فوضع على منصة أوقدت تحتها المشاعر
وسلت نارا على بدنها، فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جنبيه على الأرض!
ولما لم يتزحزح عن عقيدته، خلعت أسنانه، ثم قاده الجلادون إلى الشاطئ.
وعرضوا عليه أن يترك دينه، ويخدمة لقرار الجمع، فأجاب، فرموا به في البحر وابتلعته
أمواج اليم. .
فلما طرد المسلمون الروم من مصر، تنفس الأقباط الصغاء.1) 
أيما كان عجبًا أن يعاونوا العرب الفاتحين على الخلاص من سطوة حكم غاشم،
وأن يتطوروا إلى المسلمين كمنتقدين لهم من هذا العذاب الأليم.
فإن المسيحيين في هذا القدر الخصب أصابهم من استنزاف الرومان خياراتهم،
واضطهادهم لذبحهم ما جعلهم ناقمين على الدولة، متمنين من أعماق قلوبهم أن
يسقط لؤلؤها.
ولم يستطع المؤلف المفترى على الإسلام أن يغيب من هذه الحقيقة فهو يقول في
صف 18: «لا نغالي إذ قلنا إن توطيد السيادة العربية مكان السيادة البيزنطية.
أدخل على نفس مسيحي الشرق بادرة من الأمل.
فقد كتب "ميخائيل" السوري بطريرك أنطاكية يقول: "إن راب الانتقام استقدم
من المناطق الجنوبية أبناء إسماعيل، وينقذنا بواسطة من آيدي الرومانين.
وإذا تكبدنا بعض الخسائر لأن الكنائس التي انتزعت منها وأعطيت لأنصار
مجمع "خلقدونية" بقيت لهم، إلا أننا قد أصابنا خير ليس بالقليل، بحرورنا من
مسوة الرومان وشرورهم، ومن غضبهم وحفيظتهم علينا. هذا من جهة، ومن جهة
أخرى سات السماوات بيننا».2) 
1) لقد هرب "بنيامين من بطش الرومان طيلة 20 سنة نساء أهل ملته، وناءتها فيها تعاليمه. ولم يظهر إلا
عند فتح عمرو بن العاص لمصر.
وهذا البطريرك يعقوب، وهو هنا يستبشر بعهد الحرية الدينية التي صحبته دخول المسلمين، ويأتي لما أصاب مذهبه من خسائر على عهد الروم.

ولا ينسى الكنيسة التي انتزعته منهم وأعطيت خصومهم في هذا العهد المشعوم. والمسلمون لم يفكروا في نبش هذا الماضي، ولم يحاولوا التدخل في إما بين المسيحيين من خلاف.

إلا أنهم احترموا رغبة المسيحيين في ألا يجاهروا ببيت المقدس يهود.

ولم يروا في هذا ظلمًا للمجود.

وحسب اليهود في ظلال الحكم الجديد أن أمنوا على عقيدتهم ما بقوا مسلمين لغيرهم.

وكان آخر ما نزل بهم قبل الحكم الإسلامي في الشام الأمر الذي أصدره الإمبراطور هرقل: "... بنعمك جميع اليهود والسامريين الذين يقطنون مختلف الولايات الخاضعة له" (!).

ومثل هذا الأمر مألف في تاريخ الكنيسة قديمًا.

وقد انقطع بزوال حكمها في الشرق.

وبقي في "أوروبا" حتى هدم المسيحيون بأنفسهم الحكم الكنسي في العصر الأخير.

****

قام الحكم الإسلامي على تسامح واسع النطاق، وستنابع سير الفتوى لنرى مصداق هذا من وقائع التاريخ.

وقبل هذه النقلة تريد أن نقرر حقيقة أخرى.

وهي أن هذا التسامح في منح الحرية الدينية لم يظهر به الغرب إلا بعد قرون متطاولة وتضحيات فادحة.
ولو قدر للمسيحيين في الغرب أن يخلصوا من حكم الكنيسة كما تخلص إخوانهم في الشرق لنجوا من مأس جمة، ولكن تأريخ "أوروبا" أنظف ما هو عليه الآن.
على أن التسامح الذي ساد دول أوروبا، بدأ ناقصًا، وانتهى مشوهاً، وأشرفته عليه نوايا مدغشقة.
ولكنه على كل حال، أقل شرًا من حكم الكنيسة المباشر.
ولم تستطع دول الغرب الخلاص من أغلال الكهنوت، والفرح من مأزقه الكريهة إلا بعد مراحل متطاولة، كان النزاع فيها حادًا بين شعوب تنشد الانطلاق، وكيان مردوا على السيطرة والتزمن.

**

ومؤرخ المسلم أن يلاحظ تبريهم المسيحيين بعقيدة التوحيد، حتى في العصور التي بدأت تجارب الت الاست.
ففي إنجلترا، مثلًا - حاول أتباع الكنيسة المسيحية سنة 1648 استصدار قرار من البرلمان بإعدام كل من يشتر يترعاض مع عقيدة التبثية والتجسيد!!
وفي سنة 1688 أصدر البرلمان الإنجليز قانون الحقوق وهو ينص على جعل البروتستانتية دينًا رسميًا لإنجلترا، ويحرم على الكاثوليك القيام بعبادتهم في البلاد الإنجليزية !!!
وفي السنة نفسها صدر قانون التسامح وهو يعطي الحرية الدينية بعض العقائد.
ويتصول على حرمان الكاثوليك والموحدين هذه الحرية التي استمتع غيرهم بنيلها !!!
وقد ظفر الموحدون بعد فترة طويلة بحرية العبادة. ويوجد إلى عصرنا هذا جمهور كبير من الأوروبيين يعتقدون أن "عيسى" عليه السلام لا يعدو أن يكون بشراً نبيلاً ومصلحاً كريباً، وأن لوهيمه المزعوم وهم مغرق في الاستحالة.
غير أن هؤلاء الموحدون أوزع لا تضمنهم روابط قوية، ولن يستطيعوا في وسط العالم المسيحى السادر أن يتحولوا إلى قوة هادية موجهة.
وقد قرأنا الكلمات التي فاه بها فريق من رجالات ألمانيا قبل وفاتهم فرأيناها تنضح
بهذه الحقيقة.

* * *

لكن القدر الساهر على إصلاح الأرض، وفي سبيل هذا الإصلاح يدفع الناس
بعضهم ببعض لم يدغ هذا المذهب المضطهديه يوم، ولكن ظل مطارداً في أرجاء الملك
السيحية قربًا بعد قرون.

فقد شاء الله أن تجدد حياة الرسالة الخاتمة التي جاء بها محمد ﷺ، وأن يحوطه
بسباحة مين تنكسر حوله أمواج العدوان!!.

وهكذا عاد مبدأ التوحيد الذي نزل به آدم من السماء إلى الأرض.

وحمل ألوهته: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى.

عاد هذا المبدأ إلى حياه وفاته بعدما أوضكت أن الذبول والتلاشي تحت وطأة
السيحية الرومانية الشاردة عن أصولها الصحيحة.

أما هذه السياحة الثلاثية المتاحة المنصوبة فقد لقيت مصيرها في أوروبا نفسها،
لقيته منذ بدأت النزعة إلى تحكيم العقل تسيطر على التفكير الغربي.
فجهرت السياحة من سلطتها التنفيذية كما يجرد المعتدى من سلاحه.

وظفت الجماهير المروعة بالأمان الذي ظفر به إخوئهم من قبل يوم حرب الإسلام
مصر والشام وغيرهما من نهر الكنيسة وحمق الكهان...!!

* * *
أسلوب التوسع والمعاملة
في تاريخ الديانتين
تلك نبذة بسيطة عن الأساليب التي عاشت بها المسيحية بعد وفاة رسولها.

هو أساليب لا يجوز منصف على تبريأ أو تبرئة رجاله.
بل إن مناخ العدوان والجبهوت تصبغه وتزري به، وتنادي بضرورة وقائية العالم
أجمع من فتكاته وغدراته ..!!

وقد عد هذا البغي من خصائص التاريخ الكنسي.
حتى أن «شرقي» اعتذر به وهو يتحدث عن تسخير الفلاحين في تشييد الأهرام،
كان القساوسة فريق من الفراعنة قال:

والشكرية عزّت وطالت .. بناءها الناس أمس مسخرنا
مشيدة لشافي العُمّي عيسى
وكم سهل القوسوس بها عيونا
فهل من عجب أن يتعهد القدر الأعلى هذه الدنيا البائسة فيبعث إليها من يأسو
جرائحها ويستنذفها من إسرار الحكام والكهان الذين توالتوا على إهانتها وإساءتها؟
«أكان للناس عجبًا أن أوجين إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين أمرنا أن نُلهم
قدم صدق، عند رهبان قالت الكافرون إن هذا لساحر مَيْمَين» (1).

إن اليهود والنصارى كذبوا هذا النبي، كما كذبه الوثينيون.
بل إن أصحاب الكتابين السابقين انضموا إلى عبادة الأصنام في مصاولة الدين
الجديد، ومحاولة القضاء عليه.

ونفذت مشيئة الله فانتشرت قوى الأخير انتصارًا قطع دابر المعتدين، وأيأسهم من
معاوية الكاد والملكر بالبلاد والعباد ..
وتم تخل الحياة ولن تخل من أبصار يتبعون الحق حين يعرفونه، ويستمسكون به
حين يذدون عنه.

إن الذي خلق الحققة علِقَمًا لم يخل من أهل الحققة جيلاً.

وقد انتشرت صدور كثيرة بالإسلام.
ثاب إلى مبادئه الراشدة من اندخوا قبلًا بعبادة الأصنام.

(1) يونس 20.
كما أن جماهير غفيرة من اليهود والنصارى رأت في هذا الدين الكريم الأصول الصحيحة للهودية والنصرانية، فآمنت بمحمد وعيسى وموسى جميعًا، واعتنقوا الإسلام عن رغبة واعتزاز.

إلا أن هناك طوائف أخرى من الوثنين واليهود والنصارى بقيت على ما ورثت، وحرصت على تخريب الإسلام ونبيه.

ولم يزدهر تثالاً الأيام إلا افتراً على الرسالة العظمى وصاحبها الأمين.

وهم بعد ألف من السنين وأربعمئة لا يزالون يتحدثون عن رواية دامية صنعها خيال رجل لا صلة له بالسماء !!!.

ما أشبه أولئك المتخلفين بقطع من العميان، كلما طلع عليهم النهر واستفاضت على الناس أضجعته بقوا في ليلهم الدائم لا يحسنون جدًا، ولا يدركون نقصانًا، ولا مزيدًا ..

أفتحوا حجاب أولئك الخرومن قادًا ففي مطلع الشمس، أو كأفس من بريقها؟ إن الأدلة التي تثبت بها نبوة محمد أرسخ - في عصرنا هذا - من الأدلة التي تثبت نبوة موسى وعيسى ..

ومن الإزراء بالعقل أن نزعم القرآن كتابًا بشريًا، وأن نطلب بعدئذ بعد الكبيرة، والإنجيل تراثًا سماويًا محضًا !!.

والمؤلف الذي تناول قصة الفتح على أنها غارة شعواء، وتعرض لأصحاب محمد من ساسة وقادة على أنهم رجال ذوو مطاعم وأهواء، من طريق، (الإسكندر) و (نابليون) وغيرهما ..

هذا المؤلف المسكون، ليس إلا مثالًا للتعصب الذميم ..

تعصب العلماء ضد الفياظب.

تعصب الكهن المشدوين ضد الديانة التي أسقطت وساطتهم ونسخت خرافتهم.

وسندرك خلطة في الكلام عن الفتح الأولي معقبين عليه بالحق المبين.

قال في ص 21: .. الواقع أن الفرس والروم كانوا ينشدون الراحة لأم الحروب التي وقعت بينهم أنهكتهم ..
قال القسيس: ... لأن أهم نقطة في الدين عمل المسيح للناس كالوسطاء بينهم وبين الله تعالى، حتى يؤكد لهم مغفرة خطاياهم ويدخلهم في حالتهم أولاد الله! فيعدنا عن سلطة الجحيم! وقولنا لحية صاحب! ومع احترام المسلمين للمسيح فإنهم لا يجدون فيه شيء من ذلك. إن اعتقادهم في المسيح أعلى جداً من عقائد الأم الأخرى، ولكن لا نقدر إلا أن نشعرهم بتلك البشارة...».

وكلام هذا البشير السكين يشير إلى أن إيمان المسلمين بالله الأحد وقيدهم في يوم الحساب لا قيمة له، لماذا؟ لأن الشيء الأول والأخير في الدين أن تعتقد بأن «عيسى» قتل فداء خطاياكم وخطايا آبائكم وأبنائكم (كذا).

فإذا قلت أبا المسلم: إن ثوابي أو عقابي ليس إلا نتيجة عادلة خطئي أو صوابي، ولا مدخل لأحد أبدًا في حسابي. قال لك هذا البشير السكين: إنك كفرت وطردت، ولا قيمة لإيمانك بالله وإجلالك عيسى بن مريم...

وأما كان الإيمان بالله واليوم الآخر هو التراتب الباقي لدى النصرانية من وحي السماء، وكانت فكرة القربان فداء الخطيئة هي العنصر الدخيل من الوثنية الأرضية كان معنوي ذلك، أن مسلك البشر النصارى يقوم على تحقيق الصلة الوحيدة التي تربطهم بالسماء، وتضخيم الخرافات الكبيرة التي تلقثهم بالضر. ولو كان لدى هؤلاء القساومة نصيب من سداد، جعلوا الإيمان بالله ركنًا قائمًا لا مسألة تافية، وجعلوا الصلب نافلة ثانيةً لا دعامة خطيرة!!

ولكن حظ الشيطان غلب. ولا أدل على غلبة حظ الشيطان من أن الكنيسة ربت أعداءها الألداء، فكان الإسلام أول أولئك الأعداء.

في سبيل القضاء عليه، حالفت المجوسية ولو كانت كفراً بالله. وفي سبيل القضاء عليه، حالفت اليهودية ولو كانت كفراً للعيسى.
فإن المسلمين أذنوا للمجوس بالبقاء على دينهم، ولم يحولوا استكراههم على إيان.

أذنوا ما صنعه المسيحيون الظافرون بالوثنية وأهلها؟ كلا!

لقد أعلنوا عليهم حرباً فذو، أي أرجاء ملكهم حتى استأصلواهم، فلمة دارت رحى الحرب بينهم وبين الفرس عجزوا - بعد مئات السنين - عن النتيجة الموقعة الرائعة التي وصلت إليها جيوش الإسلام في بضع سنين.

بل سرى في سير الفتح أن المسيحيين قد انضموا إلى الوثنيين في مقاتلة الإسلام.

والليل منه!

وإنما لأمر عجاب أن يتحالل المشركون وأتباع "الإنجيل" على مقاتلة الدين الذي يدعو إلى عبادة الله الواحد البار.

ولكنه الخفّد الأعمى، ونسيان المسيحية لأصلها السماوي وتبوعها الطارية إلى جعل الألوهة شركة، ما سوّل لأшибها أن يشعروا ضغببهم على مبدأ التوحيد، ولو حالفوا الشيطان في سبيل القضاء عليه، وتأيي الله إلا أن يتم نوره.

ولعل من بقايا هذه السخيمة المتقدة أن يجلي هذا المؤلف المسيحي فيرد انسباب الجيوش الفائقة إلى أسباب اقتصادية قائلاً:

"إن الحاجة تبرر كل عمل عدائي، وإن العرب كثيرًا ما قاموا بأعمال عدوانية بحثًا عن القوة..." ص 22.

ثم ينقل زعمًا لباحث في علم الجغرافيا يقول:

"إن مناخ الجزيرة أصيب بجفاف في القرن السابع مما دفع العرب إلى الهجرة منها ومهاجمة البلدان التي تناحموها."

ونحن لا نقف عند هذا اللغز، ولكن قبل أن ندوس ونتهى من سخفه نحب أن ننقل حوارًا جليلاً: دار بين نمر من فرسان المسلمين وبين قواد كسرى وحاشيته ليرى أول الليلين بلغ فقه الصحابة الفائتين لديهم، ومعرفتهم العميقة لأحوال الشعوب التي قدموا عليها، وأنواع الحكم الذي قرروا إسقاطها.

وليروا كذلك: بأن ضمانات نفية وأسلحة عفيفة كان حملة الإسلام يلقون خصومهم بها.
فيجب أن تكون أداة تصوغ لصر جيلاً جديداً يعرف حقوقه، وحقوق
الناس.
يميز الحبص من الطيب، والحلال من الحرام، ينذوق طعم الحياة الكرية الحافظة،
فيؤثر التمسك بها.
والذالق لا يوجد إلا في تعاليم الدين.
فالضمار لا يوقظها ولا يهدبها إلا خوف الله.
ومن المفارقات الغريبة أن نقص نصف درجة في الموسيقى أو الرسم يرسبه به
الطالب، وأن جهله بالدين كله لا يضره شيئًا.
إن ذلك جعلنا نحن أمر الشمرات، ونشاهد في ناشئتنا مظاهر التمجرد
والاستخفاف بكل فضيلة، والخروج على كل معنى كرم...

**
لكن هذه الشعارات التي يتجاوز العلماء من فشوها، هي بعض ما تجتهد أوروبا
الصليبية لإشاعته بيننا، إن الفساد الذي عرا الأخلاق، والتصرف الذي أصاب
الجماعات خبر في نظر رجال الكنيسة من إشراف الإسلام على التوجه العام لسياسة
التعليم والتنظيم!!
وإنك لتدرك حقيقة الشعور الكنسي نحو الإسلام من القصة التالية:
من عشرين عامًا وفدى قسيس مسيحي إلىقدس كيف يشتغل بالدعوة إلى
النصرانية، وبدأ هذا القسيس، واسمه (ألفريد نيلسون)... يرسل نشرًا من المفكرين
المسلمين، يناقشهم في بعض حقائق الدين! ويوزع عليهم نشرات تتضمن أفكاره!
وقد فند العلماء الذين عنا به جمع ما أورد من شبهات.
والحق أن الرجل كان محاميًا مخلصًا في الدفاع عن ديانته، وما أرزى به أمام
مجادلته إلا موضوع قضيته.

---
(1) يلاحظ في بيان الأزهر أن سياسة التعليم تنعم - ومالات - تجنب دراسة الدين دراسة جادة. فمالات
الدين بعيدًا عن الجموع، وحذفت منه المعلومات التي تربى الأجيال واستمعت لثقافة اللغة العربية على
المحور، مما أدى إلى أن يكون للشيخ صولات في التنديد بهذه السياسة. انتُكر محمد الغزالي (الحق المولى)
الجزء الرابع والخامس طبعة دار نهضة مصر.
قال رستم: ويلكم، إننا أنظر إلى الرأى والكلام والسيرة، والعرب تستخف اللباس
وتصن الأحساب.
فلما كان اليوم الثاني من نزول "رستم"، أرسل إلى "سعد" أن ابعث إليك هذا الرجل! فأرسل إليه "حذيفة بن محصن الغطفاني"! فلم يختلف عن "ربعي" في العمل والإجابة.

قال له رستم: ما عدد بالأول علينا؟
قال: "أميرنا يعدل بيننا في الشدة والرخاء، وهذه نوبتي".

قال له رستم: والموافقة إلى متى؟
قال: إلى ثلاث من أمس!!
وفي اليوم الثالث، أرسل إلى "سعد": أن ابعث إليكم رجلاً. فأرسل إليه "المغيرة بن شعبان" فتوجه إليه، ولا كان بحضروته جلس معه على سريره.
فأتقبل إليه الأعوان يجذبونه، فقال لهم:
"قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قومًا أسحق منكم.
إذا معاشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضًا!!.. إلا أن يكون محاربًا لصاحبه-.
فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى...
وكان أحصن من الذي صنعت أن تخرون أن بعضكم أرباب بعض!! وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم.
وإني لم أنكم، ولكنكم دعوتوني، اليوم علمت أنكم مغلوبون.
وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول.
فقالت السوقة: صدق والله العربي!!
وقالت الدهاقين- الزعماء- لقد رمي بكلام لا تزال عبيدنا تنزع إليه، قاتل الله سابقينا حيث كانوا يصرون أمر هذه الأمة.
ثم تكلم "رستم" بكلام عظم فيه شأن الفرس وصغر شأن العرب، وذكر ما كانوا عليه من سوء الحال وضيق العيش.

فقال المغيرة: أما الذي وصفنا به من سوء الحال، والضيق والاختلاف، فنعرفه
إذ الكنيسة تعلم أنه في سوق التنافس الحر بين الأفكار والأديان لن تلقى بضاعتها رواجًا.
فهي تلجأ إلى وسائل الدس أو العنف لتركز السلاع الأخرى من السوق، وتمنعها من التداول.
المهم أن الحضارة المادية الحاكمة في الغرب والكنيسة المسيحية الحكومة هناك قد اتفقت مصالحهما في القضاء على الإسلام وإطالة حاضره ومستقبله.
أثناهما رأنا الطرق المتللى لتحقيق ما يريهما هي إفساد التعليم بإقصاء الدين عنه.
وبذلك ينخر الوزير الكبير والضابط الكبير والطبيب الكبير والمهندس الكبير... إلخ.
وكل أحد منهم لا يفهم من دينه حقًا، بل لعله يعرف عن دينه ما يجهله فيه.
وبذلك يتم الارتداد عن الإسلام في صمت وأمان..!!
ويصل الصليبيون الجدد إلى ما عجز أجدادهم عن الاقتراب منه في العصور الوسطى بعد حرب دامت أجيالًا!!
وقد شعر المسلمون الخلفون بخطورة المصير المورسب لديهم، فهبوا يصرخون مهذرين من عواقبه حتى بحت أصواتهم وليس من مجيب!!
وآخر ما قرأناه في ذلك نداء وجهته جهتة علماء الأزهر إلى رئيس مجلس الوزراء قالت فيه:
«إن الشعب المصري من أقوم الشعوب علمًا بشريعة الإسلام، وتسكًا بأحكامه، وآدابه، وحفظًا لكتابه وسننه».
وكان لتعليم الدين المكان الأول في مدارسه. لأنه عرف أن طلب العلم الدينى فريضة على كل مسلم وムسلم.
وبهذا حافظ المصريون على شعائرهم وتقاليده وأقاموا أحكامه وحدوده، فعززوا وتزعموا غيرهم من الأم.
وأما "الملغيرة" فقد أوغر صدور العامة على كرائها. وقال:
«إنا - معشر العرب - لا يستعد بعضنا بعضاً».
ثم رماهم بهذه الكلمة الخطيرة:
"ظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسي!
فلما وثب إلى جوار القائد المستعين على سريره، كانت وثبه تلك إيماءة ذكية إلى
أن الإسلام يرفع المستضعفين إلى مصاف السادة.
وسواء أكان توافق المفاوضين العرب في آرائهم عوقًا أو عمدًا، فهو بيان حاسم عن
طبيعة المبادئ التي يحملها الفلاحون . .
أي عار في هذه المبادئ؟
إنها - والله - لوط لم تكن دينًا للكائن في حياة الأمة نظامًا حسناً.
فماذا ينقض الكاتب الصليبي على هذه الفتوح؟
إن يزعم في ص ٢٢ أن أسباب الفتح الإسلامي لم تكن دينية فحسب، بعد أن
يزعم أن الجدب والبحث عن القوت حما اللذين اضطر العرب للغارة على الأم المجاورة!
لكن كان جوع العرب هو الذي حملهم على التظافر في الأرض بهذه المبادئ
الراجعة فإنه جوع يفضل شبع المبطونين من رجال الكهنوت الذين مهدوا للإفادة في
العالم كله بتحجر موانعهم وسقم أفكارهم.
أم إنه الحقد الذي يغشي على البصائر والأبصر؟
"فَلِيَأْهَلُ الْكُتُبِ هَلْ تَنْقَمُونَ مَا إِلَّا أَنَّمَا بَيْلَهُ وَمَا أَنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلْ مِنْ قَبْلِ
وَإِنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ" (١).

* * *

هذه محاورة أخرى بين "كسرى" نفسه وبين وفد آخر من مفاوضي العرب سبقت
الخواجة الأولى.
فقد أرسل "سعد" دعوة إلى "يزدجرد" منهم "النعمان بن مقرن" و"قيس بن زرارة"ور"الأشعث بن قيس و"فرات بن حبان". إلخ.
فلما وصلوا المدافعين أدخلوا على "يزدجرد" فسألهم بواسطة ترجمانه:

(1) المائدة : ٥٩.
وليس أدل على ذلك من أن بطريرك المارون (أنطون عريضة) والمطران (غناطيوس مبارك) كانا حريباً على الجامعة العربية لتوهمهم أنها مقدمة جامعة إسلامية! وكانا عوناً على عرب فلسطين مع اليهود لأنه حسبه إلى قلوبهم أن يكون اليهود مواطنين، وأن يكون المسلمون مشردين!

وذلك شكرًا اليد التي قدمها الإسلام في العصور الوسطى يوم كان قادرًا على إقناع هذه الطوائف ثم تنزه على الإساءة إليها، أو سلبها حرية عبادتها.

لأنه لا إكراه في الدين!

* * *

لقد شعر الدعاء إلى النصارائية أن إدخال المسلمين في دينهم مستحيل.

فماذا يصنعون لهدم الإسلام الذي يقتنوه أشد المقت؟

قرروا أن يفسدوا أبناءه بتسليط الشهوات عليهم وإشاعة الإخاء الأعمى عليهم.

استلم رئيس مدرسة تبشيرية في فلسطين: كم نكرت من أبناء المسلمين؟

فكتب إلى سادته الذين أرسلوه، لا تسألوني: كم مسلمًا نكرته؟ ولكن سلوني: كم معولًا صنعته من هؤلاء الأبناء لهدم الإسلام نفسه!!

ومناهج الدراسة التي تخرج اليوم أبناء الإسلام مفروض فيها أن يقطع صلتهم بدينهم فلا يتعلمون منه حكمًا ولا يزودون منه على فضيلة.

وذلك تشب الأجيال الجديدة غريبة عن الإسلام بل عدوًا لتقاليده وشرائه.

فإذا كانت هذه الناشئة المقطوعة عن دينها هي التي تلي الوظائف الصغرى، والمناصب الكبرى فلن ينتظر منها إلا أن تصنع بديئتها المروعة مثل أو أشد ما يصنع به خصومه الناقمون عليه.

وذلك ما يتلخ صدور الصليبيين في حملتهم الحديثة على الإسلام.

إن الخضارة المادية الأخيرة تهاجم مبدأ الإيمان بالله واليوم الآخر.
فقام قيس بن زرارة فقال:

أما ما ذكرت من سوء الحال فكما وصفت أو أشد.
ثم ذكر من عيش العرب ورحمة الله بهم بإرسال النبي مثل مقالة (النعمان).
ثم قال: - احتر، إما الجزية عن يد وأنت صاغر، أو السيف، وإلا فنج نفسك.
بالإسلام.

فقال (يزدجرد): لولا أن الرسول لا تقتل لقتلكم، لا شيء لكم عندي.
ثم استدعى بوفر من تراب، وقال لقومه احملوه على أشرف هؤلاء، ثم سقوه حتى
يخرج من باب المدائين.
فقام (عاصم بن عمرو) وقال: أنا أشرفهم! وأخذ التراب فحمله وخرج إلى راحلته
فركها، ونا وصل إلى (سعد) قال له: أبشر، فوأله للد أطعنا الله مقاليد دلههم!.
ثم إن (رستم) خرج بجيشه الهائل مائة ألف أو يزيدون من (ساباط).
فلما مر على (كويش) لقيه رجل من العرب، فقال له (رستم):
ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون منا؟
قال العربى: جننا نطلب موعود الله بملك أرضكم وأبنائكم إن أببتم أن تسلموا.
قال رستم: فإن قتلتهم قبل ذلك؟
قال: من قتل منا دخل الجنة، ومن بقي منجز الله وعده! فنحن على يقين.
قال (رستم): قد وضعنا إذن في أبيكم!.
قال العربى: أعمالكم وضعتكم، فأسلمكم الله بها، فلا يفزع ما ترى حولك.
إبنك لست تجادل الإنس وإنا نجادل القدر.
فغضب منه (رستم) وقتله.
فلما مر بجيشه على (البرس) غصوا أبناء أهله وأموالهم وشدو الحور، ووقعوا على النساء.
فشك أهل (البرس) إلى (رستم) فقال لقومه:
والله لقد صد مقربى! والله ما أسلمنا إلا أعمالنا، والله إن العرب مع هؤلاء
وهم لهم حرب - أحسن سيرة منكم...
ولكن لماذا نعترض؟
إن المسلمين أطباء لأنهم لم يرتفعوا إلى المستوى الذي يفهمون فيه كيف أن الثلاثة واحد.
وهم أطباء. كذلك. لأنهم لا يريدون أن يفهموا كيف يقتل امرؤ بخطايا آخرين.
وهم أشد غباء لأنهم لا يفهمون من الآيات السابقة في نشيد سليمان أنها دعوة إلى الأدب العالي وتهذيب للشهوة الحيوانية الطاغية!!
لست أشك في أن الآلاف المؤلفة من المسيحيين لم يقرأوا هذه الآيات المتنازعه!!
إنهم ورثوا الدين كما يرت المرء لقب أسرته.
فهو يتتعصب له لأنه لقب أسرته فحسب.
ومن يدرى؟ ربما كنت كذلك لو لم نستمع إلى القرآن الكريم ونتعرف الحق من نصوصه التي لا يرقي إليها شك.
ومن خلال الوحي الغني الذي نتلوه ونتدبره عرفنا أن الله واحد.
وأن كل أمير رهن با كسب.
وأن الرسل جميعًا متفقون على تعليم البشر هذه الحقائق السهلة.
وأن هؤلاء المسلمين كانوا معلمين أخبارًا، وكانوا جميعًا على طراز عالم من الخلق الزكى والملوك الطهور...
وعرفنا أيضًا من قرآنا أن النصرانية الأصيلة لم تخترق قط عن هذا النطاق الواضح،
وكذلك اليهودية.
لكن طوارئ الفساد التي غلبت على ترات موسى وعيسى أثابت للوثنية الأولى أن تفرض نفسها على تعاليم الديانتين.
وأبرز مظاهر الوثنية، هو تعدد الآلهة، وتقدم القربان كفارة الخطايا، وإسقاط كرامة الأنباء جميعًا حتى لا تكون بهم أسوة حسنة.
وقد جعل دوم عمسي بن مريم مشتركًا في هذه النواحي كلهام.
فهو إله مع الله، وهو قربان تكفر به الذنوب.
والنبرنوا في كفاحهم - للملوك الدواليين الباطشتين بالعالم يومئذ - حدودًا من الحق والعرفة والاستقامة لا تعرف أبدًا إلا في موارث النبوات التابعة من السماء.

وكان المسلمون في هذه المعارك جميعًا أقل من أعدادهم عددًا وعدة.

بيد أن إيانهم الدافع وحماهم البالغ وسباقهم الفج إلى موارد المنايا، يطلبون الاشتهراء ويفرحون بنيله أشد ما يفرحون بالعودة إلى الوطن والأهل.

ذلك كله صنع المعجزة التي لم يعرف تاريخ الأرض مثيلاً لها.

ألم يعجز «الرومي» أن يهزموا «الفارس» في قرون طوال مع بسطة المال والرجال؟ ولكن «الرومي» و«الفارس» جميعًا هزموا في سنين معدودات أمام القبائل التي وحد الإسلام صفوفها وغرس الحق في أفتيتها.

ذلك أن الأمر كما قال العربي لرستم: إنك لا تجادل الإنسان، وإنك تجادل القدر.

والقضاء النازل لا يدفعه الخلق، مجتمعين ولا مفترقين.

وانتشار الإسلام في الأرض وانهدام معاقل الطليان أمام مذه العريض يتمشى مع سنن التطور التي تفسح الطريق لنظام حسن بعد أن تخليه من نظام سيء.

وقد ألحق «رستم» إلى هذه الحقيقة وهو يقول للنفسة من ولادة الفرس - لما اعتقدوا على الجمهور: والله إن العرب مع هؤلاء - وهم لهم حرب - أحسن سيرة منكم.

والواقع أن أسلافنا من المسلمين الفائتين لم يرثوا الأرض إلا وهم لقيادتها أهل، وكانت مصلحة العالم أجمع، في انتقال هذا القياد إلى أيديهم اللبقة، بعدما لعبت به الروم والفارس.

ولن يعود هذا الزمام الضائع إلى أيديهم إلا يوم يكونون أرجن في موازين الصلاحية العامة من غيرهم، مصداق قول الله في كتابه:

ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصاحبون(1).

(1) الأبياء: 105.
استدوني بأفراح الزبيب، أنغوشني بالتفاح فإنني مريضة حباً.
شماله تحت رأسي وعينه تعانقني.
أحلفكن يا بات أورشليم بالظباء، وبأيائل الحقول ألا تيقظن ولا تلبسن الحبيب
حتى يشاء.

هوذا وافق وراء عائلاً يتعلق من الكوى، يوصوص من الشبابيك.
أجاب حبيبي وقال لي: قومي يا حبيتي، يا جميلتي وعالي.
في الليل على فراشتي طلبت من تعبه نفسي، طلبت فما وجدته إني أقوم
وأطوف في المدينة في الأسواق وفي الشوارع أطلب من تعبه نفسي.
طلبت فما وجدته وجدني الحرس الطرائف في المدينة فقتلت: أرأيت من تعبه
نفسي؟
فما جاورتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تعبه نفسي فأمسكته ولم أرخه حتى
أدخلته بيت أمي وحجرة من حبلت بى. أحلفكن يا بات أورشليم بالظباء
وبأيائل الحقول ألا تيقظن ولا تلبسن الحبيب حتى يشاء.

ها أنت جميلة يا حبيتي عيناك حمانتان من تحت نفاسك. شفتاك كسلكة من
القرمز. وفكك حلو. خذك كلفالقة رمانة تحت نفاسك. ثدياك كحشافة ظبية. كلاك
جميل ياحبيبي ليس فيك عيب. هنلك معي من لبنان يا عروس معي من لبنان.
قد سبنت قلبى يا أختي العروس كمحبتك أطيب من الحمار. وكين رائحة
أدهانك أطيب من كل الأطباب. شفتاك يا عروس تقطران شهدًا.
تحت لسانك عسل وبن ورائحة ثيابك كرائحة لبنان. ليأت حبيبي إلى جنته
ويأكل نهره النفيس.
كلوا أيها الأصحاب واشربو، واشكرموا أيها الأحياء. أنا نائمة وقلبي
مستيقظ وصوت حبيبي زارعًا. افتحي يا أختي يا حبيتي يا حمانتى.
وقد خلعت ثوبى ألبسه وقد غسلت رجلى فكيف أوسخهما. حبيبي مد
يده من الكوة فأتت عليه أحسائي.
حبيبي أبيض وأحمر. قصصه مسترseconds حالة كالغراب. خداه كخميلة
ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسن الحسن، وفَقَح القبيح كله.

وقد تساءل: فما هذه الجزية التي طلبتها الفاتحين؟

أهي ثمن منحهم حريتهم الدينية؟

تقول: إنها ليست ثمن شيء من ذلك!

ولو أن ألوًا مؤلفة من البشر تنتَ أن تدفع هذا الثمن للمسيحية الحاكمة في روما والقسطنطينية وتظفر - بعد دفعه - بحريتها الدينية.

ولكن رجال الكنيسة رفضوا، فإما الموت، وإما الدخول في المسيحية.

إذا الكنيسة لم تختر اليهود والوثنيين في أنحاء العالم إلا بين شيشين، فإنما التنصر وإما الفناء.

بل إن المذاهب المسيحية المشتقة لم تعرف هذا التخلي في علاقاتها فوقعت المذابح البشعة بين الأشياع المعتصمين.

وكم كانت الأقليات الدينية في الشرق والغرب تتمى لو ظفرت بالأمان على أموالها ودمائها لقاء درهمات تدفعها.

ومع ذلك عز عنها هذا الأمل البعيد.

أما الإسلام فقد أوضح - على لسان مثليه من القادة الفاتحين - أن هذه الجزية في مقابل دفع المسلمين أنفسهم عن الأم التي دخلت في ذمتهم.

وذلك يعني قول «النعمان» لكسرى: «إني بذلتم الجراء قبلنا منكم ومنعناكم».

ومن الظلم أن يتولى المسلمون وحدهم نققات جيش يقوم بالدفاع عنهم وعن غيرهم.

وقد تقول: فليّم لا يترك المسلمون هؤلاء يعدون من القوة ما يستغلون به في حماية أنفسهم؟
إنهم يعبدون الله تبعًا ذهنيًا، وليس لديهم من علامات أو وسائل خارج النفس.
وهم يرون في احتفالات النصارى ضرورة من الوثنية.
وهم وإن سموا أرباب الإنجيل أهل كتاب - لا يجعلونهم في الرتبة التي تلى المسلمين.

بل ربما مقوتوهم لأنهم غيروا ما أنزل الله عليهم من الدين!!
ونحن ننذهم مرة أخرى إلى أن الكاتب مسيحي فرنسي، وأنه يقول هذا في صدد التحدث عما تعانيه فرنسا من صعوبة في تنصير الجزائريين.

ولعلك تفهم بعدئذ بقية كلامه حين يقول:

. إن أعظم عامل في انتشار الإسلام - خصوصاً بين الزنوج - هو بساطة مذهبه وسذاجة تعاليمه، كما يبدو ذلك جلياً في آيات القرآن.

فهو أكثر ملاءمة لطبائع الهمج الذين لم يعرفوا دينًا من قبل (كذا).

وكلما وجد الرجل الجاهل دينين مerging في تقريرهما لوحدانية الله وخلود الروح، كالإسلام والنصرانية تراه يختار الدين الذي لا يزيد شيئًا عن هاتين الحقيقتين، فيعتنق الإسلام لا محالة.

وهذه مزية يفضل بها الإسلام غيره في حسن التفقى وسرعة الانتشار، وهي مزية عرفته من القرن السابع عشر.

قال الفال قِس يُمَاراشِي في كتابه (الرد على القرآن):

. ولا يغيب عن ذهن القارئ أن هذه الطائفة الشريرة، أو المجردة، أو ما تشاء لها من أسامة - يعني المسلمين - لا تزال حافظة لكل ما في النصرانية من أمور ظاهرة الوضوح قريبة التصديق، يضاف إليها ما يوافق نظام الكون والقانون نشأة الدنيا.

وقد أبعد الإسلام عنه أحاديث الإنجيل التي تخالها أول الأمر غير صحية، أو بعيدة عن المعقول، كما أنه جرد تعاليمه من كل قاعدة يشد بها الخناق على البشر.

وبدلك أزاح من طريقه العقبتين اللتين يحس الواحد منها أنهما الحاجز بينه وبين الدين الحق (يعني النصرانية).
الإسلام وحرب الأجناس:

لم يعرف الإسلام حرب الأجناس، ولا ينبغي أن تنسب هذه الحروب الداعرة لدين ما.

فإن الله لم يفضل لونًا على لون، ولم يؤثر بكرامتهم جنسًا دون جنس.

وما يضمه الأقوام لأنفسهم من ميزات هو دعاء يسندن التبادل والظفر، لا الحق والبرهان.

وقد استطاع العرب - برحمة الله وتأييده - أن يهيمنوا على العالم كله، وأن يكونوا
dولة الأولى فيه.

ور بما جاء من أعقابهم من افتراء بديه أو اعتز بعنصره - وهو في ذلك دعي مغرور -

ولكن الإسلام نفسه ورجاله الأولين كانوا أبعد أهل الأرض عن اقتراح هذا المنكر.

بل قد رأينا كسرى "يزدجرد" يقول لوفد العرب:

إني لا أعلم أمة في الأرض كانت أشقة، ولا أقل عدًا، ولا أسوأ ذات بين منكم

فما يجعله أحد منهم بكلمة ينوه فيها بالدم العربي، ويرد اتهامات العاهل الفارسي.

وإذا كان كلام "قيس بن زرارة" له:

أما ما ذكرت من سوء الحال، فكما وصفت أو أشد.

ثم إن الإسلام هو الذي رفع شأن العرب وأعز جنبهم.

* * *

لذلك أخذتنا دهشة بالغة عندما تحدث الكاتب الصليبي في ص ٢٦ عن التفوق

العربي على الأجناس.

وقد نقل تحت هذا العنوان جملة مفتيات يجزم السنج بانفعالها! قال:

"إن الإقامة في شبه جزيرة العرب، والتقوه باللغة العربية لم يكونا كافيين

لاعتبار القاطنين فيها عبدًا إذا كانوا من المهاجرين، حتى لو كانت هجرتهم ترجع

إلى عدة قرون."
وعلم بالحادثة بعض الناس فأبلغوها إلى "ابن طولون".
فأحضر القائد والخاجب والراهب.
ثم قال للراهب: كان سبيلك - ويلك - أن تدعى عليه - أي على القائد - بثلاثة آلاف دينار، حتى أخذها لك منه، وأجعل ذلك تأديبا له ولغيره.
ثم قال للخاجب: والله لولا أنها مكرمة سارعت إليها، وجميل رغبت فيه، وقد قال الله عز وجل:

"هل جزاء الإحسان إلا الإحسان" ((1)) لعمرت بك المطيق "سجن ابن طولون".
ولكن احذر أن تحاول مثلها، ولا تستبدين بأمر تأتيه دون أن تعرفنا به، ولا تطوّعنا خبيرًا ولا سرًا ولا قصة ترفع.
فقال له الخاجب: أعلني أيها الأمير أقالك الله، فوالله لا أعود لمثلها أبدًا.
قال: فانصرف إلى موضعك!
ثم التفت "ابن طولون" إلى القائد وقال له: أفتي رزقك تقصير عن مئونتك؟
قال: لا.
قال: فأخبر عنك استحقاقك تأخيرًا يضطررك إلى ما أنتبه؟
قال: لا. قال: فبأي حال استحللت أن تأخذ من هذا البالغ الضعيف ما تقطع به قلبه، وتبكي عينه، وتفقره وأهله؟
أكل حاجة أوجب ذلك عليك، أو ضرورة دعتك إليه؟ .. المطبق!
وأمر بسجنه!
وهكذا حُبِس القائد الكبير في قبضه مظلم!

* * *
ومن قرون فقد المسلمون سباقهم الأدبى والمادي فقدانا أزرى بأمتهم الكبرى وألحق
بهم هزائم شنيعة.

(1) الرحمن: ۲۰۰.
ياغوثاه أ هل يبلغ الحقد بذوته حتى يتدللوا إلى هذا الدرك السحيخ من الإسفاف؟
من قال من مؤرخى الأولين والأخرين: 
إن صحاابة رسول الله'* كانوا ينظر إلى الأم التي دخلت في الإسلام نظرة
تنقص؟ أو أنهم كانوا يحلونهم في مراتب وضيعة؟
إن الأجناس التي دخلت في الإسلام لم تلق في وجهها أحداً يزعم أنه أولى منهم
بالله أو أحق برسوله.
كانت الأجيال المتفاوتة تدخل فيه كما تدخل الجماعير المرحة إلى حديقة عامة،
لا حظر عليها ولا بواب، ولا يفخر فيها أحد على أحد بأي ادعاء.
ولقد قال الله للزعيل الأول من أصحاب محمد - محددًا لهم مسلكهم من
المشركين الفائتين -:
فإن تابوا وأقاموا الصلاة وأتوا الزكاة فإخوانكم في الدين ونفصل الآيات لقوم
يعلمون (1).

ولم يجعل للقائمين بأمر الدعوة إلى الله منزلة معينة يستحقون بها تسمية خاصة،
بل زجهم في الغمار العام الذي يسوى بينهم وبين غيرهم تحت عنوان واحد:
وممن أحسن قولنا ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال إنني من المسلمين((2).
لا سيادة ولا تبعية، ولا مراكز أولية وأخرى ثانية، إنه من المسلمين فحسب.

وقد جرت نصوص القرآن متراكبة تؤكد هذا المبدأ.
فهدى الله العرب في إبان نزول الوحي أنهم إن لم يستقيموا على سواء الصراط،
وينهضوا بأعباء الرسالة التي وكلهم بها، فسوف يحرمهم من أفعالها ويلقي إلى غيرهم
بقاليدها.
فإذا الكل في ساحتها سواء، لا يتنازع عنصر على عنصر إلا مبدى بلائه ووفاته لهذا
الدين العام.

(1) النبوة : 11
(2) فصلت : 33.
وحماقة هؤلاء البشر لا تخف عند حدٍّ، ألم يدخل أحدهم الجامع الأزهر في العصر الأخير ليدعو فيه إلى النصرانية؟

إن ذلك ينبع عن مشاعر الوقت التي طغت على عواطف أولئك الناس؛ ففقدتهم اتزاتهم، وأركستهم في أعمال ينفر منها الصبية.

لكن الحقد لا عقل له ولا ضمير.

قال "ميشو" في تاريخ الحروب الصليبية:

".. لما استولى "عمر بن الخطاب" على بيت المقدس لم يلحظ النصارى ضرر ما، فلما استعاد النصارى قتلوا المسلمين قتلاً، وأحرقوا اليهود حرقًا!!

وقال الحير "ميشو" أيضًا:

".. ما يوسف له جداً بالنسبة إلى المسيحيين أن تأتيهم المسألة وشرف المعاملة من المسلمين ..".

قال الكونت هنري دي كاستري: "إن مبالغة المسلمين في الإحسان إلى خصومهم هي التي مهدت للثورة عليهم.

إذ أتاح للمتتبعين أن يجمعوا أمرهم على العصيّان، وأن يستغلو الفرصة للقضاء على الدولة التي منحتهم حق الحياة .. وحرية التدين.

ولو أن المسلمين عاملوا الآسيان مثل ما عامل المسيحيون الألم الساكسونية لأخلدوا إلى الإسلام واستقروا عليه”.

ثم قال الكونت المنصف:

"إن الإسلام لم ينتشر بالعنف والقوة كما يزعم المعارضون.

بل الأقرب إلى الصواب أن يقال: إن مسألة المسلمين وليد جانبهم كنا السبب في سقوط دولتهم".

***
ولا حرج من أن ننقل المحاوره كلها لما تضمنته من دلالات شتى:

"نادي جورج ليخرج إلى خالد، فخرج خالد حتى التقى به بين الصفين.
فلمما أنتم كلاهما صاحب، قال جورج: يا خالد، أصدقني ولا تكذبني، فإن الخر
لا يكتب ولا تخادعني فإن الكرم لا يخادع المسترسل.
بالي لله هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكم فلا تساه على قوم إلا
هزمتهم؟
قال: لا!
قال: فيم سيف الله؟
قال: إن الله عز وجل بث فينا نبه، فدعانا، ففرنا عنه، وتأينا عنه جميعًا، ثم
إذ بعضنا صدقته وتابعه، وبعضنا باعده وكذبه! فكانت فيمن كذبه وباءده وقاتله.
ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه.
فقال: أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين ودعا لى بالنصر،
فسميت سيف الله بذلك آنا من أشد المسلمين على المشركين.
قال: صدقتني.
ثم أعاد إليه جورج: يا خالد أخبرني! إلَّا أن تدعونى؟
قال: إلى شهادة أن لا إنه إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من
عند الله.
قال: فمن لم يجيبكم؟
قال: فالجربية، ونمنعهم - أي نحميهم - من أعدائهم.
قال: فإن لم يعطها؟
قال: تؤذى بحرب ثم نقاتله.
قال: فما منزلة الذي يدخل فيكم، ويجبكم إلي هذا الأمر اليوم؟
قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا: شريفنا ووضيعنا، وأولنا وآخرنا.
الغريب أن طلاب التطهير ومحبي الاستشهاد من أجل النصرانية لم يجدوا باباً
لإرضاء المسحي ونبل غفرانه إلا بهذه الطريقة البذيئة .
فقتل أحد عشر شخصًا في شهرين بهذه الجريمة .
مع أن القضاة كانوا يصومون آذانهم حتى لا يحكموا على أحد .
وطالما أوقعوا إلى الحجاب أن يمنعوا من الدخول أمثال أولئك السفهاء  .
وقد ندد عقلا النصارى بهذا المسlek ، ورأوه انتجارًا شائنًا .
غبر أن "أيلغوا" ورفقاءه من القساوسة الحاذقين على الإسلام حسبوا ذلك انتصارًا
لدعوتهم وتدعيمًا لكنيستهم ، وروا مخالفتهم بخيانة المسيحية ، وألحوا على رعاياهم
بضرورة سب محمد ودينه ، حتى أشاعوا الهيجار في كنائس الأندلس كلها .
فاستولى القلق على حاشية الخليفة وطلب "عبد الرحمن" الثاني الاجتماع
برؤساء القنس كي يستمتعهم فيما هو حاصل من أتباعهم؟
فسكنوا عما وقع في الماضي ، وتعهدوا بالكف عن مثله في المستقبل !
ورأى الخليفة يأبض أمام القاضي مسيحي في مثل هذه الأحوال إلا إذا رفع أمره
إليه ليست فيه بنفسه رغبة منه في حقن دماء الغربelsen من أولئك النصارى المتعصبين .
ومع هذا النبل الرائع فقد ظلت خواطر النصارى مهتاحة حتى سنة 859 .
هذه هي فننة "أيلغوا" .

* * *
إن الذين يدبرون الجريمة لا يعجزون عن تبريرها وعن تحمل الآخرين تبعتها ، وهذا
ما فعله الراهب السليم "أيلغوا" إذ سمى الفترة التي وقعت فيها هذه الأحداث "عصر
الاضطهاد في قرطبة" (أ)! .
وتبعه في هذه التسمية الوقحة بعض المؤرخين الصليبين ...
وأحب من القارئ أن يلقى بالله إلى هذه الحادثة وأمثالها .
وفرحة المسلمين بالداخل في دينهم تتوارثها العصور إلى يوم الناس هذا.

والمسلم الذي يوفق إلى هداية أمرأة حيران، يستطيع شرح صدره بالإيمان، يحس
بأنه ادركت لنفسه من السياحة عند الله ما يقر عينه ويشيع الفضائل في حياته كلها.
وكيف لا؟ وهو يستمع إلى قول النبي ﷺ: «أنا يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها».

لا جرم أن السلف الصالح خفوا إلى استقبال الأفواج الداخلة في دين الله.

وعواطف الترحيب تهتز جوانحهم.

حتى إذا مضت الأيام على استقراءهم في الديانة التي أثرواها، أضحى السابق
واللاحق شركاء متساوين في حمل معارمها ومعاقتها.

فإن يكن موضع الملاحظة من القبيل الذي أشار إليه الكاتب الصليبي آنفًا فإن
المؤرخ المنصف لن يفوته أبدًا تسجيل المزايا التي حصلت عليها الشعوب الداخلة في
الإسلام على حساب العرب أنفسهم.

ذلك أن خلو الدين من تفضيل جنس على جنس، وتسویته الطلقة بين من اعتنقوه
كافة، سمم للعديد والروم والترك وسائر الموالى أن يزعموا العرب بالمناكب في ميادين
النشاط العلمي والأدبي والفنى، وأن ينتظروا القيادة منهم في هذه الأفاق الخصبة.

فلم يقض خمسون سنة على ظهور الإسلام حتى كانت الكثرة الساحقة من فقهاء
الأمصار الكبرى رجالاً من الأعاجم وغيرهم، وصولا إلى أماكن الصدارة دون أن يجدوا
أمامهم عائلاً...

وإتنا للنلقى نظرية على تاريخ الإسلام الطويل، فنجد أن علوم الشرعية من تفسير
وسنّة وتشريع، بل علوم اللغة العربية نفسها، قد بلغت ثامناً واعتلت قمتها على
أيدي رجال لا ينتمون للعروبة إلا بصلة التجنس.

ولولا الإسلام وما بثه في النفوس والجماعات من سماحة مشكورة ما حدث هذا

قط.
ونحن لا يخفى عجبنا من سفاهة الأمويين في هذا السلك، فقبح الله صنيعهم!
كيف يصدون عن الإسلام من تنشرح صدورهم به حرصًا على درهمات ينقفونها في
ملذاتهم؟
إن هذا إن دل على شيء فعلى مبلغ ما عانى هذا الدين الكريم من سفاة ملوكه
الأولين وحكامه المستبدين ..
ثم تحدث الكونت عن الحكم الإسلامي في الأندلس، فأبان تسامح المسلمين
العظيم مع الأسبان، كيف حانوهم حتى صاروا في ظلهم أهناً عيشًا ما كانوا عليه
أيام خضوعهم لحكامهم القدماء من "الجريمان".
يقول "دورس" : إن الدولة الإسلامية أبقيت السكان المسيحيين على دينهم وشرعهم
وقضائدهم، وقلدوهم بعض الوظائف.
حتى أن أحدهم تولى قيادة الجيوش مثل "سيد".
ونتج عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأسبان إلى المسلمين، وحصل
بينهم تزاوج كثير، واندماج ظاهر.
فكان القسس يلومون النصارى على هذا الانعطاف و侦ضونهم على العودة إلى
أحضان الكنيسة ..
وأما وقع الاستهداف الأوروبي على اليهود، فعلى هؤلاء المتكونين إلى الأندلس، وجدوا
في رحابها الأمان والسعة !!.
لكن الملك "كارلوس" لما دخل "سراقسطا" أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود
ومساجد المسلمين .. !!
ونحن نعلم أن النصارى ما دخلوا بلداً في إبان الحروب الصليبية إلا أعملوا السيف
في يهودها ومسلميها على سواء .. !!
وإذا كان الجنس اليهودي قد بقي في العالم إلى الآن فإن مرذ ذلك إلى قيام الدولة
الإسلامية في العصور الوسطى ..
ولو بقي النصارى يملكون السيطرة على العالم لقضوا على اليهود قضاء مبرمًا ..
وبذلك استطاعت الأجناس الداخلية في الإسلام أن تجمع بين السيادتين العلمية والسياسية.

**

إنه منذ كون الإنجيلز "إمبراطوريتهم" ما تحول الحكم عن جنس معين ولا انتقل من عاصمة معينة.

أما الدولة التي أقامها الإسلام، فما أكثر الأجناس التي امتلكتها!

وما أكثر العواصم التي انتقلت فيها بين الشرق والغرب!

ذلك أن الإسلام - كالعلم - لا وطن له، وليس له مستقر يأزر إليه إلا القلب الإنساني الكريم.

قبل نستطيع القول بأن عدالة الإسلام المطلقة في المساواة بين الأجناس ومحق الفوارق الخاصة، فقد استغلت ضده استغلالاً قبيحًا.

فقد تطلعت إلى حكم المسلمين جميعاً عنصر من الأتراك والأعجام وأهية الصلة بالعروبة، مع أن الرسول في لغة العرب ضرورة لأبد منها لفهم الدين قبل الحكم به.

ومن ثم قامت دول إسلامية قوية من الأتراك، لم تخس سياسة رعايائها، ولا سياسة الأجانب عنها، فألحقت بالدين وأهله أضرارًا فادحة.

أنتظر أن العرب يتحولون إلى رعية في ميدان العلم، ثم إلى رعية في ميدان الحكم، لو أن أسلوبهم في أيام الفتوح كان قائماً على إهانة الأم المغلوبة، ووضع أبنائها في مراكز نذير؟

إن العرب الأوائل أدوا رسالتهم على نحو لم يعرف التاريخ - ولن يعرف - مثيلاً له في نزاهته وترعه.

وإذا ذكر الصحابة الأ熢اج الذين حرووا الأم من إسăr "كسرى" و"قيصر"، فلنذكر رجلاً أثروا الموت على الحياة، وأثروا ما عند الله على متباع الدنيا.

إنهما فطر من طراز لا تعطف دنيانا الغامضة بالطامع والأهواء، ولا يستطيع أن يفقه سموها كتاب ملوثون وباحرون مغرضون.
ومن سبب آخر لانتشار الإسلام وامتداد سلطاته وإقبال الجمهور على اعتنائه؟
ذلكم هو استبداد الرومان الذي بلغ منتهى العسف.
لقد وصل جور الحكم إلى درجة أزهقت النفوس.
فلما جاء الإسلام تراوحوا إليه هربًا من الضرائب الفادحة والضياع والأموال.
فكلما أسُلمت عشيرة رفعت عنها أفق المغازل التي بليت بها وردًا إلى حقيها المسلوب.
وذلك أمنوا في ظل الدين الجديد ولم يتعرض أحد لعاقبته.
ثم يفرق الإسلام بين أصول في الكنيسة أو منشق عليها، يعني الكاثوليك والأرثوذكس.
سمي هؤلاء جميعًا ذميين، ومن الخطأ الفاحش استعمال لفظة «ذمي» في
معنى الخسارة والهوان لأن معناها الحق «مؤمن...»

ثم قال الكونت «هنري دى كاستري»:
إن الدولة الإسلامية لما استقرت في الشرق لم تعرض المسيحية أو تضع أمام بنية عائقة.
فظلت «روما» حرة في مسائلتها مع الأساقفة المغاربة لحكم المسلمين.
وفي سنة 501م. كتب «البابا ليون» التاسع إلى نصارى إفريقية توصية باعتبار
أسقف فرتاجنة مطرانًا عامًا.
وكان الوئام مستحكمًا بين المسلمين والنصارى.
حتى إن البابا «غريغوريوس» السابع كتب يلومهم على محاكمة مع أسقفهم أمام
المسلمين سنة 573م.
ومع التسامح المطلق الذي أبداه المسلمون مع النصارى فقد ضعفت جدًا حتى زالت
من شمال إفريقية.
ولذكر أن الإسلام لم يكن له موظفين مختصون بالدعوة إليه والتبشير بمبادئه.
ولو كان له أناس قائمون بهذه الوظيفة لسهل علينا تفسير امتداده وانكماشها.
إنهم اضموا - بعواطفهم - أول الأمر إلى عبادة الأصنام!
فلما رأوا كفة الإسلام توسك أن ترجح، اضموا بأنفسهم إلى الجانب المناوئ
لللدين الجديد، دين التوحيد والأحوة!!
ود غير المسلمين موقفهم بعيدًا لما طرأ على معسكر خصومهم من تغيرات.
فقبل أن ينضموا اليهود إلى جانب الوثنيين، كان القرآن يوصي بالصفح عن أذاهم:
(١) «ود كثير من أهل الكتاب لو بردونكم من بعد إياكم كتابا كتبناهما بعد أنفسهم من بعد ما ببئن لهم الحق فاعفوا وأصلحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير!»
على حين يقول في السورة نفسها قاصداً عباد الأصنام:
(٢) «واقلوه حيث تفتموه وأخرجوه من حيث أخرجوك والفتة آشد من القتل ولا تقاتلوا عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين».
فلما انحرز اليهود إلى المشركين في معركة الأحزاب وحاولوا معهم إسقاط المدينة
وهي عاصمة الإسلام يومئذ، قال الله عزوجل - واصفاً ما نشب بين المسلمين واليهود
من عراك -
(٣) «وأنزل الذين ظهروا من أهل الكتاب من يصيبهم وقدف في قلوبهم الرعب
فريقًا تقتلون وتفترون فريقًا».
اتسع نطاق القتال بعد ما تاظهر المشرك وأصحاب التوارة ضد الإسلام ثم زادت
حدته بعدما تكاثر سكان الجزيرة كلها على حرب المسلمين.
فنزل قوله تعالى:
(٤) «وقاتلو المشركين كأوكم يقاتلونكم كاففة واعملوا أن الله مع المنتحين».

---

(1) البقرة : ١٠٩. ١٩١.
(2) البقرة : ١٩١.
(3) الأحزاب : ١٢٦.
(4) التوبة : ٣٦.
يقول الكونت الباحث: إن فينا من يستغرب أحد الإسلام للموثة بالشدة أخرى
الأمر، وكيف طاردها الإسلام حتى قضى عليها في جزيرة العرب.
ثم يقول: لكننا نقرأ في الكتاب الخامس من الزبور أمرًا بالتشدد في معاملة
الوثنيين:
«إذا أدخلك ربك في أرض لتملكها، وقد أبداء آمنًا كثيرة من قبله; فقاتلهم
حتى تفنيهم عن آخرهم، ولا تطعهم عهدًا، ولا تأخذنك عليهم شفقة أبدًا! »
كذلك أمر الله إسرائيل باستئصال سكان المدن التي اختص بها قومه، ولم يرض
بالشفقة إلا على المدن البعيدة، التي لا تصل عدواهم إليها.!!
وكتب القديس «أوغستان» إلى الكونت (بونيفاس) يشير عليه باستعمال القوة
لردع أهل البدع وردتهم إلى النصرانية.
وقد اعتبر المنشقين على الكنيسة كالمبالغ التي تعرض وترفض قومًا يعاجلونها بما
أصابها، وهم مكرهون على تعذيبها ليتمكنوا من تضمن جراحها.
قال الكونت هنري: وفيحسن هنا أن نقابل بين تعاليم أبي بكر في حروب الردة،
وتعاليم الكتاب الخامس من الزبور فيما يتعلق بمعاملة الكلدانين. . .
قال: إذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الأمان.
فإن قبلكه فقد سلم كل من فيها، وإن أبق وباداتك بالعدوان فشد الخصار عليها.
ومتى وقفك الله للنظر بها فاحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسم. ».

* * *
ولا تلاحظ (الكونت) أن المسلمين فرقوا لأول يوم من قيام أمرهم بين عباد الأصنام
وبين اليهود والنصارى، ورسموا لكل منهما معاملة خاصة.
كما قرر أن الدولة الرومانية أسابات السيرة داخل حدودها وخارجها.
فكان المسلمون أجد بسيادة العالم منها.
وقد أفر الأب «بروغلي» بعظمة محمد وفضل أصحابه وقال:
للذين آمنوا الذين قالوا إننا نصارى ذلك بأنهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون.

والمقاصد المعتدلة يريد أحسن ما يطمئن إليه من دينته واضحًا في الإسلام.

والايج في الإسلام النقاش المستحيلة التي يجدها في دينته.

وهذا سير إسلام الألف مؤلفة من الشعوب المسيحية.

على أن هناك وفودًا أطلق كلاماً مع النبي في شأن عيسى وأصرت على إشراف شخصه معنى الألوهية!

وقد وقف النبي عن هذه الوفود موقعاً يعتبر آية في الإخلاص، والفناء في نشان الحق.

إذ طلب من مجدليه أن يصلوا لله جميعًا مستسلمين اللعنة على من يكذب ويظلم:

فسم حاچك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءك وأنبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسكم ثم نبتل فنجعل لعنة الله على الكاذبين.

إن هذا له القصص الحق وما من الله إلا الله وإن الله له العزيز الحكيم.

وثبت من وقائع التاريخ أن الوفد المسيحي رفض أن يردد مع الرسول هذه الدعوات.

وهو رفض يدل على أن أولئك المنصرين من العرب ما كانوا يجزمون بفكرة قاطعة في شأن عيسى.

وأن تأتيهم له لا يعدو أن يكون اتباعًا للظنون، وتقليدًا لأباه.

وأما أكثر هؤلاء الواهمين بين جمهور المسلمين.

إلا أن النصرانية بدأت تناوش الإسلام فعلًا عندما أحسست بدائرته تندحر، وبدأت

(1) المائدة 82.

(2) آل عمران 61. 62.
هل أضرت بصلميين سماحتهم؟
وأن النصارى - وهم سكان اليمن يومئذ - كانوا مطلقى الحرية في إجابة داعى الله أو الإعراض عنه.
وأن الرسول ﷺ حرم على ولاته ظلم الناس ولو كانوا كفارًا، فإن اختلاف الدين لا يبيح التظلم بين المعاملين والمتجارين.
بل إن ظلم حرام ولو على أمير سبي.
روى أحمد عن أبي هريرة: "دعوة المظلوم مستجابة، ولو كان فاجرًا ففجوره على نفسه".
إن الرسول الكريم لم تمكن من بسط رواق الإسلام على الجزيرة كلهًا أخذ صحبته بتعاليم مشددة في ضرورة إشاعة العدل وتحرر الدقة في تطبيقه على كل فرد وإظهاره في كل عمل.
روى أحمد عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: "إن الشيطان قد ينس أن يعبد الأصنام في أرض العرب، ولكنه سبىّ منكم بدون ذلك باغقارات، وهي الموبقات يوم القيامة. انظروا ظلم ما استطعتم، فإن العبد يجهى بالحسنات يوم القيامة يرى أنها ستنتجه فما زال عبد يقول: يا رب ظلمتي عبدك مظلمة، فقال: امحوا من حسناته، ولا يزال كذلك حتى ما يبقى له حسنة، من الجنوب المظلم.
وإن مثل ذلك كسر فنزلوا بفيلة من الأرض ليس معهم حطب، فاتفرق القوم ليحتجبوا فلم يلبثوا أن حطبوا فأعظموا النار، وطبقوا ما أرادوا، وكذلك الجنوب.
هذه تعاليم المنتصر، ونكل أواخره في معاملة الناس.
وكانت "عبيران" إحدى القبائل المسيحية التي تقطن الجنوب - من بين الذين شملهم هذا العدل الربح، فما وقع عليه فرد منهم غبن ولا أكره على إيمان.
ولماذا يستثنون من التعاليم التي ذكرناها آنفة؟
لكن الكاتب الصليبي الحقوي لا يعلق بحرف على خضوع اليمن كلها تحوس فارس.
وإذا تشعِّب نيرانه لسيطرة الإسلام على العرب في وسط الجزيرة وجنوبها.
هل استنتج من هذه العداوة ميل الأقباط إلى التعاون مع الفاتح المسلم؟ ... إلخ ص 120.
فالامر في وهم هذا الكاتب لا يرجع إلى الإسلام لأنه دين عدل، ولا إلى صاحبه لأنه نبي سمح لا.
إذا أحرقته لا تحتفل له أن يتصور هذا العرض القريب المتماشى مع مسلك المسلمين في البلدان المفتوحة كافة.
فترة يرد ما يرى من عاطفة نبيلة إلى أسباب ما يليق إسنادا للنبي أرسله رب العالمين.
على أن الكاتب خبط في جمع الشواهد التي تدل على رعاية النبي لأهل مصر، فهناك أحاديث صحيحة لم يذكرها، وهناك أحاديث مكذوبة وقع عليها في كتب الأخبار، ووجاء بها إلى كتابه الشهير بالمتبرعات.
كأنما يأتي طبعه - وهو يستدل لغرض صحيح - أن يأتي الحديث صحيح!
من ذلك ما تسبب إلى النبي - وهو باطل - "لو بقي إبراهيم ما تركت قبطيًا إلا
وضعت عنه الجزية".
فإذا بقاء إبراهيم وناته سواء بالنسبة إلى أحكام الشريعة، وما يملك أبوه نقض حكم
أبرمه الله.
والجزيرة يضعها عن نفسه من يمنع عن ممارسة الإسلام.
فأما من حاربه أو أعان من يحاربه فمن حق المسلمين أن يجردو من سلاحه، على
أن هذا التجريد لن يغري أحدًا بالعدوان عليه.
فإذا المسلمين أنفسهم سيولون حمايته بتفاحة مشتركة بينهم وبينه.
ومن الأكاذيب التي رواها الكاتب منسوبًا إلى النبي أنه قال للمسلمين:
"يكفونكم - يعني الأقباط - أعمال الدنيا وتفرعون للعبادة".
وهذا لغو سفيف، فإن التفرغ للعبادة في نظر الإسلام معصية!
والمسلم الذي يتقد عن شؤون الدنيا منتظرًا من الآخرين أن يكفوه همومها ويحموه
جهوداً رجل متسول تائف.
فإن محمدًا لم يحبس في بيتته هذه الشياط، وهو الذي عرف بين خصومه وأحبائه.

أنه يرفع ثوبه ويختفي نعله.

ولئك أن ألف ثوب يكسى بها عرب الصحراء أرغق بنصارى اليمن من القنطرة، التي كان يدفعها النصارى صاغرين لرسول كسرى، كي يزدان بها إيوائه الأبد في الدخان.

لكن وثاثة فارس أحبت إلى هذا الكاتب الصليبي من دين محمد.

ولذلك يظهر في كتابه النافحة كأنه زعيم قبائل ثارت بحثا عن الفوائد المادية (1).

فوائد مادية منها؟ إن القرآن يقول: "واعلموا أنما غنتم من شيء فإن لله خمسه ورسله ولد القربى والبيتى والمساكين وأبناء السبيل" (2).

والنبي يقول: "ليس لي من مغنمكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم".

والعيلة في الاستيلاء على الخمس وأعادة توزيعه على الجهات المحتاجة تعود إلى إقامة التوازن الاقتصادي بين طبقات المجتمع، كما نص القرآن في تقسيم الفيء، قال عز وجل:

"ما أفاء الله على رسوله من أهل القريء فلله ولرسول ولدى القربى والبيتى والمساكين وأبناء السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم..." (3).

فأي نوع مادي يعمه الكاتب في هذه الشؤون؟

ثم يمضي الآثاب في هذا قائلا:

"لم يجرؤ أحد على فرض الجزية على هؤلاء العرب... النصارى".

ووهذا كذب فقد فرضت عليهم الجزية ودفعوها.

ويقول كذلك في ص 29: "حرس المسلمين أشد الخروش على عدم جرح عواطف مواطنيهم المسيحيين".

والواقع أن المسلمين لم يجرحوا عواطف النصارى عربيا ورومًا.

(1) الأنفال: 41.
(2) الخث: 7.
على ألا يُغرَّوا، ولا يُمَنَّعوا من تجارة صادرة ولا واردَة.
شهد الزبير، وعبد الله، ومحمد، ابناه، كتب وردان وحضر...». 1. هـ.

* * *
إن المبادئ الهامة التي تضمنتها هذه المعاهدة تعد صفحة جديدة في تاريخ العصور الوسطى.
وهي على نسق المعاهدات التي أبرمها المسلمون مع كثير من الشعوب التي طردو الفرس والرومان منها.
ويجب أن نقرر هنا بعض الأسباب التي جعلت المصريين يستريحون لهذا العهد المعرض عليهم ويتضمن راضين.
1- فقد استردت البلاد حريرتها الدينية كاملة، وتلت ضمانًا واضحًا أن تبقى للمعابد قداستها فلا يقتاحها أحد، ولا تخذل شعائرها.
وكان الأقباط محرومين من هذا الأمان في أثناء حكم الرومان، لاختلاف المذهب الدينى، وإن انتمى الفريقان للنصرانية!
2- خف حمل الضرائب التي يدفعها المصريون للحكومة الإسلامية.
فإن تعداد مصر على عهد الفتح الإسلامي بلغ عشرة ملايين ساكن.
وكان الحد الأعلى لضريبة الجزية خمسين مليونًا من الدرهم، أي متوسط ما يؤديه الفرد للحكومة خمسة دراهم في العام «نحو عشرة قروش» مع أن الرومان كانوا يستنركون المصريين على دفع جملة أنواع من الضرائب الباهظة...
3- يلاحظ أن هذه الضريبة كانت تنقص تبعًا لهبوط الفيضان، ولكنها لا تزيد على النسبة المقررة، كما أنها تؤدي أقساطًا ثلاثة على مدى السنة.
4- هذه المعاهدة معقودة مع المصريين الذين هم أصحاب البلاد.
فإذا رغب روماني أو نوبى الدخول فيها، فله حق المعاملة بالمثل، إلا أنه لم يزو الفيضان أن يضمنهم وحقوقهم كلها حتى يبلغ المكان الذي يأمن فيه على نفسه، أو يقطع عنده سلطانهم.
وأوعزوا إلى القبائل النصرانية المناخمة لحدود الشام أن تقف سداً منيعًا دون أي
تقدم قد يحرزه الإسلام في هذه البقاع.
فلما بعث النبي وفدًا من الدعاء المسلمين يعلمون الناس مبادئ الإسلام، وثبت
عليهم جموع العرب الموالين للروم فقتلتهم جميعًا في مكان يسمى "ذات الطح"
وكانوا خمسة عشر داعيًا، واستطاع رئيسهم النجاة بأعجوبة ...
وتمكن أعرابي من قبيلة "غسان" أن يقتل رسولًا بعثه النبي إلى الوالي الروماني
على بصرى (1) يدعو إلى الإسلام.
وأشع أن هذا الاغتيال كان برضا "هرقل" نفسه.
ونحن نستبعد هذه الإشاعة، ونرى أن المتخصصين من الفساعسة هم الذين ارتدوا
هذه الخطة في مقابلة الدعاية إلى الإسلام.
فإن موقف "هرقل" من الرسالة التي جاءت ينبيه عن حصادته وتنزه عن ارتداد هذا
المسلك الدنيء.
وليس أمام المسلمين بإزاء هذه الحوادث إلا أن يردعوا الروم وأشياعهم حتى لا
يعاودوا هذا التهجم.
فأرسل النبي حملة تأديبية من ثلاثة آلاف مقاتل أخذت طريقها إلى الشام.
بيد أن الروم كانوا قد استعدادوا بجيش كتيف للفئات هذه الكتيبة من المؤمنين المتحمسين.
فجمعوا نحو مائتي ألف من رجالهم، ومن انضم إليهم من قبائل همد وجدام والقين
وبهراء ويلي.
وماذا عسى يصنعه ثلاثة آلاف أمام مائتي ألف؟
ولكن حرارة اليقين جعلت الكتيبة المتنافسة تتجاوز بالاشتباك مع جيش يربو عليها
سبعين مرة، فقتل قادتها الثلاثة على التوالي، زيد بن حارثة، وعمر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة.

(1) اسم مدينة.
فلا جرم أن يرفض الإسلام أيّة مساومة على منحه حقّ البقاء، وأن يمضى في طريقه مستنداً إلى مبادئ وحدها وتضحيات المؤمنين بها.
فما إن استقر له الأمر حتى بدأ يجلي جيوش الروم والفرس عن الأقطار الفسيحة التي احتلت رقعتها واستهلكت أهلها. علّى ما قصصنا عليك.
وكان مصر قبيل الفتح الإسلامي يتنازع اعتلالها الفريقان معاً، حتى انهزم الفريق آخر أمره أمام خصومهم فتوطد ملك الروم بها.
وأصبحت بها موقعاً ومورداً معوناً قوياً للروم في القتال الذي دار بينهم وبين المسلمين.

جيش عمرو:
قرر أمير المؤمنين «عمر بن الخطاب» فتح مصر، وسار إليها الجيش الراحل بقيادة «عمرو بن العاص» فأخذ طريقه إلى القاهرة حيث التقى بهم جيش الروم وففه الجائزق «أبو مريم» ومعه الأسقف الذي أرسله الموقع.
وقبل أن تشتبك القوى المتأهبة للنزال قال «عمرو» لقادة الروم: لا تعجلوا حتى نعذر إليكم! وليبرز إلى الجائزق، والأسقف، فخرجما إليه، فدعاهما إلى الإسلام أو الجزية، وأخبرهما بوصية النبي ﷺ بأهل مصر، لأن «هاجر» أم إسماعيل جد النبي عليه الصلاة والسلام من مصر.
روح مسلم في صوبه أن النبي ﷺ قال: إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيروان. فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم دماً ورحمًا أو ذمة وصهرًا، فقالا: قرأَتْنا قراءَةً بعيدةً، لا يصلنها إلا الأنباء. ثم قالا لعمرو: أمنا حتى نرجع إليك» فقال لهما: «مثلني لا يخدع ولكنى أوجلكما ثلاثًاً لنتظروا».
فقالا: «هدنا». فزادهما يومًا.
فرجاً إلى الموقع بطريرك الأقباط، وأي الوالي الروماني فأخبرهما خبر المسلمين.
ويبدو أن البطريرك القبطي كان زاهدًا في قتال العرب.
وعلى رأسهم "العباس بن مرساد" ومن "أشجع" و"غطفان" الذين كانوا حلفاء اليهود، حين نكب اليهود في خيبر، ومن "عيس" و"ذبيان" و"فزارة". فكانت وقعة "مؤتة" سببًا في استناد الأمر للمسلمين في شمال المدينة إلى حدود الشام.

أفبرى الرومان أن تطور الأمور إلى هذا المصير؟ لقد تضاعفت وسناً النصارى ونت مخاوفهم! وردهم حنيفًا أن يتحول تقهر العرب في "مؤتة" إلى انتصار يستشير إعجاب الناس ويرفعه باعتناق الإسلام.

والفترة لا تطب أن يعيش بجانبها رأى يخالف في الفروع التفافه، فكيف تسمح بالبقاء لدين ينكر سلطة رجالها، لأنه لا يرى بين العباد ورهم وسائط، وينكر عقيدة الفداء التي تتركز عليها، لأنه يبني الجزء على عمل الإنسان وحده.

فليس للإنسان إلا ما سعى، ولا تثر وازرة وزر أخرى، ثم هو ينكر مبدأ الشركة في الألوهة، فليس للعالم إلا رب واحد يخضع له "عيسى" وأمه.

لذلك رأى الروم أن يعيدوا الكرة في ضربوا الإسلام في شمال الجزيرة ضربة ترده من حيث جاء، وتوصد عليه أبواب الحدود فلا يستطيع التسرب منها، وتضمن الكنيسة انفرادها بالضمير البشري، حتى إذا قرعت أجراسها لم يشب رنينها صدى لؤذن يهتف بتكبير الله وتوحيده، ويدعو للصلاة والفلاح.

وترامت إلى النبي في المدينة أنباء هذا الإعداد الماكر.

وتأريخ النصرانية منذ تولى مقاليد الحكم يؤكذ نية العدوان لدى رجال الكهونوت.

فلم يرى النبي بدأ من استنفار المسلمين لملاقاة هذا العدوان المبكر، والتهيؤ لملاءقة الروم جاء في أيام قيصر وقحط، والسير إليهم يتطلب جهدًا مضنيًا ونفقة كبيرة.

وقتال الروم ليس صدامًا مع قبيلة محدودة عدد والعدة.

بل هو معركة مره مع دولة تبسط سلطانها على جملة قارات، وتمتلك موارد ثراءة من الرجال والأموال...

---

---
إذا كان هذا الكاتب صادقًا في تصويره للوقائع التي تمتخضت عن المذهب الجديد، فإن ذلك تسجيل حاسم للرب الذي تغيّط بجملة العقائد المسيحية: لا الوردة في العهدين فحسب، بل الناشئة عن قرارات المجامع المختلفة! وأيًا كان الأمر فقد اضطرت الصلات بين مصر وروما، واتسعت الفجوة بين الكاثوليك والأرثوذكس.
حتى إن المصريين فضلاً عن أن يحكمهم مجوس فارس عن أن يظلوا خاضعين للمسيحيين الرومان!! إنهم كانوا يريدون البقاء على مذهبهم الديني آمنين، وهذا ما كان الرومان يضنون به...
زد على ذلك أنقال الضرائب التي فرضها الحكام المتعسون.
إن مصر المسيحية في ظل الإمبراطورية الرومانية المسيحية ظلت تنوي بما تحمل حتى خارت قواها، وتحولت إلى مر اليالى السود إلى مستعمرة تزدحم بالرعاة والعباد.
الإسلام يدخل مصر:
تختلف نشأة الإسلام اختلافًا كبيرًا عن نشأة النصارى.
فإن الإسلام يمتاز بأنه تولى على عجل إلى دولة تهيمن على جزيرة العرب. كان النبي رئيسها الأعلى، وكان القرآن - وهو دستورها الأصيل - محفوظًا عناءً رائعًا، ووعيه صدور القراء الذين استظهرو كلمة كلمة. والذين بلغ من كثرتهم أن تكونت منهم فرق مقاتلة كان لها أثر عميق في حرب الردة.
ووعيته كذلك صحائف الكتابة الذين سطوروا أي الوحي في أوراقهم. قفل مِثل النبي إلا الكتاب السماوي يكتب ويقرأ في نطاق بعيد المدى.
ولا شك أن خز القرآن من ذلك لا يذكر إلا جانبه أبدًا خز الإنجيل.
فإما نبت المسلمين أمام لدد الكنيسة المتعرضة، وإما أحرقتهم نارها فلم يبق لديهم أثر.

وكان لهذا الحزم أطيب النتائج.

فخرج المسلمون في تعبئة لم يخرجوا من قبل في مثلها، فانطلقوا صوب الشمال حيث تربض جيوش الروم.

فلما وصلوا إلى تبوك، أحس الروم أن هذا الجيش أقوى مما يطبقون لقاءه، فاختفوا داخل حدود الشام.

وعسكر النبي وصحابته بإزاء هذه الحدود أبدًا يسيرًا، ولم يفكروا في اجتيازها لأنهم لم يخرجوا من بلادهم مهاجمين!

فبقوا في أماكنهم قدر ما تشرب القبائل القاطنة بالحدود، وقدر ما يشعر النصارى أنفسهم أن المسلمين ليسوا ضحايا سهلة المنال.

وفي تبوك عقد النبي معاهدات صلح وأمان مع طائفة من هذه القبائل.

ثم قفل بعدها عائدًا إلى المدينة.

*

لو كانت لدى النصارى الروم نية خير تجاه الدين الجديد لوقفوا في الميدان مستندين إلى قواتهم الكثيفة.

ثم فاضوا المسلمون في عقد معاهدة متكافئة تحفظ لكل الدين كرامته، وتنحى الحرية لم شاء أن يعتنق أي الديانتين أحب...

لكن، هل عرف هذا الاتجاه في تاريخ الكنيسة قط حتى يطمغ في مثله؟

إنه الروم لا يجوز بخلعهم أن يعترفوا بهذا الدين، وأن يعطوه مكانًا مساويًا بعقيدتهم، بل أن يوقعوا صاحبه أو يكرموا أتباعه!

إنه تراجعوا وراء حدودهم، كما تمكن الخلة في جحورها تنتظر الفرصة السانحة للدغة القاتلة.
فما إن دخل الرومان واليونان والمصريون في النصرانية حتى فوضوا عليها معتقداتهم الأولى فشققوا مبدأ التوحيد، وجعلوا الله آباً والمسكين ابنًا له، وضموا لهما إليه ثالثًا على مر الأيام.

**

نعتذر لهذا الاستطراد، لقد شئينا مع الحديث رغبة منا في كشف كثير من الأحداث التي اكتسبت تاريخ النصرانية الأولي، ومدى تأثير الديانة المستضيفة بها، والدور الذي لعبه مصر مع غيرها من دول العالم الوثني في توليد مسيحية جديدة يزودها فيها مبدأ التوحيد والتعدد.

وستخلص من هذا السرد الجمل أن مصر كانت وثنية في أغلب عصور الفراعنة، وأن النصرانية التي أرسل بها عيسى كالإسلام الذي جاء به محمد، ديانة وافدة من الخارج.

وهذه أو تلك لا يقدها ولا يزيدها وصف بالغربية أو الألفة، فإن الدين كالعلم لا وطن له.

وأن المسيحية التي انتشرت بعد في مصر لقيت حمايتها ورواجها على أيدي الرومان لمحتلين للبلاد.

وكان جمهور المصريين ينظر إليها على أنها بعض مظاهر السياسة الأجنبية.

وأن عبادة الأصنام ظلت معتقلة في مصر قرابة ثلاثة قرون لم يزال فيها بطاركة الكنيسة ما يزعج مسيحيتهم.

وأن المصريين لما استبان لهم أن النازحchristي تجد إلى النازحي المسيحى القديم أقبلوا على المسيحية باعتبارها فلسفة مصرية بحثة، ولست ديانة يفرضها الرومان الغاصبون لبلادهم.

**

وهذه الخلاصات يمكننا أن نستدل عليها جميعًا من النقول والتعليقات التي ذكرها المؤلف الصليبي في الباب الأول من كتابه.

وثم أمر آخر على الكاتب بإبرازه.

وهو أن الكنيسة المصرية شنق عصا الطاعة على كنيسة «روما» لأسباب سياسية مجردة.
أجل في تحرير البلاد والعباد!
ولنتابع هذه الآلوية الراضفة لنرى أكان خروج المسلمين من ديارهم بطراء وثناء الناس، أم كان تحقيقًا للأهداف التي تنشدها الأم الحرة، والتي داسها الأقوياء المتناهرون على استرخاق البشر من الفرس والروم ومن أمثالهم في كل زمان؟
أسرع "أبو بكر" في تنفيذ أمر النبي بإرسال جيش "أسامة"، ليعيد إلى المسلمين هيبتهم بعد أن قتل الرومان "الأمير" الذي صالحهم، وبعد أن ألبوا أتباعهم من العرب على العبث بالمسلمين في شمال الجزيرة.
وقد التزم "أبو بكر" الحدود التي شرع الجهاد من أجلها.
فأمر رجال الجيش الراحل أن يكونوا مثالًا كريمًا لدينهم، فلا فساد ولا اضطهاد، ولا سلب ولا نهب.
قال "أبو بكر" لأسامة وجنده: "لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمتلؤوا، ولا تقتلوا طفلًا، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعزرقو نخلًا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مشمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا بعيرًا إلا للأكل.
وإذا مررت تقوم فرغوا أنفسهم في الصواعق فدعوه وما فرغوا أنفسهم له... إلخ".
قارن بين هذه الأوامر وبين ما صنعته الولايات المتحدة - زعيمة الأمم الحديثة - وسادتنا الحضارة الحديثة كذلك - عندما أمرت طياراتها في جزءها الأخير مع اليابان، فألقو القنابل الذرية على مدينتين أهليتين فأحرقوها الحرث والنسيل، واستحلال الشيوخ والأطفال والنساء إلى قبح وصدبد وجمع عفن مخلع، وعظام نخرة، وأنقاض متداعية - لأن لم تغن بالأمس...
لقد استجلل الغربيون لأنفسهم المنكر محتمين أنهم يشرون بقضايا العدل والحرية بين أم لم لا يعرف العدل والحرية!!
والعالم كله يعرف أنهم في هذه المزاعم كاذبون
ولو فرضنا - جدلًا - أنهم صادقون، فإن المثل العالية لا تحقق بالمسالك النابية.
3- إن جملة الرسائل التي تؤلف ما يسمى الآن بالعهد الجديد لا تن Định على أسانيد تعطيها قوة تاريخية معتبرة، فهي غريبة عن لغة المسيح بعيدة عن عصره، ويمكن القول بأن هذا العهد ما صنفه المسيح ولا الحواريين، بل صنفه رجال مجهولون الاسم ثم نُسب إلى الحواريين ورفقائهم.
وكتب "استاذين" يقول: "إن كافة إنجيل "يوحنا" تصنيف طالب من جامعة الإسكندرية ووافقه "بريشنيد" وزاد على ذلك أيضًا رسائل "يوحنا".

ومع ذلك فإن العهدين القائمين ذكرت بهما أسماء نحو خمسة وعشرين سفرًا لا يوجد لها ! ! .

**  **  **  **

ونحن المسلمون - لا نزعم أن ما ورد في أسفار العهدين القديم والجديد باطل محض، ففيهما مزيج غامض مبهم من الخطأ والصواب.

وقد وردت فيههما كلمات تخلع وصف الألوهية على أنس أطبق أهل الأديان أجمعون على عدهم بشرًا فحسب.

جاء في الإصحاح السابع من سفر الخروج "نقال الربيع موسى: انظر، أنا جعلتك إلًا لفرعون، وهارون يكون نبيك".

وجاء في الإصحاح الرابع من السفر المذكور: "هو بكلم الشعب عنك، ويكون لك فمًا، وأنت تكون له إلًا".

وهذا التهور في إطلاق الألوهية على الأنسى، إما أن يكون عجزًا شائنًا في الترجمة عن الأصل فأبدل كلمة السيد مثلاً بالله، وإما أن يكون مسلكاً مغرضاً قصد به تضليل العامة عن سوء نية ... وكلا الأمرين استغل - كما رأت - في تأليف "عيسى" لما كثرت هذه الإطلاقات عليه.

ولكن لماذا لم يظل موسى كذلك؟

وقد ذكرت كلمة "ابن الله" كذلك على غير "عيسى"، فأطلقته على آدم "ابن
آدم ابن الله" لوقا (38 : 2) .
وقدت على جندك فاحسن صحبتهم، وابدأهم بالخير، عدهم إياه... وإذا...
وعظت فأوجز، فإن كثير الكلام يسمى بعضه بعضًا... 
واصل نفسك يصلح لك الناس، وصل الصلاة لأوقاتها، بإمام ركوعها 
وسجودها والتخشع فيها.
وإذا قدم عليك رجل عدوك فأكرمهم، وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكركم 
وههم جاهلون.
ولا ترينهم - حقيقة جيشك - فيروا خلك، ويعملوا علمك.
 وأنزلهم في ثروة عسكرك، وامنع من قبلك من محدثتهم.
 وكأن أنت المتولى لكلامهم، ولا تجعل سرك لعلانتك في خلط أمرك.
وإذا استشرفت فاصدق الحديث تصدق المشورة، ولا تخذل عن المشير خبرك
فتوتى من قبلك.
واستر بالليل في أصحابك تأتِك الأخبار وتنكشف عندك الأستار.
وأكثر حرسك، وبدلهم في عسكرك، وأكثر مفاجأتهم في محارسهم بغير علم
مهم بك.
فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه، وعاقبه في غير إفراط.
واعقب بينهم بالليل والنهار، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخرى، فإنها
أيسرها لقربها من النهار.
ولا تخف من عقوبة المستحق، ولا تلجن فيها، ولا تسبر إليها.
ولا تغفل عن أهل عسكرك فتدفعه، ولا تحسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف
الناس عن أسرارهم، وأكثري بعلانتهم، ولا تجسس العابين.
وجالس أهل الصداق والوفاء، وأصدق اللقاء ولا تجن فيجن الناس.
واجتنب الغفل فاتى يكون الفقر ويدفع النصر.
لو أن عيسى عليه الصلاة والسلام استطاع أن يقيم دولة تختم قواعدها الحقة
ما استطاعته الوثنية القدية أن تفتح به هذا الفتول الذريع.
ولكن عيسى ذهب والنصرانية تدور بها دوامة عاصفة من أحقاد الوثنية التي تملك
da الدولة والصولة.
ولم يكن الرومان وحدهم عباد أصنام، بل كان اليونان والفرس والصربون والهنود
وسائر البشريء، ما عدا فلول من اليهود لا يقام لهم وزن.
وددنا لما قرأنا تعاليم عيسى نفسه بلغته العبرانية، أو لما قرأنا رسائل حواريه الكرام
بهذه اللغة نفسها، فهي اللغة التي دونوا بها عاقلهم وشروا بها أعاقهم.
غير أنه من المؤسف أن لا نجد إلا ترجمة يونانية ولا تنويه لهذه الكتب المفقودة،
وهواء الذين كتب تعاليم المسيح بلغتهم هم سدة الوثنية القدية وأشياعها.
والدهش أن المترجمين أنفسهم أشخاص مجهولون!
فبأى وجه من المنطق يؤخذ دين عيسى من ألسنة أعدائه بعد ضياع الصحائف
الأولى التي أوجزت عليه، وبعد ضياع الأسفار التي كتبها عنه تلامذته، وحلت محلها
تراجم لا تعرف قيمتها العلمية ولا أمانة ذويها؟
ونحن نجزم بأن تغييرات هامة جدًا طرأت على أصول النصرانية مالت بها إلى تعدد
الآلهة! ونحت بها نحو الوثنية السائدة في فكرة الفداء والقرابين.
وقد عاداهم المصريون أولًا بالنظر إلى أصلها السماوى، وحتى إذا حوروها كما
يشتهون: دخلوا فيها.
أو بالأحرى لم يستطيعوا الانتقال إليها فنقلوها إليهم.
ولما كان المفروض أن الإنجيل ملحق بالتوراة، وأنه يعتمد أحكامها، وأن النصرانيٌ
مكلف بالعهدين القديم والجديد معًا، فإن عبث الوثنية لم يلحق الإنجيل فحسب، بل
تعداه إلى التوراة نفسها.
وقد لاحظ الباحثون دلائل ذلك فيما يلي:
إن إفلاس العرب من عواقب حرب تنشب بينهم وبين الروم فحسب، أو بينهم وبين الفرس فحسب، يعتبر لهم كسبًا جليلًا!!
فكيف وقد أحزرنا النصر في ميدانين هائلين!!
وهو ليس نصرًا عسكريًا في معركة تكسب فيها أرض أو تخسر فيها أرض.
بل هو نصر في توجيه الأجيال واستنفاذ الشعوب وصع عالم بحضارة تبقى فيه إلى الأبد...
هذه هي المعجزة التي لم يعرفها فتح من قبل ولا من بعد...!!

* * *
لقد تابعنا الألوية المنتصرة في تقدمها الطافر، وشرحنا الأسباب المباشرة للفتاة الذي خاضته.
ونريد أن نتساءل: هل من واجب المؤرخ المنصف استقصاء هذه الأسباب الموقعة
لتصير ما وقع من حروب؟
إذنا تستغرب ماذا يتحول الحق المغتصب إلى حق مكتسب؟ تقوم له حرمة وتصان
له حدود، وسمى التعرض له عدواناً؟(1).
إن هذا - للأسف الشديد - ما تواضع المجرمون على إقراره.
فإنما احتلت فرنسا بلاد المغرب وأدّلت أهلها الخضف، وملأت أفئدتهم بالخوف، ثم
جاء من يستنكر ذلك ويلعن سخطه، صاحت فرنسا:
ما لكم تتحمون أنفسكم في مسائل داخليّة لا شأن لكم بها؟
إن المغرب قطعة من فرنسا نفسها، يعتبر التعرض له خصومة لفرنسا تتمشى الحسام
دافعًا عنه!!(2).
أرأيت إلى الوقاحة كيف تقلب الأوضاع فتورد الحق باطلًا والباطل حقًا؟

(1) مثل قضية فلسطين فإن المجتمع الملتزم بتهم المجاهدين بالعدوان والإرهاب ويتهم المعترضين على مذاهب
الصهيونية مساعدة الإرهاب.. بينما يباح ما يفسكون من الدماء.
(2) كان ذلك قبل استقلال المغرب.
ونضرب مثالاً لهذا التشبيه يعني توثيق المصريين بوثنيتهم القديمة من قراءة
"السيناكار" أي تاريخ القديسين.
وماذا يقول "السيناكار" هذا؟ يقول كما تترجم الكتاب من مرجع فرنسي "في معبد قيصرون الذي شيدته الملكة "كيلو بطرة".
كان يوجد صنم كبير من النحاس اسمه "عطارد" وكان يحتفل سنويا بعيده وتقدم له الذبائح وقد ظلت هذه التقاليد معمولا بها إلى أيام حكومة الأب "إسكندر".
أي لمدة تزيد على ثلاثين عاما.
فلما نصب "إسكندر" بطريركا قرر تطبيق هذا الصنم. بيد أن شعب الإسكندري ثائر قاتل لقد اعتدنا إحياء هذا الصنم.
ولقد تبع على هذا الكرسي اثنا عشر بطريركا ولم يجرؤ أحد منهم أن يصرفنا عن هذه العبادة.
أرتأت أيها القراري ذلك هو تصرف الأملاك على ديانة نزلت من السماء بإزاء التقاليد الوضعية التي رفض العامة من المصريين أن يدعوها.
والغريب أن هذا الكاتب يقول قبل ذلك يسطور: "إننا لن نناقش النتائج التي خرج بها بعض المستشرقين أمثال "لونيفير" و "شميدت" و "شولتز".
فقد اتفقوا على أن المسيحية ظلت غريبة على أهل مصر الأصليين، كما ادعوا أن نجاح العرب يرجع بصورة عامة إلى "أن الإسلام اجتذب أقباط مصر الذي تبعوا من تزالت كنائسهم وتضييقها عليهم".
ونحن نعرف أن أهل مصر الأول كانوا وثنيين متعصبين لعقائدهم.
وقد قرأنا - كذلك - في تاريخ القديسين كيف احترم البطارقة هذه الوثنية وسایروا.
فلماذا غضب المصريون آخر الأمر من كنائسهم?
فقد طلب إليهما أن يستنحضا من قاتل أهل الردة ، ومن ثبت على الإسلام بعد
موت الرسول ، ولألا يستعينا بهما وأن يسيرا بمجرد ولا يستكروا أحدًا.
فذ أنفسهم كلهما مالهما !!
ما هذا الأمر الغريب من خليفة يقاتل الفرس الذين دخوا الروم عدة قرون ؟
كيف لا يستعين على قتائهما بكل حي يستطيع تجنيده؟
لا .. إن الخليفة يرى الجهاد في سبيل الله شرفًا لا يرشح له إلا الأكفاء ، إن الأمر
في نظره ليس مغامير يستبين الأعراب لنيلها .
إنه رأسالة تستند قوتها قبل كل شيء من إيان رجالها وتفانيهم ثم تسير بعدئذ في
ضمان السماء .
ومن ثم أصدر الخليفة أمره إلى قادته أن يحتفظ بخلاصة نقيه من الرجال المتوفين
الثانيين وذلك أجدى عليه من الغشاء الكثير .
كما أصدر الخليفة أمرًا آخر إلى خالد : «تألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من
الأم ..» .
أجل ، فإن الفتال في الواقع ملوك فارس وأمرائهم لا لفلاحهم وأجرائهم.
فلاولك المستضعفين جاء الإسلام ، جاء ليخلصهم من الهون ، ويحرجهم من
الظلمات إلى النور .
وقد حرص خالد في موقعه ألا ينسى الفلاحين بسو ، وأن يعرض عليهم الجزية
والذمة فيجبروا ويتراجعوا.

النصاري والمجوس يتحالفون ضد الإسلام:
كلما رجع المرء ببصره في تاريخ المسيحية يتبين له بعد الشققة بين حاضر هذه
الديانة بعدما عبشت بها الأيدي ، وبين ماضيها العريق .
يوم تنزلت من السماء آيات بينات ، وكان إنجيل عيسى دستورها المذكر .
كيف دخلت المسيحية مصر
وكيف دخلها الإسلام؟
الفرس في معركة "الولجة" – وهؤلاء النصارى من العرب لا من الروم – وقد انهزم
"الفرس" وتكبدوا خسائر جسيمة.

وأصبح كثير من نصارى "بكير بن وائل" فغضب لهم حلفاؤهم، وقرروا الانضمام
إلى الفرس ضد المسلمين!

فلم ما بلغ خالدًا تجمع نصارى العرب من بنى عجل، وتيم اللات، وعرب الضاحية
من أهل الخيرة، وخلق الخىس بهم أسرع إلى ملاقاتهم في وقعة "اليس" حيث أنزل
بهم كارثة جعلت دماءهم تخالط ماء النهر، فسمى إلى اليوم نهر الدم...

وتقدم خالد إلى "الخيرة"، وكان الرجال قد تخصصوا في فصوصها، فأجال الخيل في
عرصاتها، وأدار المعركة في الشوارع بالخرف والنبال.

فأحس الرهبان أن الأمر جد واستنذلوا أهل الخيرة يطلبون الصلح.

وكان أول الرؤساء طلباً للصلح "عمرو بن عبد المسيح" ثم تبعه غيره.

فكان من كلام خالد لهم:

"ويحكم! ما أنتم؟ أعرب؟ فما تنقمن من العرب؟" أو عجم؟ فما تنقمن من
العدل والإنصاف".

وأمضى معهم صلحًا لا بأس أن نذكر نصه:

"هذا ما عاهد عليه "خالد بن الوليد" عديًّا وعمراً بني عدي، وعمراً بن
عبد المسيح وإياس بن قبصة، وحبري بن إكال، وهم نقباء أهل "الخيرة"، ورضي
بذلك أهل "الخيرة" وأمروهم به...

عاهمهم على تسعين ومائة ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في
الدنيا ورهبانهم وقسيسهم، إلا من كان منهم على غير ذي يد، حبيباً عن الدنيا ،
تاركًا لها، وعلى المغرة...

فإن لم ينعمهم فلا شيء عليهم حتى ينعمهم، وإن غدوا بفعل أو بقول فالذيذة
منهم بريئة. كتب في شهر ربيع الأول سنة 12 هـ".

(1) هل نغنت القومية العربية حينئذ...?
وانطلق الحاقدون على الإسلام ونبيه يصفونه بأفتح الخصال وأشبع السير فزعموا:
«أن محمدًا لص نياق! وزعموه متهاكماً على الله! وزعموه ساحرًا! وزعموه
رئيس عصابة من قطاع الطريق!
بل زعموه قسًا رومانيًا مغيظًا محتمً أن لم ينتخب لكرسيبابوية.
وحسبه بعضهم إلهًا خافًا يقرب له عباده الضحايا البشرية ...».
وإن «حبيردنجون» نفسه - وهو رجل جدًا ليذكر أن محمدًا مات في نوبة سكر
بين، وأن جسده وجد ملقى على كوم من الروث وقد أكثت منه الخنازير . إلخ.
رأيت هذه الحرب التي أعلنتها الكنيسة على الإسلام.
إذاً ما تزال إلى عصرنا هذا حامية الوطن في أوروبا وأمريكا.
ولا يزال المشروش السفهاء يحملون جرائمها في دمائهم الملوثة.
وآخر هذين للسورة هذه الأضاحان الكامنة تألف الصليبية العالمية مع اليهودية على
طرد المسلمين من فلسطين.
أجل. ففي عماية الغضب الدفين على الإسلام وألهه إبتلع التصاري طعن اليهود
في صرف مريم ونسب ابنها، وتصافح الفرنج ليواجهها المسلمين جميعًا بحرب شعواء،
تذر الألف مشتة من العرب البائسين يخرجون من ديارهم ليقتلهم الجوع والعراء.

* * *

(1) هيكل: ترجمة عن الكاتب الفرنسي إميل دو منجم.
الإسلام من مجوهر الفرس، ومن نصارى الروم والعرب جميعًا، بجيش خالد بن الوليد.
ولما تلاقت الجيوش المتحالفة وتذكرت ماضيها القريب في قتال المسلمين صاحب الروم: "امتنعوا حتى نعرف اليوم ما كان حسن أو قبيح من أين يأتي".
فامتازت صفوفهم ليبدئ كل صف غاية ما لديه من بلاء!

بيد أن ذلك لم يغير من عقبي البغاء للبغاء، فانكسرنا جميعًا.
وقيل: "إنه خسارة الفرس والروم والعرب في هذه المعركة نحو مائة ألف، لم يجدهم تعالفهم شيئًا..."

ومضت الألوية المنتصرة تشق طريقها لتحرير العبيد، وتهشم القيود.
وفي تلك المعركة أنشد القعقاع بن عمرو:
\[
لقينا بالفراض جموع روم
وكرسنا غـرة طول السلام
أبدنا جمعهم لما التقينا
فما قتلت جنود السلم حتى
وأينما اختلف الروم والفرس وحلفاءهم بأنهم استحقو من طول مسالمة المسلمين لهم، حتى
إذا جروا في غوايتهم حل بهم النكال.
\]

* * *

وراجع المرة أن يتساءل: أما كان هناك موضوع لسلم شريف يصون هذه الدماء الغزيرة أن تسفك، وهذه الأرواح الغالية أن تهلك؟
ولا شك أنه كانت ثمة مندوحة من التورط في هذه الحرب الشعواء.
وإذا تحمل أوزارها من بغي، لا من نهض يؤدب البغاء.
هناك صنفان من الناس لن تذوق الأرض حلاوة السلام ما بقيا:
أولهما: الرجال المفروضون على الدنيا يحكمونها بأمرهم ويسترون البشر بسلطانهم
وذلك لما سبق مجئهم من شهرة بالتسامح والنزاهة.

وهم قد عانوا الأمرين من تعصب الكنيسة وعصف الأباطرة والولاية.

وستستطيع أن تدرك البولن الشاسع بين طبيعة الحكم الإسلامي وطبيعة الحكم المسيحي في هذه العصور البعيدة، من موقف الفريقين بإزاء المعابد المخالفة.

فإن الرومان كانوا يغتصبون من الأرثوذكس كنائسهم، ويحلونها إلى كنائس كاثوليكية غير مكرشتين بحرم العقائد وغضب العامة.

لكن "عمر بن الخطاب" لما قدّم بيت المقدس ودخل كنيسة القيامة حضرة الصلاة.

قال للبطريرك: أريد الصلاة!

قال له البطريرك: صلّ موضعك.

فانتفع عمر، وخرج من الكنيسة فصلّ قريبا من بابها، وصلى وحده.

فلما فرغ من صلاته قال للبطريرك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون بعدّ، وقالوا: هنا صلّى "عمر".

وكتب لهم ألا يجمع على الدرجة للصلاة، ؛ درجة السلم حيث صلى، كما أمر ألا يؤذّن عليها.

ثم قال للبطريرك: أرني موضعًا أبني فيه مسجدًا.

فاختار البطريرك مكان الصخرة، لأن الله - كما يحكى - كلّم يعقوب عليها!! وكان بالمكان رمضان كثير فشرع "عمر" في إزالته وتناوله بيده يرفعه في ثوبه.

واقتدى به المسلمون كافة، فزالت الأنقاض المخالفة وأمكن بناء المسجد.

ذلك صنع الخليفة الراشد "عمر"، والمسلمون في أوج قوتهم.

والأمبراطور "هرقل" يلم فلول جيشه المهجور قافلا إلى القسطنطينية بعدما لفظ الاستعمار الروماني أنفاسه الأخيرة في هذه الساحة الرحبة.

وليس يؤثر في مسلك المسلمين، أو يؤخذ على العهود التي أبرموها أي اتجاه إلى الفتنة عن دين، أو الاحترار لشعيرة مخالفّة.
ما جربوا إلا الاضطهاد والتعذيب ينصب على رؤوس من خالفهم.
فأي عاقل يلمع الإسلام على رده ضربات المسيحيين بثلال؟
إن من رحمة الله بالناس أجمعين أن أعان قادة الإسلام الأوائل على حسم هذه
الشرور.
وقد مضت ألوية المنتصرة إلى غايتها النبيلة كما رأيت على عهد الخليفة الأول.
لم يعقها تساند النصارى والموجوس في الكيد للإسلام ومحاولة الخلاص منه.

* * *
فلما ولى "عمر" أمر المؤمنين حافظ على أهداف الفتح.
فهي تتحصر في كسر شوكة الملوك، وإقرار الحرية الدينية، وتنزه الفاقعين عن
اقتراف المأثمر التي يعرفها التاريخ لمئات القادة والساسة من يسيرون في الأرض ابتعاد
المجد والمتعة.
فالفتح في الإسلام إذا اقترب به هو من أهواء الشهرة أو الثروة، حبط أجره وسقط
عند الله قدره.

إنه عبادة يخرج فيها المسلم طالب ثواب لا طالب دنيا، ومحترر عبيد لا مستعبد
أحرار، ومصلح أوضاع لا مثير فوضى !!
فإذا لم تتحقق هذه المعاني في القتال فالإسلام منه بريء.
وما أُحوج العالم بين الحين والحين إلى مجاهدين من هذا الطراز السام.
يغسلون الأرض من أوضارها المتكاثفة ويردون إليها صوابها إذا سلبه الجبارون من
أهل الدنيا أو الدجالين من رجال الدين.
وصايا "عمر" لقادته تشعرك أن هؤلاء الفائزين لم يكونوا شرًا معتددين بل كانوا
ملائكة مكرمين في صورة البشر.
انظر إلى ما كتبه إلى "سعد بن أبي وقاص" في جبهة فارس قال: "يسم الله
الرحمن الرحيم - أما بعد - فإنه آمرك ومن معك من الأجناد بتنقى الله على كل
حال.

156
فقد رأيت أنني لم نؤخذ شيئًا بعد شيء إلا بابنبعاتهم وغدرهم، وأن ملكهم هو الذي يصنعهم، ولا يزال هذا دابهم حتى تأذن لنا بالانسحاب فنسحب في بلادهم وننزل ملكهم. فهناك يقطع رجاههم.

فقال عمر: صدقتما والله! وصمم على اتباع مشورته.

ماذا يبغى ملك فارس؟ لقد حمل شعبه قوائم عرشه حتى ناء باثقالها.

فكان جزاء ولائهم له أن أكل في السم للذين صحبحهم وسقيهم، واستسلم غنائهم وفقرهم، وأصدر أمرهم "الكرم" إليهم أن يكونوا عبيدها الخالصين في حرب الإسلام ومشاقة نبيه.

فساروا وراء مسحورين ببريق التاج وميراث السيادة.

حتى إذا تلاحقت الهزائم، وهتكت قويا الإيمان أستار الجيوش المكذوب، وقرر العبيد عقد معاهدات متفاوتة الدم مع الفايقين الذين ساقتهم الأقدار. أبى الملك المتشبث بأتيال ماضيه إلا أن يحرض "الرعية" على الغدر، وبحجهم على معاودة القتال مع المسلمين.

لور لم يكن للتعصيب الإسلامي من ثورات إلا أنه هدم هذه الوثنية السياسية وآخر أثارها، كانت تلك بيدا جليلة يشكرها العالم له.

فلما أحس "كرس" بالبأس من بقاء ملكه رأى أن يهرج أمواله وكنوزه إلى قطر آخر، فينتقل إليه بثروته، إن لم يستطع الانتقال إليه بسندته!!

بيد أن الشعب الذي استيقظ آخر الأمر حرم من هذا الأمل الباقي.

قال الاستاذ محمد الحضرى: قصد "يزدجرد" شطر "مرور" فحصر حاميتها واستخرج منها خزائنها، وأراد أن يرحل بها إلى "فرغانة" أو "الصين"، فيقوم بإحداها، فلم يكن من ذلك أهل "خرسان" قاتلين.

ارجعنا إلى هؤلاء القوم - المسلمين - فصاحفهم، فإنهم أوفياء، وأهل دين.
إذا وطئت أرض العدو فادرك العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليكم أمرهم.
ولكن عندك من العرب - أو من أهل الأرض - من تطمن إلى نصحه وصده.
فإن الكذوب لا يفعك خبره، وإن صدقلك في بعض.
والغاشع عين عليك وليس عنبًا لك .. إلخ» 1، 2، 3.
إذا هبطنا من السماء إلى الأرض، وانقلنا من نصائح "عمر" في الحرب الإسلامية
إلى أوامر "تشرشل" في الحرب الديمقراطية، وجدنا رجلا يقول: أنا أختلف الشيطان
في سبيل الوصول إلى أغراضي (1)!
ووجدنا عهودًا تكتب ثم ينكت بها قبل أن يجف مدادها ..!
ووجدنا المهزوم مفروضًا عليه أن يسلم بدون قيد ولا شرط ..
ووجدنا قائدًا أمريكيًا في الفلبين "بطاردو" غلامًا ليفسكه به ..
ووجدنا الجنود حيث كانوا ينظم لهم البغاء، وتهدي لهم الجريمة، ويباح لهم النهب ..
وذلك كله من أموال وأعراض البلاد المفتوحة ..
وبمجرد هذا الوبن الشاسع بين السماء والأرض، بين حروب الإسلام في العصور
الأولى، وحروب العرب في العصور الحديثة، لا تعلم وقائع سؤد الضغط قليبه على هذا
الدين الحنيف، فهو يتهم الفاعلين الملائكة بساءات أباه وزعمائه من الساسة والقادة،
والمستشرقون والبعثيون من وراء هذا الإفك المفتري يحسبون أنهم إذا هددوا الإسلام
بهذه الأوهام فقد خدموا النصارئية وأمدوا لها حبل البقاء ..

* * *

و"عمر" الذي يصدر أوامره تلك لقائد المسلمين في فارس يدرى دربًا جيدة من
هم الذين يقاتلونهم، وأي فساد تغلغل في صفوفهم ونفوذهم ومكن له حكم الفرد
الملتهى في بلادهم ..

(1) كان "تشرشل" يعنى مبدأ "ميكانيكي" للغاية تبتر الوسيلة .. "محقق".
وإذا وطئت أرض العدو فأذكى العيون بينك وبينهم، ولا يخف عليكم أمرهم.
ولكن عندك من العرب - أو من أهل الأرض - من تطمئن إلى نصحه وصدقه.
فإن الكذوب لا ينفعك خبره، وإن صدقك في بعض.
والغاش عين عليك وليس عيناً لك. إلخً ا. ه.
إذا هبطنا من السماء إلى الأرض، وانتقلنا من نصائح "عمر" في الحرب الإسلامية إلى أوامر "تشرشل" في الحرب الديمقراطية، وجدنا رجلاً يقول: أنا أخالف الشيطان في سبيل الوصول إلى أغراضي.(1)!
وجدنا عمداً تكتب ثم ينكت بها قبل أن يجف مدادها.!
وجدنا المهزم مفروم عليه أن يسلم بدون قيد ولا شرط.
وجدنا قائدًا أمريكيًا في الفلبين "يطارد" غلامًا ليفسق به.
وجدنا الجنود حيث كانوا ينظم لهم البغاء، ويتح لهم الجريمة، ويباح لهم النهب.
وذلك كله من أموال وأعراض البلاد المفتوحة.

وبرغم هذا البون الشامع بين السماء والأرض، بين حروب الإسلام في العصور الأولى، حرب الغرب في العصور الحديثة، لا تدعم وقفاً سوّه الضغط قلبه على هذا الدين الحنيف، فهو يهمل الفاعلين الملائكة بسواعات آبائه وزعمائه من الساسة والقادة، والاست_rpc-ren وبرزن من وراء هذا الإله المفترى. يحسبون أنهم إذا هدموا الإسلام بهذه الأوهام فقد خدموا النصرانية وأهدوا لها حيل البقاء.

* * *

و"عمر" الذي يصدر أوامره تلك لقادة المسلمين في فارس يدري دراءة جيدة من هم الذين يقاتلونهم، وأي فساد تغلغل في صفوفهم ونفوسهم ومكن له حكم الفرد المتلائي في بلاده.

(1) كان "تشرشل" يعتنق مبدأ "ميكانيكي" للغاية تثير الوسيلة "المحقق".
وقت رأيت أن لا يُبْقى شيءًا بعد شيءًا إلا بالانسياق وتلاحمهم، فإن ملكهم هو الذي يشعرون به، ولا يزال هذا دأبه، حتى تأخذ لنا بالانسياق فمن(stdin فبلادهم ونصبه ملكهم.
فهالك ينقطع رجاؤهم.
 فقال عمر: صدقنتي والله! وصمم على اتباع مشورته.

ماذا يبغى ملك فارس؟ لقد حمل شعبه قواعده عرضه حتى ناء بآمالها.
فكان جزاء ولائهم له أن أكل في السلم صحيحهم ونسائهم، واستذل غنيهم وفقراءهم، وأصدر أمره "الكرم" إليهم أن يكونوا عبديه مخلصين في حرب الإسلام، ومشاقة نبئه.
فساروا وراء مسحورين بريق التاج وميراث السيادة.
حتى إذا تلاحقت الهزائم، وهنكت قوى الإمام أستار الجيوش المكذوبة، وقرر العبيد عقد معاهدات متكافئة الدم مع الفائزين الذين ساقيتهم الأقدار. أبقى الملك المتشبث بأذيال ماضيه إلا أن يحترم "الرعية" على الغدر، وبحثهم على معاودة القتال مع المسلمين.
لولا يمكن للتتعصب الإسلامي من ثمرات إلا أنه هدم هذه الوثيقة السياسية وأهرق آثارها، لكون ذلك جيلاً يشترك العالم له.
فلمما أحص "كسرى" بالبأس من بقاء ملكه رأى أن يهرّب أمواله وكنوزه إلى قطراً آخر، فينقل إليه بحروته، إن لم يستطع الانتقال إليه بسدنته!!
ببد أن الشعب الذي استيقظ آخر الأمر حريمه من هذا الأمل الباقى.
قال الأستاذ محمد الخضرى: قصد "يزدجرد" شطر "مرو" فحصر حاميتها واستخرج منها خزاناته، وأراد أن يرحل بها إلى "فرغانة" أو "الصين"، ففيهم بها إحداهما، فلم يكن من ذلك أهل "خراسان" قائلين: "ارجعنا إلى هؤلاء القوم - المسلمين - فصالحهم. فإنهم أوفياء، وأهل دين."
ما جربوا إلا الاضطهاد والتعذيب ينصب على رؤوس من خلفهم.
فأي عاقل يلوم الإسلام على رده ضربات المسيحيين بمثلها؟
إن من رحمة الله بالناس أجمعين أن أعان قادة الإسلام الأوائل على حسم هذه الشرور.
وقد مضت ألوية المنتصرة إلى غايتها النبلية كما رآيت على عهد الخليفة الأول.
لم يبقها تساند النصارى والمجوس في الكيد للإسلام ومحاولة الخلاص منه.

** *
فلما ولي "عمر" أمير المؤمنين حافظ على أهداف الفتح.
وهى تتحصر في كسر شوكة الملك، وإقرار الخريطة الدينية، وتنزيه الفائنين عن اقتراف المأثم التي يعرفها التاريخ لثقات القادة والساسة من يسيرون في الأرض ابتعاد المجد والمتعبة.
فالجهاد في الإسلام إذا اقترن به هو من أهواء الشهرة أو الثروة، حيط أجره وسقط عند الله قدره.

إنه عبادة يخرج فيها المسلم طالب ثواب لا طالب دنيا، ومحتر عبيد لا مستعبد أحرار، ومصلح أوطاع لا مثير فوضى !!
إذا لم تتحقق هذه المعاني في القتال فالإسلام منه بريء.
وما أحوج العالم بين الحين والحين إلى ماجهدين من هذا الطراز السامي.
يغسلون الأرض من أوضارها المتكافئة يريدون إليها صوابها إذا سلبهم الجبارون من أهل الدنيا أو الجبال ومن رجال الدين.
ووصايا "عمر" لقadierته تشعرك أن هؤلاء الفائنين لم يكونوا بشرا معتددين بل كانوا ملائكة مكرمين في صورة البشر.

انظر إلى ما كتبته إلى "سعد بن أبي وقاص" في جبهة فارس قال: "بسم الله الرحمن الرحيم - أما بعد - فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال."
وذلك لما سبق مجيئهم من شهرة بالتسمح والنزاهة.

وهم قد عانوا الأمرين من تعبير الكثثة وعسف الأباطرة والولاة.

وستستطيع أن تدرك البون الشامع بين طبيعة الحكم الإسلامي وطبيعة الحكم المسيحي في هذه العصور البعيدة، من موقف الفريقين بإزاء المعتقد المخالف.

فإن الرومان كانوا يغتقصون من الأرثوذكس كنائسهم، وبحولونها إلى كنائس كاثوليكية غير مكتوثين بحرم العقائد وغضب العامة.

لكن "عمر بن الخطاب" لما قدم بيت المقدس ودخل كنيسة القيامة حضرته الصلاة.

قال للبطريرك: أريد الصلاة!

قال له البطريرك: صلّ موضوعك.

فاحتفظ عمر، وخرج من الكنيسة فصلت قريبًا من بابها، وصلّ وحده.

فلم فرغ من صلاته قال للبطريرك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون بعدئ، وقالوا: هنا صلّي "عمر".

وكتب لهم ألا يجمع على الدرجة للصلاة - درجة السلام حيث صلى - كما أمر ألا يؤذن عليها.

ثم قال للبطريرك: أرى موضوعًا أبني فيه مسجدًا.

فاختار البطريرك مكان الصخرة، لأن الله - كما يحكى - كلم يعقوب عليها!!

وكان بالمكان ردم كثير فشع "عمر" في إزالته وتناوله بيده يرفعه في ثوبه.

واقتدى به المسلمون كافة، فزالت الأنقاض المتخيلة وأمكن بناء المسجد.

ذاك صنع الخليفة الراشد "عمر"، والمسلمون في وجه قوتهم.

والإمبراطور "هرقل" يلم قلول جيشه المدور قافلاً إلى القسطنطينية بعدما لفظ الاستعمار الروماني أنفسه الأخيرة في هذه الساحة الرحبة.

وليس يؤثر في مسلكي المسلمين، أو يؤخذ على العهود التي أبرموها أي اتجاه إلى الفتنة عن دين، أو الاحتفال ل ושاعة مخالف.

106
الإسلام من مجووس الفرس، ومن نصارى الروم والعرب جميعًا، بجيش خالد بن الوليد.

ولما تلاقت الجيوش المتحالفة وذكرت ماضيها القريب في قتال المسلمين صاح الروم: "امتنعوا حتى نعرف اليوم ما كان حسن أو قبيح من أين يجيّ".

فمثّلت صفوهم ليبدئ كل صف غاية ما لديه من بلاء!

بيد أن ذلك لم يغير من عقبى البغى للبغاة، فانكسرنا جميعًا.

وقيل: إن خسارة الفرس والروم والعرب في هذه المعركة نحو مائة ألف، لم يجدهم تخفيفهم شيئًا ...

ومضت الألوية المنتصرة تشق طريقها لتحرير العبيد، وتهشم القبود.

وفي تلك المعركة أنشد الفعاق بـ عمرو:

لقينا بالفراض جمعة روم
وفرضنا طول السلام
أبنا جمعهم لما التقينا
وبيتنا بـ جمع بنى رزام
فما فئتنا جنود السلام حتى
رأينا القوى كالغنم السواهم

والقارئ يلاحظ في هذه الأبيات أن الشاعر يسمى جيش المسلمين جنود السلام، ويؤخذ الروم والفرس وحلفاءهم بأنهم استحمقوا من طول مسالة المسلمين لهم، حتى إذا جروا في غوايتهم حل بهم التكال.

********

ومن حق المرء أن يتساءل: أما كان هناك موضع لسلم شريف يصون هذه الدماء الغزيرة أن تسفك، وهذه الأرواح الغالية أن تهلك؟

ولا نشك أنه كانت ثمة مندوحة من التورط في هذه الحرب الشعواء.

إلا أنما يحمل أوزارها من بغي، لا من نهض يؤدب البغاة.

هناك صنفان من الناس لن تنى الأرواح حلاوة السلام ما بقيا:

أولهما: الرجال المفوضون على الدنيا يحكمونها بأمرهم ويسترون البشر بسلطانهم
وانطلق الحاقدون على الإسلام ونبيه يصفونه بأفجع الخصال وأشنع السير فزعموا:
"أن محمدًا لص نباق! وزعموه متهالكًا على اللهو! وزعموه ساحرًا! وزعموه
رئيس عصابة من قطاع الطريق!
بل زعموه قسًا رومانيًا مغيظًا محنفًا أن لم ينتخب لكرسيبابوية.
وحسبه بعضهم إلهاً زائفة يقرب له عباده الضحايا البشرية .\"
وإن "حبيردوجن" نفسه - وهو رجل جد ليذكر أن محمدًا مات في نوبة سكر
بين، وأن جسدته وجد ملقى على كوم من الروح وقد أكذت منه الخنازير(1) . إلخ
أرأت هذه الحرب التي أعلنتها الكنيسة على الإسلام.
إنها ما تزال إلى عصرنا هذا حامية الوطن في أوروبا وأمريكا.
ولا يزال المشرونين السفهاء يحملون جرائمها في دمهم الملوث.
أخرى مظهر لسورة هذه الأضراز الكامنة تألب الصليبية العالمية مع اليهودية على
طرد المسلمين من فلسطين.
أجل. ففي عمادة الغضب الدفين على الإسلام وأهله ابتعل النصارى طعن اليهود
في شرف مريم ونسب ابنها، وتصافح الفرقة لتباعها المسلمين جميعًا بحرب شعواء،
تذر الألفوف المؤلفة من العرب البائسين يخرجون من ديارهم ليقتلهم الجوع والعراء.

* * *

(1) هيكيل: ترجمة عن الكاتب الفرنسي إميل در منجم.
الفرس في معركة «الولجة» - وهؤلاء النصارى من العرب لا من الروم - وقد انهزم «الفرس» وتكبدوا خسائر جسيمة. وأصيب كثير من نصارى «بكر بن وائل» فغضب لهم حلفاؤهم، وقرروا الانضمام إلى الفرس ضد المسلمين!

فلمما بلغ خالدًا تجمع نصارى العرب من بني عجل، وتييم اللات، وعرب الضاحية من أهل الخبرة، وخلق الجيوش بهم أسرع إلى ملائكتهم في وقعة «أليس» حيث أنزل بهم كارثة جعلت دماءهم تحلل ماء النهر، فسمى إلى اليوم نهر الدم...

وتقدم خالد إلى «الخبرة»، وكان الرجال قد تجمعوا في قصورها، فأجادا الخيل في عرساتها، وأدار المعركة في الشوارع بالخزف والنبال.

فأحس الرهبان أن الأمر جد واستنذلوا أهل القصور يطلبون الصلح.

وكان أول الرؤساء طلبًا للصلح «عمرو بن عبد المسيح» ثم تبعه غيره.

فكان من كلام خالد لهم:

«ويحكم! ما أنتم؟ أعرب؟ فما تنفرون من العرب؟»؟ أو عجم؟ فما تنفرون من العدل والإنصاف».

وأمضى معهم صلحًا لا بأس أن نذكر نصه:

هذا ما عاهد عليه «خالد بن الوليد» عديًا وعمرًا بني عدي، وعمرًا بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة، وحبيبي بن إكال، وهم نقباء أهل «الخبرة»، ورضي بذلك أهل «الخبرة» وأمروهم به... عاهدهم على تسعين ومائة ألف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أبيهم في الدنيا ورهبانهم وقسيسهم، إلا من كان منهم على غير ذي يد، حييهم عن الدنيا، تاركًا لها، وعلى الموت. وإن لم يهتموا فلا شيء عليهم حتى يتعم، وإن غادروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة! كتب في شهر ربيع الأول سنة 12 هـ.؟

(1) هل نفعت القومية العربية حينئذ...؟
كيف دخلت المسيحية مصر؟

كيف دخلت الإسلام?
فقد طلب إليهما أن يستندهما من قاتل أهل الردة، ومن ثبت على الإسلام بعد موت الرسول، ولا الاستعنا بمرتد وان يسرى ببن يحب ولا يستكرها أحداً.

فانقض عنها كثير من معهما!!

ما هذا الأمر الغريب من خليفة يقاتل الفرس الذين دوخوا الروم عدة قرون؟

كيف لا يستعين على قتالهم بكل حيا يستطيع تخليده؟

لا ل إن الخليفة يرى الجهاد في سبيل الله شرفًا لا يرشح له إلا الأكفاء، إن الأمر في نظرة ليس معاس الأمر إلى الأعراب لنيلها.

إنها رسالة تستند قوتها قبل كل شيء من إيان رجالها وتفانيهم ثم تسير بعدئذ في ضمان السماء.

ومن ثم أصدر الخليفة أمره إلى قائده أن يحتفظ بخلاصة نقيبة من الرجال الموقتين الثانيين فتلك أجدى عليه من الغناء الكثير.

كما أصدر الخليفة أمرًا آخر إلى خالد: "تألف أهل فارس ومن كان في ملكهم من الأم".

أجل، فإن الفتال في الواقع لملوك فارس وأمرائها لا لفلاحها وأجرائها.

فالأولئك المستضفعين جاء الإسلام، جاء ليخلصهم من الهون، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.

وقد حرص خالد في موقعه ألا يس الفلاحين سوء، وأن يعرض عليهم الجزية والذمة فيجبوا ويتراعوا.

النصاري والمجوس يتحالفون ضد الإسلام:

كلما رجع المؤر ببصره في تاريخ المسيحية يتبين له بعد الشقة بين حاضر هذه الديانة بعدما عبثت بها الأيدي، وبين ماضيها العريق.

يوم تنزلت من السماء آيات ببنات، وكان إنجيل عيسى دستورها الفذ.
ونضرب مثالاً لهذا التشبه - يعني تشبه المصريين بوئسطتهم القديمة - من قراءة السيناكسار أى تاريخ القديسين.

وماذا يقول: "السيناكسار" هذا؟ يقول - كما ترمج الكاتب من مرجع فرنسي - "في معبد قيصرى الذي شيدته الملكة "كيلو بطرة".

كان يوجد صنم كبير من النحاس اسمه "عطارد" وكان يحتفل سنوياً بعيده وتقدم له الذبائح، وقد ظلت هذه التقاليد ممولةً بها إلى أيام حكومة الأب "إسكندر".

أي لمدة تزيد على ثلاثمائة عام.

فلما نصب "إسكندر" بطريركاً قرر تخطيط هذا الصنم. بلد أن شعب الإسكندرية ثار قائلاً: لقد اعدنا إحياء هذا الصنم.

ولقد تزوج على هذا الكرسي أثنا عشر بطريركاً ولم يجرؤ أحد منهم أن يصرفنا عن هذه العبادة.

أرآيت أيها القارئ؟ ذلك هو تصرف الأمناء على ديانة نزلت من السماء بإزاء التقاليد الوثنية التي رفض العامة من المصريين أن يدعوها.

والغريب أن هذا الكاتب يقول قبلاً ذلك بعبارات: ".. إننا لن نناقش النتائج التي خرج بها بعض المستشرقين أمثال "لوتينير" و "شميدت" و "شولتز".

فقد اتفقوا على أن المسيحية ظلت غريبة على أهل مصر الأصليين، كما أدعوا أن نجاح العرب يرجع بصورة عامة إلى "أن الإسلام اجتذب أقباط مصر، الذين تعودوا من تزعم كنائسهم وتضببوا عليهم".

ونحن نعرف أن أهل مصر الأول كانوا وثنيين متعصبين لعقائدهم.

وقد قرأنا - كذلك - في تاريخ القديسين كيف احترم البطارقة هذه الوثنية وسأروها.

فلمَ غضب المصريين آخر الأمر من كنائسهم؟
إن إفلات العرب من عواقب حرب تشتب بينهم وبين الروم فحسب، أوبينهم وبين
الفرس فحسب، يعتبر لهم كسبًا جليلاً!!
فكيف، وقد أحرزوا النصر في ميدانين هائلين!!
وهو ليس نصرًا عسكريًا في معركة تكسب فيها أرض أو تخرس فيها أرض،
بل هو نصر في توجيه الأجيال واستنفاد الشعوب وصع العالمن بحضارة تبقى فيه
إلى الأبد...!!
هذه هي المعجزة التي لم يعرفها فتح من قبل ولا من بعد...!!

* * *
لقد تابعنا الأنولية المنتصرة في تقدمها الظافر، وشرحنا الأسباب المباشرة للقتال
الذي خاضته.
ونريد أن نتساءل: هل من واجب المؤرخ المنتصف استقصاء هذه الأسباب الموقتة
لتبريك ما وقع من حروب؟
إذا نستغرب لمذا يتحول الحق المغتصب إلى حق مكتسب؟ تقوم له حربة وتصان
له حدودًا، وسماى التعرض له عدوانًا؟(1)
إن هذا - للأسف الشديد - ما تواضع الجرمان على إقراره.
فإذا احتلت فرنسا بلاد المغرب وأدقت أهلها الحسفي، وملأت أفتدتهم بالخوف، ثم
جاء من يستنكر ذلك وعليه سخطه، صاحت فرنسا:
ما لكم تقحمون أنفسكم في مسائل داخليّة لا شأن لكم بها؟
إن المغرب قطعة من فرنسا نفسها، يعتبر التعرض له خصومه لفرنسا تمثيل الحسام
دفاعًا عنه!!(2)

أرأيت إلى الوقاحة كيف تقلب الأوضاع تفرد الحق باطلًا والباطل حقًا؟

(1) مثل قضية فلسطين فإن المجتمع اللدسي يتهم المجاهدين بالعدوان والإرهاب ويتهم المتورضين على مذاهب
الصهيونية بمساعدة الإرهاب، بينما يباح ما يسمى من الدماء.
(2) كان ذلك قبل استقلال المغرب.
لو أن عيسى عليه الصلاة والسلام استطاع أن يقيم لديه دولة خميس قواعدها الخفية.
ما استطاعت اليونانية القديمة أن تُهلك به هذا الفتك العظيم.
ولكن عيسى ذهب والنصرانية تدور بها دوامة عاصفة من أحقاد اليونانية التي تملك
الدولة والصورة.
ولم يكن الرومان وحدهم عباد أصنام، بل كان اليونان والفرس والمصرىون والهنود
وسائر البشر، ما عدا فلول من اليهود لا يقام لهم وزن.
ودعنا لو قرأنا تعاليم عيسى نفسه بلغته العبرانية، أو لو قرأنا رسائل حواريه الكرام
بهذه اللغة نفسها، فهي اللغة التي دونها بها عقائدهم وبشروا بها أمهم.
غير أنه - من المؤسف - ألا نجد إلا ترجم يونانية وراتينية لهذه الكتب المفقودة،
وهلاء الذين كتب تعاليم المسيح بلغتهم هم سدنة اليونانية القديمة وأشياخها.
والدهشان أن المتزوجين أنفسهم أشخاص مجهولون!
فتبأى وجه من المنطق يؤخذ دين عيسى من ألسنة أعدائه بعد ضياع الصحائف
الأولى التي أنزلت عليه، وبعد ضياع الأسفار التي كتبها عنه تلامذته، وحلت محلها
ترجم لا تعرف قيمةها العلمية ولا أمانة ذويها؟
ونحن نحلم بأن تغييرات هامة جدًا طارت على أصل النصرانية مالت بها إلى تعدد
الآلهة! ونحت بها نحو اليونانية السائدة في فكرة الفداء والقرابين.
وقد عاداهنا المصريون أولاً بالنظر إلى أصلها السماوى، وحتى إذا حوروها كما
يشتهون: دخلوا فيها.
أو بالأحرى لم يستطيعوا الانتقال إليها فنقلوها إلىهم.
وأما المفروض أن الإنجيل ملحق بالتوراة، وأنه يعتبر أحكامها، وأن النصرانيّ
mكلف بالعهدين القديم والجديد معًا، فإن عبث اليونانية لم يلحق الإنجيل فحسب، بل
تعداه إلى التوراة نفسها.
وقد لاحظ الباحثون دلائل ذلك فيما يلي:
وإذا قدمت علي جندك فأحسن صحبتهم، وأبدأهم بخير، عدهم إياه.. وإذا
وعظت فأوجز، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضًا...
واصل نفسك يصلح لك الناس، وصل الصلاة لأوقاتها، بإمام ركوعها
وسلطة والتعش فيها.
وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرهم، وأقلل بشهم حتى يخرجوا من عسكرك
وهم جاهلون.
ولا تريبهم - حقيقة جيشك - فروا خلك، وعلموا علمك.
وازلهم من ثروة عسكرك، وامنع من قبلك من محادثتهم.
وكن إنت المتولى لكلامهم، ولا تجعل سرك للعليينك فيخنط أمرك.
وإذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة، ولا تخذل عن المشير خبرك
فتنى من قبلك.
واستمر بالليل في أصحابك تأتي الأخبار وتنكشيف عندك الأستار.
وأكثر حرسك، وبدلهم في عسكرك، وأكثر مساعاتهم في محاربهم بغير علم
منهم بك.
فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أديه، وعاقبه في غير إفراط.
وعاقب بينهم بالليل والنهار، واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة، فإنها
أيصرها لقربها من النهار.
ولا تخف من عقوبة المستحق، ولا تلجن فيها، ولا تسريع إليها.
ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف
الناس عن أسرارهم، واكتشف بعلانيتهم، ولا تجالس العابدين.
وجمال أهل الصدق والوفاء، وأصدق اللقاء ولا تقين فيجن الناس.
واجتنب الفعل فإنه يقرب الفقر ويدفع النصر.
3 - إن جملة الرسائلي التي تولت ما يسمى الآن بالعهد الجديد لا تنطفأ على أساليد تعطيها قوة تاريخية معترية، فهي غريبة عن لغة المسيح بعيدة عن عصره، ويمكن القول بأن هذا العهد ما صنفه المسيح ولا الخوارج، بل صنفه رجال مجهولو الاسم ثم نصب إلى الخوارج ورفاقهم.

وكتب "استادلون" يقول: "إن كافة إنجيل يوحنا" تصنيف طالب من جامعة الإسكندرية" ووافقه "برطشيد" وزاد على ذلك أيضًا رسول يوحنا.

ومع ذلك فإن العهد القائمين ذكرت بهما أسماء نحو خمسة وعشرين سفرًا لا وجود لها!

* * *

ونحن المسلمون - لا نزعم أن ما ورد في أسفار العهد القديم والجديد باطل. محض، ففيهما مزيج غامض مثيم من الخطأ والصواب. وقد وردت فيها كلمات تخلو وصف الألوهية على أناس أطبق أهل الأديان أجمعون على عدهم بشرًا فحسب.

و جاء في الإصحاح السابع من سفر الخروج "فقال الربي لموسي: انظر، أنا جعلتك إلهًا لفرعون، و هارون يكون نبيك".

و جاء في الإصحاح الرابع من السفر المذكور: "هو كلم الشعب عنك، و يكون لك فمًا، وأنت تكون له إلهًا".

و هذا الشهور في إطلاق الألوهية على الأنسان، إما أن يكون عجزًا شهيرة في الترجمة عن الأصل فأبدلته كلمة السيد مثلاً بالإله.

وأما أن يكون مسلكًا مغربيًا قصد به تلخيص العامة عن سوء نية.. وكلا الأمرين استغل - كما رأيت - في تأليف "عيسى" لما كثرت هذه الإطارات عليه.

ولكن لماذا لم يقله موسى كذلك؟

وقد ذكرت كلمة "ابن الله" كذلك على غير "عيسى"، فأطلقت على آدم "ابن آدم ابن الله" لوقا (38 : 38).
أجل في تحرير البلاد والعباد!
والتتابع هذه الألوية اللاحقة لئني أكان خروج المسلمين من ديارهم بطرًا ورثاء الناس،
أم كان تحقيقًا للأهداف التي تنشدها الأم الخير، والتي داسها الأقوياء المناهرون على
استرقاق البشر من الفرس والروم ومن أمثالهم في كل زمان؟
أسرع «أبو بكر» في تنفيذ أمر النبي بإرسال جيش «أسامة»، ليعيد إلى المسلمين
هيبتهم بعد أن حل الروم (الأمير) الذي صالحهم، وبعد أن أثبتوا أتباعهم من العرب
على العبث بالمسلمين في شمال الجزيرة.
وقد التزم «أبو بكر» الحدود التي شرع الجهاد من أجلها.
فأمر رجال الجيش الراحل أن يكونوا من تشيّعًا كرامة لدينهم، فلا فساد ولا اضطهاد،
ولا سلب ولا نهب.
قال «أبو بكر» لأسامة وجنديه: «لا تخونوا، ولا تغدر، ولا تغلوا، ولا تغلوا،
ولا تغلوا طفلاً، ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعرقو نخلًا، ولا تحركوه، ولا
تقطعوا شجرة مشمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة، ولا بعيرًا إلا للأكل.»
وإذا مرّتم تقوم فرغوا أنفسهم في الصواعق فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. إلخ.
قامت بين هذه الأوامر وبين ما صنعته الولايات المتحدة - زعيمة الأمم الحديثة
وسادته الحضارة الحديثة كذلك- عندما أمرت طايرتها في حربها الأخيرة مع اليابان
فألقت القنابل الذرية على مدينتين أهلتين فأحرقا الحرب والنسل، واستحال الشيوخ
الأطفال والنساء إلى قبح وصدص وحم عفن، وعظام نخرة، وأنقاض متداعية كأن لم
تغن بالآمس.
لقد استحل الغربيون لأنفسهم المنكر محتجين أنهم يشترون بقضايا العدل والحرية
بين أم لا يعرف العدل والحرية!!
والعالم كله يعرف أنهم في هذه المزاعم كاذبون.
ولو فرضنا - جدلاً - أنهم صادقون، فإن المنازل العالية لا تحقق بالمسالك النابية.
فما إن دخل الرومان واليونان والصليبيون في النصرانية حتى فرضوا عليها معتقداتهم الأولى فشققوا مبدأ التوحيد، وجعلوا الله عز وجل والمسيح ابنًا له، وضموا لهما إلّا ثالثًا على مر الأيام.

**

نعتذر لهذا الاستطراد، لقد قلمنا مع الحديث رغبة منا في كشف كثير من الأحداث التي اكتسبت تاريخ النصرانية الأولي، ومدى تأثير الديانة المستضيفة بها، والدور الذي لعبته مصر مع غيرها من دول العالم الوثنى في توليد مسيحية جديدة يزدوج فيها مبدأ التوحيد والتعدد.

وتنطلق من هذا السرد الجميل أن مصر كانت وثنية في أغلب عصور الفراعنة، وأن النصرانية التي أرسل بها عيسى كالإسلام الذي جاء به محمد ديانة وافدة من الخارج.

وهذه أو تلك لا يقدح فيهما ولا يزكيهما وصف بالغربية أو الألفية، فإن الدين كالعلم لا وطن له.

وأن المسيحية التي انتشرت بعد في مصر لقيت حميتها ورواحها على أيدي الرومان والمختلين للبلاد.

وكان جمهور الصليبيين ينظر إليها على أنها بعض مظاهر السيادة الأجنبية.

وأن عبادة الأصنام ظلت متملقة في مصر قرابة ثلاثمائة قرون لم يزقتها بطاركة الكنيسة ما يزعج مسيحيتهم.

وأن الصليبيون لما استتب فيهم أن الثالوث المسيحي بعيد للثالوث المصري القديم أقبلوا على المسيحية باعتبارها فلسفة مصرية بحثها، وليست ديانة يفرضها الرومان الغاصبون لبلادهم.

**

وهذه الخلاصات يمكننا أن نستدل عليها جميعًا من النواق وتعليقات التي ذكرها المؤلف الصليبي في الباب الأول من كتابه.

ثم أمر آخر عن الكاتب ببرزه.

وهو أن الكنيسة المصرية شقت عصا الطاعة على كنيسة "روما" لأسباب سياسية مجردة.
فإما ثبت المسلمون أمام لدد الكنيسة المتخصبة، وإما أحرقتهم نارها فلم يبق لديهم أثر.

وكان لهذا الحزب أطيب النتائج.

فخرج المسلمون في تبعية لم يخرجوا من قبل في مثلها، فانطلقوا صوب الشمال حيث تربض جيوش الروم.

فلما وصلوا إلى تبوك، أحس الروم أن هذا الجيش أقوى مما يطبكون لقاءه، فاختفوا داخل حدود الشام.

وعسكر النبي وصحابته بإزاء هذه الحدود أميداً يسيءاً، ولم يفكروا في اجتيازها لأنهم لم يخرجوا من بلادهم مهاجرين!.

فبقوا في أماكنهم قدر ما تشعر القبائل القاطنة بالحدود، وقدر ما يشعر النصارى أنفسهم أن المسلمين ليسوا ضحايا سهلة المنال.

وفي تبوك عقد النبي معاهدات صلح وأمان مع طائفة من هذه القبائل.

ثم قفل بعدها عائداً إلى المدينة.

***

لو كانت لدى النصارى الروم نية خير تجاه الدين الجديد لوقفوا في الميدان مستندين إلى قواتهم الكثيفة.

ثم فاضموا المسلمون في عقد معاهدة متكافئة تحفظ لكلا الدينين كرامته، وتبني الحرية لمن شاء أن يعتنق أي الديانتين أحب.

لكن، هل عرف هذا الاتجاه في تاريخ الكنيسة قط حتى يطمع في مثله؟ إن الروم لا يجول بخلدهم أن يعتبروها بهذا الدين، وأن يطمئنون مكاناً مساوياً بعقيدتهم، بل أن يوقوا صاحبه أو يكرموا أتباعه!

إنهم تراجعوا وراء حدودهم، كما تمكن الخيبة في جحورها تنتظر الفرصة السانحة للدغة القاتلة.
وإذا كان هذا الكاتب صادقًا في تصويره للوقائع التي تضحت عن المذهب الجديد فإن ذلك تسجيل حاسم للرب الذي تغيث بحملة العقائد المسيحية:

لا الواردة في العهدين فحسب، بل الناشئة عن قرارات المجامع المختلفة!

وأيًا كان الأمر فقد اضطربت الصلات بين مصر وروما وأتسعت الفجوة بين الكاثوليك والأرثوذكس.

حتى إن المصريين فضلوا أن يحكمهم مجوس فارس عن أن يظلوا خاضعين للمسيحيين الرومان!!

إنهم كانوا يريدون البقاء على مذهبهم الدينى آمنين، وهذا ما كان الرومان يضحون به...

زيد على ذلك أثقال الضرائب التي فرضها الحكام المتعسون.

إن مصر المسيحية في ظل الإمبراطورية الرومانية المسيحية ظلت تنمو بما يتحمل حتى خارت قواها، ولهلعت على مر الليالي السود إلى مستعمرة تزدهم بالرعاية والعبيد.

الإسلام يدخل مصر:

تختلف نشأة الإسلام اختلافًا كبيرًا عن نشأة النصرانية.

كانت النبويات وقادته الذين دعوا إلى الإسلام، أو الزينب، أو الآمن، أو داوود، أو همود، او نابت من أصول تابعة للمسيحية.

ووعدها صدور القراء الذين استظهرو كلمة كلمة.

والذين بلغ من كثيرهم أن تكون منهم فرق مقاتلة كان لها أثر عميق في حرب الردة.

ووعده كذلك صحائف الكتاب الذين سطروا أي الوحي في أوراقهم.

فلم يل القلم إلا والكتاب السماوي يكتب ويروا في نطاق بعيد المدى.

ولا شك أن حرف القرآن من ذلك لا يذكر إلا جانب أبدًا حروف الإنجيل.
وعلى رأسهم «العباس بن مرادس» ومن «أشجع» و«غطفان» الذين كانوا لحلفاء اليهود، حين نكث اليهود في خيبر، ومن «عيسى» و«ذيان» و«قزارة».

فكانت وقعة «مؤثرة» سببًا في استتباب الأمر للمسلمين في شمال المدينة إلى حدود الشام.

أضاعوا الرومان أن تطور الأمور إلى هذا المصير؟ لقد تضاعفت واسوس النصارى ونت مخاوفهم وزادهم حينًا أن يتكون تقويم العرب في «مؤتمن» إلى انتصار يستدير إعجاب الناس ويرفعهم باعتناق الإسلام.

والمدينة لا تطبق أن يعيش بجانبها رأي يخالف في الفروع التائفية، فكيف تساح بالبقاء لدين ينكر سلطة رجالها، لأنه لا يرى بين العباد وهم وسائط، ويتنكر عقيدة الفداء التي ترتبط عليها، لأنه يبين الجزاء على عمل الإنسان وحده.

فليس للإنسان إلا ما سمع، ولا تزور أزمة وزر أخرى، ثم هو يشكر مبدأ الشركة في الألوهة، فليس للعالم إلا راب واحد يخضع له «عيسى» وأمه.

لذلك رأى الروم أن يعيدوا الكورة في ضربوا الإسلام في شمال الجزيرة ضربة ترده من حيث جاء، وتوصد عليه أبواب الحدود فلا يستطيع النصرب منها، وتضمن الكنيسة انفرادها بالضمير البشرى، حتى إذا قرعت أجراسها لم يشب رنينها صدى لذاذ يهتف بتكرير الله وتوحيدته، ويدعو للصلاة والفلاح.

وتمت إلى النبي في المدينة أنباء هذا الإعداد الماكر.

وتأخر النصرانية منذ تولت مقاليد الحكم يؤكد نية العدوان لدى رجال الكهنوت.

فلم يترك النبي بدأًا من استنفار المسلمين لملاءة هذا العدوان المبتدئ.

والتهديد لملاقات الروم جاء في أيام قيظ وفجح، والسيري إليهم يتطلب جهدًا مضنيًا ونفقة كبيرة.

وقت النور ليس صدامًا مع قبالة محدودة العدد والمثة.

بل هو كفاح مرير مع دولة تبسط سلطانها على جملة قارات، وتمتلك موارد ثراء من الرجال والأموال...
فلا جرم أن يرفض الإسلام أي مساومة على منحه حق البقاء، وأن يمضى في طريقه مستندا إلى مبادئه وحدها وضحياته المؤمنين بها.
فما ان استقر له الأمر حتى بدأ يجلي جيوش الروم والفرس عن الأقطار الفسيحة التي احتلت رقعتها واستهلكت أهلها. على ما قصصنا عليه.
وانتهى مصر قريب الفتح الإسلامي يتنازع احتلالها الفريقان معًا، حتى انهزم الفرس آخر الأمر أمام خصوصهم فتوطد ملك الروم بها.
وأصبحت بموقعها ومواردها معوانا قوياً للروم في القتال الذي دار بينهم وبين المسلمين.
جيش عمرو:
قرر أمير المؤمنين "عمر بن الخطاب" فتح مصر، وسار إليها الجيش الراحل بقيادة "عمرو بن العاص" فأخذ طريقه إلى القاهرة حيث التقى بهم جيش الروم وفيه الجاثليق "أبو مريح" ومعه الأسفاق الذي أرسله الموقوع.
وقبل أن تستجيب القوى المتواجدة للنزول قال "عمرو" لقادة الروم: لا تعجلوا حتى نعذر إليكم! وليبرز إلى الجاثليق، والأسقف، فخرجوا إليه، فدعاهم إلى الإسلام أو الجزية، وأخبرهم بوصية النبي صلى الله عليه وسلم. فقال، والله، فإن هاجر أم إسماعيل جد النبي عليه الصلاة والسلام من مصر.
روى مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القبرات. فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمة، أو ذمة وصهر" فقالا: "قراءة بعيدة، لا يصل منها إلا الأنباء".
ثم قالا لعمرو: "أنت حسب نهج إلتك" فقال لهما: "متى لا يخدع ولكن أولاً أعلمكم ثلاثاً لتنظروا".
قالا: "زمنا..." ففرادهما يوما.
فرحنا إلى الموقوع بطريرك الأقباط، وإلى "أرطرون" الوالي الروماني فأخبرهنا خبر المسلمين.
ويبدو أن البطريرك القبطي كان زاهدًا في قتال العرب.
وأوعزوا إلى القبائل النصرانية المناخمة لحدود الشام أن تقف سدًاً منيعًا دون أي تقدم قد يحرزه الإسلام في هذه البقاع.

فلما بعث النبي وفدًا من الدعاة المسلمين يعلمون الناس مبادئ الإسلام، وثبت عليهم جميع العرب الموالي للروم فقتلتهم جميعًا في مكان يسمى "ذات الطح" وكانوا خمسة عشر داعيًا، واستطاع رئيسهم النجاة بأعجوبة...

وتمكن أعرابى من قبيلة "غسان" أن يقتل رسولًا بعشه النبي إلى الوالي الروماني على بصرى (1) يدعو إلى الإسلام.

وأشع أن هذا الاغتيال كان برضآ "هرقل" نفسه.

ونحن نستحب هذه الإشاعة، ونرى أن المتخصصين من الفقها هم الذين ارتدوا هذه الخطة في مقابلة الدعابة إلى الإسلام.

فإن موقف "هرقل" من الرسالة التي جاءته يثبت عن حضوره وتنزهه عن إرتياد هذا المسلك الدنيء.

وليس أمام المسلمين إزاء هذه الحوادث إلا أن يردعوا الروم وأشياعهم حتى لا يعاودوا هذا التهجم.

فأرسل النبي حملة تأديبية من ثلاثة آلاف مقاتل أخذت طريقها إلى الشام.

بيد أن الروم كانوا قد استعدوا بجيش كثيف للقاء هذه الكنيسة من المؤمنين المتحمسين. فجمعوا نحو مائتا ألف من رجالهم، ومن انضم إليهم من قبائل لحم وجذام والقين.

وبهاء ولي. و

وماذا عسى يصنعه ثلاثة آلاف أمام مائتين ألف؟

ولكن حرارة اليهود جعلت الكنيسة المتنافية تتجاوز بالاشتباك مع جيش يربو عليها سبعين مرة، فقتل قادتها الثلاثة على التعاقب، زيد بن حارثة، وعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة.

(1) اسم مدينة.
على ألا يُفِزُوَّا، ولا يُبُتِّعُوا من جَبَة صادرة ولا واردَة.
شهد الزبير، وعبد الله ومحمد، ابناه، كتب وراد وحضر...». 1-هـ.

********
إن المبادئ الهامة التي تضمنتها هذه المعاهدة تعد صفحة جديدة في تاريخ العصور الوسطى.
وفي على نسق المعاهدات التي أبرمها المسلمون مع كثير من الشعوب التي طردوا
الفرس والرومان منها.
ويجب أن ننكر هنا بعض الأسباب التي جعلت المصريين يستريحون لهذا العهد
المعروض عليهم ويضرون راضين.

1- فقد استردت البلاد حریتها الدينیة کاملة، وتلت ضمانتاً واضحًا أن تبقى
للمعاود قداستها فلا يقتتحها أحد، ولا تتجاوز شاعراً.
وكان الأقباط محرومين من هذا الأمان في أثناء حكم الرومان، لاختلاف المذهب
الديني، وإن انتمى الفريقان للنصرانية!

2- خف حمل الضرائب التي يدفعها المصريون للمحاكم الإسلامية.
إذا تعدى مصر على عهد الفتح الإسلامي ببلغ عشرة ملايين ساكن.
وكان الحد الأعلى لضريبة الجزية خمسين مليونًا من الدرهم، أي متوسط ما يؤديه
الفرد للحكومة خمسة دراهم في العام، نحو عشرة قروش، مع أن الرومان كانوا
يستكرون المصريين على دفع جملة أنواع من الضرائب الباهضة...

3- يلاحظ أن هذه الضريبة كانت تنقص تبعًا لبعض الفيضانات، ولكنها لا تزيد
على النسبة المقدرة، كما أنها تؤدى أقساطًا ثلاثة على مدى السنة.

4- هذه المعاهدة معقودة مع المصريين الذين هم أصحاب البلاد.
فإذا رغب روماني أو نوبى الدخول فيها، فله حق المعاملة بالمثل، وإلا فعلى العرب
أن يصوون دمه وحقوقه كلها حتى يبلغ المكان الذي يأمن فيه على نفسه، أو يقطع
عنده سلطانهم.
فإن محمدًا لم يحبس في بيته هذه الثياب، وهو الذي عرف بين خصومه وأحبائه
أنه: "يرفع ثوبه ويصفف نعله".
ولا شك أن ألف ثوب يكسى بها عرب الصحراء أرتفق بنصاري اليمن من القناطير
المقنطرة التي كان يدفعها النصاري صاغرين لرسول كسرى: كي يزدان بها إيوائه
الأبيض في الدائر.
لكن وثنية فارس أحب إلى هذا الكاتب الصليبي من دين محمد.
ولذلك يظهره في كتابته النافية كأنه زعم قبائل ثارت بحثًا عن الفوائد المادية (1).
فوائد مادية لمن؟ إن القرآن يقول: "واعلمون أنتما غنمتم من شيء فأن لله خمسه
والرسول ولذي القربي واليتامى والمساكين وابن السبيل" (2).
 والنبي يقول: "ليس لي من مغنمكم إلا الخمس، والخمس مردود علينا".
والعلاقة في الاستناد على الخمس وإعادة توزيعه على الجهات المحتاجة تعود إلى
إقامة التوازن الاقتصادي بين طبقات المجتمع، كما نص القرآن في تقسيم الفيء، قال
عز وجل: 
"ما أفاء الله على رسوله من أهل القروى فله، ولرسول ولذي القربي واليتامى
والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الأغنياء منهم..." (3).
فأي نفع مادي يزعم الكاتب في هذه الشؤون؟
ثم يمضي الأفاك في هذه قائلًا:
"لم يجعل أحد على فرض الجزية على هؤلاء العرب النصارى".
وهذا كذب فقد فرضت عليهم الجزية ودفعوها.
ويقول كذلك في ص: 29: " حرس المسلمون أشد الحرص على عدم جرح
عواطف مواطنيهم المسيحيين".
والواقع أن المسلمين لم يحرحوا عواطف النصارى عربيًا ورومًا.

(1) الأنفال : 41 (2) الحشر : 7.
هل استنتج من هذه العداوة ميل الأقباط إلى التعاون مع العاقب المسلم؟... إلخ ص ٢٠٠.
فالأمر في وهم هذا الكاتب لا يرجع إلى الإسلام لأنه دين عدل، ولا إلى صاحبه
لأنه نبي سميح! لا.
إذا أحقاده لا تطوع له أن يتصور هذا العرض القريب المتمشى مع مسلك المسلمين
في البلدان المفتوحة كافة.
فثإره برما يرى من عاطفة نبيلة إلى أسباب ما يليق إسنادها لنبي أرسله رب
المسلمين.
على أن الكاتب خبط في جمع الشواهد التي تدل على رعاية النبي لأهل مصر،
فهناك أحاديث صحيحة لم يذكرها، وهناك أحاديث مكنوبة وقع عليها في كتاب
الأخبار، وفاء بها إلى كتاب الشروان بالفتوتات.
كأنما يتأتي طبعه - وهو يستندل لغرض صحيح - أن يتأتي بحديث صحيح!
من ذلك ما نسبه إلى النبي - وهو باطل - «لو بقي إبراهيم ما تركت قبطيًا إلا
وضعت عنه الجزية».
فإن بقاء إبراهيم وفاته سواء بالنسبة إلى أحكام الشرعية، وما يملك أبوه نقض حكم
أبرمه الله.
والجزيرة يضعها عن نفسه مين من يمتنع عن محاربة الإسلام.
فأنا من حاربه أو أعان من يحاربه فمن حق المسلمين أن يجردوه من سلاحه، على
أن هذا التجريد لن يغرى أحدًا بالعدوان عليه.
فإن المسلمين أنفسهم سيتلون حمايته بنفقة مشتركة بينهم وبينه.
ومن الأكاذيب التي رواها الكاتب منسوبة إلى النبي أنه قال للمسلمين:
«يكفونكم - يعني الأقباط - أعمال الدنيا وتغردون للعبادة».
وهذا لغو سخيف، فإن التفرغ للعبادة في نظر الإسلام معضة!
والمسلم الذي يغاد عن شؤون الدنيا منظورًا من الآخرين أن يكفوه همومها ويحمو
جهودها رجل متسول تافه.
وأن النصارى - وهم سكان اليمن يومًا - كانوا مطلقي الحرية في إجابة داعي الله أو الإعراض عنه.

وأن الرسول ﷺ حرم على ولاته ظلم الناس ولو كانوا كفّرًا، فإن اختلاف الدين لا يبيح التظلم بين التعاملين والمجاورين.

بل إن ظلم حرام ولو على أمير سبيّ.

روى أحمد عن أبي هريرة: "دعوة المظلوم مستجاباً، ولو كان فاجرًا، ففجوره على نفسه".

إن الرسول الكريم لم ما تمكن من بسط رواق الإسلام على الجزيرة كلها أخذ صاحبته بتعليم مشددة في ضرورة إشاعة العدل وحبر الدقة في تطبيقه على كل فرد وإظهاره في كل عمل.

روى أحمد عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: "إن الشيطان قد ينس أن يعبد الأصنام في أرض العرب، ولكنه سيرضى منكم بدن دخان ذلك بمخازن يرى الموتات يوم القيامة. انظروا ظلم ما استطعتم، فإن العبد يجيء بالحسنات يوم القيامة يرى أنها ستنتجه فما زال عبد يقول: "بارب ظلمني عبدك مظلمة"، فيقول: امحوا من حسناته، ولا يزال كذلك حتى ما يبقى له حسنة، من الذنوب- المظلوم- وإن مثل ذلك كسائر نزلوا بفراش من الأرض ليس معهم حطب، فترفقات القوم ليحتطوا فلم يلبثوا أن حطموا فأعظموا النار، وطبعوا ما أرادوا، وكذلك الذنوب".

هذه تعاليم المنتصر، ولكل أوامره في معاملة الناس.

وكان "نجران" إحدى القبائل المسيحية التي تقطن الجنوب - من بين الذين شملهم هذا العدو الربح، فما وقع على فرد منهم غيبن ولا أكره على إيمان.

ولماذا يستثنون من التعليم التي ذكرناها أنفًا؟

لكن الكابب الصليبي الحقوذ لا يعلق بحرف على خضوع اليمن كلها للمجوس فارس.

وإذا تعلت نيرانه لسيطرة الإسلام على العرب في وسط الجزيرة وجنوبها.
هل أضرت بأهل المسلمين سماحتهم؟
الذين أمنوا الذين قالوا إننا نصارى ذلك بأنهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون\(^{(1)}\).

والواقع أن النصارى المعتدل يجد أحسن ما يضمن إله من دينته واضحًا في الإسلام.

ولأجد في الإسلام النقائض المستحيلة التي يجدها في دينته.

وهذا سر إسلام الألف المؤلفة من الشعوب المسيحية.

على أن هناك وفودًا أطلق الكلام مع النبي في شأن عيسى وأصرت على إشراب شخصه معنى الألوهية!

وقد وقف النبي من هذه الوفود موقفًا يعتبر آية في الإخلاص، والفناء في نشان الحق.

إذ طلب من مجادله أن يصلوا لله جميعًا مستنذلين اللعنة على من يكتب ويظلم:

«فسن حاجك فيه من بعيد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءكم وأنفسكم ثم نبتهل فتجعل لعنة الله على الكاذبين».

«إن هذا له الفقصن الحق وما من الله إلا لله وإن الله له العزيز الحكيم»\(^{(2)}\).

وثبت من وقائع التاريخ أن الوفد المسيحي رفض أن يردد مع الرسول هذه الدعوات.

وهو رفض بدل على أن أولئك المنصرين من العرب ما كانوا يجزمون بفكرة قاطعة في شأن عيسى.

وأن تأليفهم له لا يبدو أن يكون اتباعًا للظنون، وتقليدًا لأباه.

وأما أكثر هؤلاء الواحين بين جمهور المسيحيين.

إلا أن النصارى بدأت تناوش الإسلام فعلاً عندما أحست بذراعه تنداد، وبدأت

(1) المائدة : 82، 62.
(2) آل عمران : 61، 62.
يقول الكونت الباحث: إن فينا من يستغزد أخذ الإسلام للوثنية بالشدة أخرى
الأمر، وكيف طاردها الإسلام حتى قضى عليها في جزيرة العرب.
ثم يقول: لكننا نقرأ في الكتاب الخامس من الزبور أمرًا بالتشدد في معاملة
الوثنيين:

«إذا أدخلك ربك في أرض تتملكها، وقد أباد أباً، كما لم تكن له شقيقًا بردًا»
حتى تفشيهم عن آخرهم، ولا تعظيم عهدًا، ولا تخذل نفسكم شقيقًا بردًا.
كذلك أمر الله إسرائيل باستئصال سكان المدن التي اختص بها قومه، ولم يرض
بالشفقة إلا على المدن البعيدة، التي لا تصل عدواها إليه،!!
وكتب القديس «أوغستان» إلى الكونت «بونيفاس» يشير عليه باستخدام القوة
لرد أهل البعد وردهم إلى النصرانية.

وقد اعتبر المبشرين في الكنيسة كابلمال التي تعش وتفسر قومًا يغفلونها ما
أصابها، وهم مكرهون على تعذيبها ليمتنعوا من تضمن جراحها.
قال الكونت هنري: «ويحسن هنا أن نقابل بين تعاليم أبي بكر في حروب القدب،
وتعاليم الكتاب الخامس من الزبور فيما يتعلق بمعاملة الكلدانين».

قال: «إذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الأمان،
فإن قبلكه فقد سلم كل من فيها، وإن أبت وبدأتك بالعدوان فشدد الخصر عليها.
ومتى وفتك الله للظفر بها فاحظ رأس كل ذكر فيها بحد الحسم.».

* * *

لا يلاحظ الكونت أن المسلمين فرقو لأول يوم من قيام أمرهم بين عباد الأصنام
وبين اليهود والنصارى، ورسموا لكل منهما معاملة خاصة.
كما قرن أن الدولة الرومانية أسات السيرة داخل حدودها وخارجها.
فكان المسلمون أجد بسيادة العالم منها.

وقد أقر الأب «بروغلي» بعظمة محمد وفضل أصحابه وقال:
إنهم انضموا - بعواطفهم - أول الأمر إلى عبادة الأصنام!
فلما رأوا كفّة الإسلام توسَّك أن ترجح، انضموا بأسلحتهم إلى الجانب المناوئ
للدين الجديد، دين التوحيد والأخوة!!
وقد غير المسلمون موقفهم تبعًا لما طرأ على معسكر خصومهم من تغيرات.
فقبل أن ينضم اليهود إلى جانب الوثنيين، كان القرآن يوصي بالصفح عن أذاهم:
"ودَ كُثِيرَ مِن أُهْلِ الْكُتَّابِ لَيْكُونُوا مَنْ يُقَاتِلُوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيَمانِكُمْ كَفَارًا حِسَدا مِنْ عَدَدَ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَأَصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِي الْلَّهُ بِأَمْرٍ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلٍّ شَيْءٍ قَدِيرٍ".
(1)
على حين يقول في السورة نفسها قاصداً عباد الأصنام:
"وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى نَفْتَمَوهُمْ وَأَخْرَجَوْهُمْ مِنْ بَعْدِ أَنْفُسِهِمْ وَفَتَتَأْوِهِنَّ أَشْدَ منَ القُتْلَ وَلَا تَقَاتِلُوهُمْ عَنْدَ المسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يَقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنَّ قَاتَلَكُمُ فَقَايِلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ".
(2)
فلما انحاز اليهود إلى المشركين في معركة الأحزاب وحاولوا معهم إسقاط المدينة
وهي عاصمة الإسلام يومئذ، قال الله عزوجل - واصفاً ما نشب بين المسلمين واليهود
من عراك -:
"وَآوَى الْأَزْيَدُ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أُهْلِ الْكُتَّابِ مِنْ صَيْدَاصِهِمْ وَقَذَفُ فِي قُلُوبِهِمْ الرَّعْبَ
فِرِيقَ تَفْتَنُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرْيقًا".
(3)
اتسع نطاق القتال بعدما تظاهر المشركون وأصحاب التوراة ضد الإسلام ثم زادت
حدوده بعدما تكافت سكان الجزيرة كلها على حرب المسلمين.
فنزل قوله تعالى:
"وَقَاتَلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافِرًا كَما يَقَاتِلُونَكُمْ كَافِرًا وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ".
(4)

* * *

(1) البقرة : 109.
(2) البقرة : 191.
(3) الأحزاب : 22.
(4) التوبة : 33.
وَكَمْ سَبْبٌ أُخْرَى لَانْتِشَارِ الإِسْلاَمِ وَاِمْتِدادِ سَلْطَانِهِ وَإِقْبَالِ الجَماهِرِ عَلَى اِعْتِناْـقِهِ؟
ذلكم هو استبداد الرومان الذي بلغ منتهى العسف.
لقد وصل جور الحكام إلى درجة أزهقت النفوس.
فلما جاء الإسلام تراموا إليه هريًا من الضرائب الفادحة واستلاب الأموال.
فكلما أسلمت عشيرة رفعت عنها أثقال المغارم التي بليبت بها وردًا إليها حقها المسلوب.
وبذلك أمنوا في ظل الدين الجديد ولم يتعرض أحد لعقائدهم.
ولم يفرق الإسلام بين أصلي في الكنيسة أو منشق عليها، يعني الكاثوليك والأرثوذكس.
وسمي هؤلاء جميعًا ذهين، ومن الخطأ الفاحش استعمال لفظة «ذمي» في معنى الخسة والهونل لأن معناها الحق «مؤمن»...
ثم قال الكونت «هنري دى كاستر»:
«إن الدولة الإسلامية لما استقرت في الشرق لم تعارض المسيحية أو تضع أمام بنائها عائقًا.
فظلت «روما» حرة في مرسلاتها مع الأساقفة الخاضعين لحكم المسلمين.
وفي سنة 530 م. كتب «البابا ليون» التاسع إلى نصارى إفريقيا توصية باعتبار أسقف قرطاجنة مطرانًا عامًا.
وكان الوئام مستحكمًا بين المسلمين والنصارى.
حتى إن البابا «غريغوريوس» السابع كتب يلومهم على المحاكمة مع أسقفهم أمام المسلمين سنة 720 م.
ومع التسامح المطلق الذي أبداه المسلمون مع التشرُّحانية فقد ضعفت جدًا حتى زالت من شمال إفريقيا.
ولنذكر أن الإسلام لم يكن له موظفون خاصون بالدعوة إليه والتبشير بهذه المبادئ.
ولو كان له أناس قائمون بهذه الوظيفة لسهل علينا تفسير امتداده وانتشارها...»
وبذلك استطاعت الأجناس الداخلية في الإسلام أن تجمع بين السياضتين العلمية والسياسية.

* * *

إنه منذ كون الإنجليز "إمبراطوريتهم" ما تحول الحكم عن جنس معين ولا انتقل من عاصمة معينة.

أما الدولة التي أقامها الإسلام، فما أكثر الأجناس التي امتلكتها!

وما أكثر العواصم التي تنقلت فيها بين الشرق والغرب! ذلك أن الإسلام - كالعلم - لا وطن له، وليس له مستقر يأزر إليه إلا القلب الإنسانى الكريم.

بل تستطيع القول بأن عدالة الإسلام المطلقة في المساواة بين الأجناس ومحق الفوارق الخاصة، قد استغلت ضد استغلالًا قبيحًا.

فقد تطلعت إلى حكم المسلمين جميعاً عناصر من الأتراك والأعجام والابتاء، بالعربي، مع أن الرسول في لغة العرب ضرورة لا بد منها لفهم الدين قبل الحكم به.

فنم قامت دول إسلامية قوية من الأتراك، لم تحس سياسة رعايةها، ولا سياسة الأجانب عنها، فألحق بالدين وأهله أضرارًا فادحة.

أقترب أن العرب يتحولون إلى رعية في ميدان العلم، ثم إلى رعية في ميدان الحكم، أو أن أسلوبهم في أيام الفتح كان قائمًا على إهانة الأم المغلوبة، ووضع أبنائها في مراكز دينية؟

إن العرب الأوائل أدوا رسالتهم على نحو لم يعرف التاريخ - ولن يعرف - مثيلًا له في نزاهته وترفعه.

وإذا ذكر الصحابة الأتمداد الذين حرووا الأم من إسرار "كسرى" و"قيصر"، فلذكر رجلاً آثر الموت على الحياة، وأثروا ما عند الله على مرات الندي، إنها فطر من طراز لا تعرفه دنيانا الغاصية بالطعام والأهواء، ولا يستطيع أن يفقه سموها كتاب ملوثون وباحثون مغرضون.
ونحن لا يفني عجبنا من سفاهة الأمويين في هذا السلوك، فكح الله صنيعهم!
كيف يصدون عن الإسلام من تنشر صدورهم به حرصًا على درهماتهم ينفقونها في
مليئتها؟
إن هذا إن دل على شيء فعلي مبلغ ما عانى هذا الدين الكريم من سفاة ملوكه
الأولين وحكومته المستبدين...
ثم تحدث الكونت عن الحكم الإسلامي في الأندلس، فأبان تسامح المسلمين
العظيم مع الأسبان، وكيف حاسموه حتى صاروا في ظلهم أهناً عيشًا ما كانوا عليه
أيام خضمهم لحكمهم القدماء من "الجيماران".
يقول "دوز" إن الدولة الإسلامية أبكت السكان المسيحيين على دينهم وشرعوا
وقضائهم، وقلدوهم بعض الوظائف.
حتى أن أحدهم تولى قيادة الجيش مثل "سيد".
وينتج عن هذه السياسة الرحيمة انحياز عقلاء الأسبان إلى المسلمين، وحصل
بينهم تزاوج كثير، واندماج ظاهر.
فكان القسس يلومون النصارى على هذا الانعطاف وبحضورهم على العودة إلى
إخوان الكنيسة...
ولما وقع الاضطهاد الأوروبي على اليهود، وفر هؤلاء المنكوبون إلى الأندلس، وجدوا
في رحلتها الأمان والسلام!!
لكن الملك "كارلوس" لما دخل "سراقسطة" أمر جنوده بهدم جميع معابد اليهود
ومساجد المسلمين...!!
ونحن نعلم أن النصارى ما دخلوا بلدًا في إبان الحروب الصليبية إلا أعملوا السيف
في يهودها ومسلميها على سواء...!!
وإذا كان الجنس اليهودي قد بقي في العالم إلى الآن فإن مرد ذلك إلى قيام الدولة
الإسلامية في العصور الوسطى.
ولو بقى النصارى يلومن السيطرة على العالم لقضوا على اليهود قضاء مبرمًا...
وفدحة المسلمين بالداخل في دينهم تتوارثها العصور إلى يوم الناس هذا.
والمسلم الذي يوفق إلى هدایة امرئ حبیر، يستطع شرح صدره بالإيام، يحس
بأنه ادخل لنفسه من المثوبة عند الله ما يقر عينه ويشيع الغبطا في حياته كلها.
وكيف لا؟ وهو يستمع إلى قول النبي ﷺ: "لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا
خير لك من الدنيا وما فيها".
لا جرم أن السلف الصالح خفوا إلى استقبال الأفواج الداخلية في دين الله.
وعواطف الترحيب تهز جوانهم.
حتى إذا مضت الأيام على استقرارهم في الديانة التي أثرواها، أضحى السابق
واللاحق مشرويا متساوئا في حمل مغارما ومعانا.
فإن يكن موضع الملاحظة من القبيل الذي أشار إليه الكاتب الصليبي أنفًا فإن
المؤرخ المنصف لن يفوته أبدا تسجيل المزايا التي حصلت عليها الشعوب الداخلية في
الإسلام على حساب العرب أنفسهم.
ذلك أن خلو الدين من تفضيل جنس على جنس، وتسويته المطلقة بين من اعتنقو
كافة. سمح للفرس والرومان والترك وسائر الملوك أن يزاحموا العرب بالمناكب في ميادين
النشاط العلمي والأدبي والفنى، وأن يتنزعوا القياد منهم في هذه الآفاق الخرة.
فلما قضى خمسة سنة على ظهور الإسلام حتى كانت الكثرة الساحقة من فقهاء
الأمصار الكبرى رجلاً من الأعاجم وغيرهم، وصلوا إلى أماكن الصدارة دون أن يجدوا
أمامهم عائقاً 

وإذا نتلقى نظرة على تاريخ الإسلام الطويل، فنجد أن علوم الشرقية من تفسير
وːستة وتشريع، بل علوم اللغة العربية نفسها، قد بلغت قمامها واعتلت قمتها على
أيدي رجال لا ينتمون للعروبة إلا بصلة التجنس.
ولولا الإسلام وما بنته في النفوس والجماعات من سماحة مشكورة ما حدث هذا
قط.
والغريب أن طلاب التظهر ومحبي الاستشهاد من أجل النصرانية لم يجدوا باباً لارضاء المسيح ونيل غفرانه إلا بهذه الطريقة البذيئة. 
فقتل أحد عشر شخصًا في شهرين بهذه الجريمة...
مع أن القضاة كانوا يصومون أذانهم حتى لا يحكموا على أحد.
وطالما أوعزوا إلى الحجاب أن يمنعوا من الدخول أمثال أولئك السفهاء...
وقد ندد عقلا النصارى بهذا المسلك، وأوهي انتخابًا شائناً.
غير أن "أيلوغوا" ورقاءهم من القساوة الحاقدين على الإسلام حسبوا ذلك انتصارًا لدوعتهم وتدعيمًا لكيسيتهم، ورموا مخالفتهم بخيانتهم المسيحية، وألحوا على رعايهم بضرورة سب محمد ودينه، حتى أشعوا الهياج في كنائس الأندلس كلها...
فاستولى الفلق على حاشية الخليفة وطلب "عبد الرحمن" الثاني الاجتماع برؤساء القسس كي يستفيه فيما هو حاصل من أتباعهم؟
فسكتوا عما وقع في الماضي، وتعهدوا بالكف عن مثله في المستقبل!!
ورأى الخليفة ألا يحضر أمام القاضي مسيحي في مثل هذه الأحوال إلا إذا رفع أمره إليه ليبت فيه بنفسه رغبة منه في حقن دماء الخبلين من أولئك النصارى المتخصصين.
ومع هذا النبل الرائع فقد ظلت خواطر النصارى مهتبجة حتى سنة 859. 
هذه فتنة "أيلوغوا".

* * *
إن الذين يدبرون الجريعة لا يعجزون عن تبريرها وعن تعميل الآخرين تبعتها، وهذا ما فعله الراهب السقيم "أيلوغوا" إذ سمى الفترة التي وقعت فيها هذه الأحداث "عصر الاضهاد في قربة"(!).
وتبعت في هذه التسمية الوقحة بعض المؤرخين الصليبيين...
وأحب من القارئ أن يلقى بالله إلى هذه الحادثة وأمثالها.
ولا حرج من أن ننقل المحاوره كلها لما تضمنت من دلالات شتى:

«نادى جورج: ليخرج إلى خالد، فخرج خالد حتى التقى به بين الصفين.
فلما أمعن كلاهما صاحبه، قال جورج: يا خالد، أصدقني ولا تحذبني، فإن الخير لا يكتب ولا تخاذع فإنه الكرم لا يخاذع المسترسل.
بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفًا من السماء فأعطاكه فلا تسله على قوم إلا هزتهم؟
قال: لا!
قال: فهم سميت سيف الله؟
قال: إن الله عز وجل بعث فينا نبيه، فدنى لنا، فدنى لنا، فدنى لنا، فدنى لنا...
إن بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا باعده وكنثاه!
فكن بكثبه وباعدته وقاتله.
ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتتابعنا.
فاله: أنت سيف من سيف الله سل الله عليه وسلم، ودع الله لبني النصر، فسميت سيف الله بذلك فننا من أشد المسلمين على المشركين.
قال: صدقتي.
ثم أعاد إليه جورج: يا خالد أخبرني... إلـ... إلـ... إلـ... 
قال: إلى شهادة أن لا إلا الله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله.
قال: فمن لم يجيكم؟
قال: فالأجزية، ومنعمهم - أي نحميهم - من أعدائهم.
قال: وإن لم يعطها؟
قال: نؤذّنه بحرب ثم نقابلنا.
قال: فما منزلة الذي يدخل فيكم، يجيكم إلى هذا الأمر اليوم؟
قال: منزلنا واحدة فيما افترض الله علينا: شريفنا ووضيعنا، وأولنا وآخرنا.
وحماقة هؤلاء المبشرين لا تقف عند حدٍّ، ألم يدخل أحدهم الجامع الأزهر في العصر الأخير ليدعو فيه إلى النصرانية؟
إن ذلك يبني عن مشاعر المقت التي طغت على عواطف أولئك الناس، فأفقدتهم اتزانهم، وأركستهم في أعمال ينفر منها الصبية.
لكن الحقد لا عقل له ولا ضمير.
قال «ميشو» في تاريخ الحروب الصليبية:
".. لما استولى «عمر بن الخطاب» على بيت المقدس لم يلحق النصارى ضرراً، فلا استعاده النصارى قتلاً، وأحرقوا اليهود حرقاً!!
وقال الخبر «ميشو» أيضاً:
".. مما يسفر له جدًا بالنسبة إلى المسيحيين أن تأتيهم المسألة وشرف العاملة من المسلمين ..».
قال الكونت هنري دي كاستري: "إن مبالغة المسلمين في الإحسان إلى خصومهم هي التي مهدت للثورة عليهم.
إذ اتاحت للمنتقصيين أن يجمعوا أمرهم على العصيان، وأن يستغلوا الفرص للقضاء على الدولة التي منحتهم حق الحياة .. وحرية التدين.
ولو أن المسلمين عاملوا الأسبان مثلما عامل المسيحيون الألم الساكسونية لأخلدوا إلى الإسلام واستقروا عليه».
ثم قال الكونت المنصف:
"إن الإسلام لم ينشر بالعنف والقوة كما يزعم المغلوبون.
بل الأقرب إلى الصواب أن يقال: إن مسألة المسلمين ولين جانبهم كاما السبب في سقوط دولتهم".

***
يا غوثاه أهل يبلغ الحقد بذويه حتى يتدلوا إلى هذا الدرك السحيق من الإسفاف؟
من قال من مؤرخى الأولين والأخرين:
إن صحابة رسول الله ﷺ كانوا ينظرون إلى الأم التي دخلت في الإسلام نظرة
تنقص؟ أو أنهم كانوا يخلونهم في مراقبة وضيعة?
إذا الأجناس التي دخلت في الإسلام لم تلق في وجهها أحدًا يزعم أنه أولى منهم
بالله أو أحق برسوله.
كانت الأجيال المتفلتة تدخل فيه كما تدخل الجماهير المرحة إلى حديقة عامّة،
لا حظر عليها ولا بوابة، ولا يفتر فيها أحد على أحد بأي إدعاء.
ولقد قال الله للرعيل الأول من أصحاب محمد ﷺ محددًا لهم مسلكهم من
المشركين المقاتلين -:
«إِنَّكُمْ أَوَلَادُوا الصَّلَاةَ وَأُتُورُ الزَّكَاةَ فَإِخْرَاجُكُمْ فِي الدَّيْنِ وَنُفَصِّلِ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»
(1)
ولم يجعل للقائمين بأمر الدعوة إلى الله منزلة معينة يستحقون بها تسمية خاصة،
بل زجهم في الغمار العام الذي يسوى بينهم وبين غيرهم تحت عنوان واحد:
«وَمَنْ أَحْسَنَ فُؤَدًا مَّمَّن دَاوَى إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ»
(2)
لا سيادة ولا تبعية، ولا مراكز أولية وأخرى ثانية، إنه من المسلمين فحسب.
وقد جرّت نصوص القرآن متراكبًا تؤكد هذا المبدأ.
فهدد الله العرب ففي إبان نزول الرحى أنهم إن لم يستقيموا على سواء الصراط،
وينهوا بأيام الرسالة التي وكلهم بها، فسوف يحرمهم من أفعالها ويلقي إلى غيرهم
بقالبها.
فإن الكل في ساحته سواء، لا يتزايد عنصر على عنصر إلا بمدى بلائه ووفاته لهذا
الدين العام:

(1) التوبة 11
(2) نصرت 233.
وعلم بالحدثة بعض الناس فأبلغوها إلى "ابن طولون".

فأحضر القائد والحاجب والراهب.

ثم قال للراهب: كان سبيلك ويدك - أي على القائد - بثلاثة آلاف دينار، حتى أخذها لك منه، وأجعل ذلك تأديبًا له ولغيره.

ثم قال للحاجب: والله لولا أنها مكرمة سارعت إليها، وجعل رغبت فيه، وقد قال الله عز وجل:

«هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟»(1) لعمرت بك المطبق "سجن ابن طولون".

ولكن احذر أن تنحر مثلها، ولا تستبدين بأمر تأتيه دون أن تعرفنا به، ولا تطوى على خبرًا ولا سرًا ولا قصة ترفع.

 فقال له الحاجب: أفلتني أيها الأمير ألقاك الله، فوالله لا أعود لمثلها أبداً.

قال: فانصرف إلى موضعك!

ثم التفت "ابن طولون" إلى القائد وقال له: أفي رفقك تقصير عن مئوتلك؟

قال: لا.

قال: فأخأر عنك استحقاقك تأخيرًا يضطررك إلى ما أنتبه؟

قال: لا. قال: فبلى! حال استوحت أن تأخذ من هذا البائع الضعيف ما تقطع به قلبه، وتكتب عينه، وتفرقه وأهله؟

فألف حاجه أوجب ذلك عليك، أو ضرورة دعتك إليه؟.. المطبق!

وأمر بسجنه!

وهكذا حبس القائد الكبير في قبئي مظلم!

* * *

ومن قرون فقد المسلمون سبقهم الأدبي والمادي فقدنا أزرى بأمتهم الكبرى وألحق بهم هزائم شنيعة.

(1) الرحمن: ٦٠.
الإسلام وحرب الأجناس:

لم يعرف الإسلام حرب الأجناس، ولا ينبغي أن تنسب هذه الحروب الداعرة لذين ما.

فإن الله لم يفضل لوًا على لون، ولم يؤثر بكرامته جنسًا دون جنس.

وما يزعمه الأقوياء لأنفسهم من ميزات هو إدعاء يسعد الناب والظرفر، لا الحق والبراء.

وقد استطاع العرب - برحمة الله وتأييده - أن يهيمنوا على العالم كله، وأن يكونوا الدولة الأولى فيه.

ورأى جاء من أعقابهم من افتخر بدنمه أو اعتز بعنصره - وهو في ذلك دعى مغفور.

ولكن الإسلام نفسه ورجاله الأولين كانوا أبعد أهل الأرض عن اقتراف هذا المتكر.

بل قد رأينا كسرى «يزدجرد» يقول لوفد العرب:

إني لا أعلم أمة في الأرض كانت أشقى، ولا أقل عددًا، ولا أسوا ذات بين منكم.

فما يجيبه أحد منهم بكلمة ينوي فيها بالدم العربي، ويرد اتهامات العاهل الفارسي.

إذا كان كلام «قيس بن زرارة» له:

أما ما ذكرت من سوء الحال، فكما وصفت أو أشد.

ثم إن الإسلام هو الذي رفع شأن العرب وأعز جانبه.

**

لذلك أخذتنا دهشة بالغة عندما تحدث الكاتب الصليبي في ص 26 عن التفوق العنصري عند العرب.

وقد نقل تحت هذا العنوان جملة مفتريات يجزم السذج بفاعتها! قال:

إن الإقامة في شبه جزيرة العرب، والتفوه باللغة العربية لم يكونا كافيين لاعتبار القاطنين فيها غريبًا إذا كانوا من المهاجرين، حتى لو كانت هجرتهم ترجع إلى عدة قرون.
إنهم يعبدون الله تبعًا ذهنيًا وليس لديهم من علامات أو وسائل خارج النفس.
وهم يرون في احتفالات النصارى ضربًا من الوثنية.
وهم... وإن سموا أرباب الإنجيل أهل كتاب لا يجعلونهم في الرتبة التي تلي المسلمين.

بل ربما مقوتوهم لأنهم غيروا ما أنزل الله عليهم من الدين!!.
ونحن ننبه مرة أخرى إلى أن الكاتب مسيحي فرنسي، وأنه يقول هذا في صدد التحدث عما تعانيه فرنسا من صعوبة في تنصير الجزائريين.

ولعلك تفهم بعدئذ بقية كلامه حين يقول:

.إن أعظم عامل في انتشار الإسلام -خصوصًا بين الزنوج- هو بساطة مذهبه وساحة تعاليمه، كما يبدو ذلك جلياً في آيات القرآن.

وهذا أكثر ملاءمة لطبائع الهمج الذين لم يعرفوا دينًا من قبل «كذا».
وكلما وجد الرجل الجاهل دينين متحدثين في تقريرهما لوحدانية الله وخلود الروح، كالإسلام والنصرانية تراه يختار الدين الذي لا يزيد شيئًا عن هاتين الحقيقتين، فيعتنق الإسلام لا محالة.

وهذه مزية يفضل بها الإسلام غيره في حسن التلقى وسرعة الانتشار، وهي مزية عرفت من القرن السابع عشر.

قال القسي «ماراشي» في كتابه «الرد على القرآن»:

ولا يغْيِبُ عن ذهن القارئ أن هذه الطائفة الشريرة، أو المغْرَفَة، أو ما تشاء لها من أسماء - يعني المسلمين - لا تزال حافظة لكل ما في النصرانية من أمور ظاهرة الوضوح قريبة التصديق، يضاف إليها ما توافق نظام الكون وقانون نشأة الدنيا.

وقد أبعد الإسلام عنه أحادي الإنجيل التي نخلها أول الأمر غير صحيحة، أو بعيدة عن المعقول، كما أنه جرد تعاليمه من كل قاعدة يشد بها الخناق على البشر.

وبذلك أظهر من طريقه العقابين اللتين يحس الوحد منا بأنهما الحاجز بينه وبين الدين الحق "معنى النصرانية".
ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسن الحسن، وقبح القبيح كله.

وقد تسأل: فما هذه الجزية التي طلبها الفاتحين؟

أهي ثمن منحهم حريتهم الدينية؟

نقل: إنها ليست ثمن شيء من ذلك!

ولو أن ألوًا مؤلفة من البشر، تكلت أن تدفع هذا الثمن للمسيحية الحاكمة في روما والقسطنطينية ونظير، بعد دفع خبرتها الدينية.

ولكن رجال الكنيسة رفضوا، فإنما الرجل، وأما الدخول في المسيحية.

فإن الكنيسة لم تختار اليهود والوثنيين في أنحاء العالم إلا بين شريكين، فإما التناصر، وإما الفتاة.

بل إن المذاهب المسيحية المتاحة لم تعرف هذا التخلي في علاقاتها فوقعنا المذابح البشعة بين الآشيا المتغصين.

وكما كانت الأقليات الدينية في الشرق والغرب تتنمى لوضفتها بالأمان على أموالها ودمائها لقاء درهمات تدفعها.

ومع ذلك عز عليها هذا الأمل البعيد.

أما الإسلام فقد أوضح - على لسان مليبه من القادة الفاتحين - أن هذه الجزية في مقابل دفع المسلمين أنفسهم عن الأم التي دخلت في ذمتهم.

وذلك معنى قول «النعيمان» للكسرى: «إن بذلتم الجزاء قبلنا منكم ومنعناكم».

ومن الظلم أن يتولى المسلمون وحدهم نفقات جيش يقوم بالدفاع عنهم وعن غيرهم.

وقد تقول: فلم لا يترك المسلمون هؤلاء يعدون من القوة ما يشغلون به في حماية أنفسهم؟
استدونى بأقراص الزبيب، أنعشوني بالتفاح فإنني مريضة جيًا.
شماله تحت رأسى وعينه تعانقنى.
أحلفكن يا بات أورشليم بالزباء، وأيائل الحقول ألا تيقظنى ولا تنبهنى الحبيب.
حتى يشاء.

هو ذا واقف وراء حائطنا يطلع من الكوعى، يوصوض من الشبابيك.
أجاب حبيبي وقال لي: قومي يا حبيتي، يا جميلتي وتعالي.
في الليل على فراشى طلبت من تغله نفسى، طلبتة فما وجدته إنى أقوم.
وأطوى في المدينة في الأسواق وفي الشوارع أطلب من تغله نفسى.
طلبته فما وجدته، وجدنى الحرس الطائف في المدينة فقلت: أرأيت من تغله نفسى?

فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تغله نفسى فأمسكته ولم آرخى حتى
أدخلته بيت أمى وحجرة من حبلت بى. أحلفكن يا بات أورشليم بالزباء،
وبوائل الحقول ألا تيقظنى ولا تنبهنى الحبيب حتى يشاء.

ها أنت جميلة يا حبيتي عيناك حمامتان من تحت نقابك. شفتاك كسلكة من
القرمز، وفمك حلو. خدك كفيلة رمانة تحت نقابك. ثدياك كحشافة ظبية. كلك
جميل ياحبيتي ليس فيك عيب. هلمي معي من لبنان يا عروس معي من لبنان.
قد سلبت قلبي يا أختى العروس كم محبتكم أطرب من الحمر، وكم رائحة
أدهانكم أطيب من كل الأطباب. شفتاك يا عروس تقطران شهدًا.
تحت ساناك عسل وربى ورائحة ثيابك كرائحة لبنان. ليأت حبيبي إلى جنته
ويأكل نمره النفيس.

كلوا أيها الأصحاب وأشردوا، واسكرنا أيها الأحياء، أنا نائمة وقلبي
مستيقظ وصوت حبيبي قارعًا. افتحى يا أختى يا حبيتي يا حمامتها.
وقد خلعت ثوبى فكيف ألبسه وقد غسلت رجلي فكيف أوسخهما. حبيبي مد
يهد من الكوة قامته عليه أحسائي.

حببي أبيض وأحمر. قصصه مسترسلة حالكة كالغراب. خذاه كخميلة
والنزوا في كفاحهم - للملوك الدولتين الباطشتين بالعالم يومنذ - حدودًا من الحق والعفة والاستقامة لا يعرف أبدًا إلا في موارث البنيات التابعة من السماء.

وكان المسلمون في هذه المعارك جميعًا أقل من أعدائهم عدًا وعدة. بيد أن إيانهم الدافع وحماسهم البالغ وسياقهم الفذ إلى موارد المناها ، يطلبون الاستشهاد وينفرحون بنيله أشدما يفرحون بالعودة إلى الوطن والأهل.

ذلك كله صنع المعجزة التي لم يعرف تاريخ الأرض مثيلاً لها.

ألم يعجز »الروم« أن يهزموا »الفرس« في قرون طويل مع بسطة المال والرجال؟ ولكن »الروم« و »الفرس« جميعًا هزموا في سنين معدودات أمام القبائل التي وجد الإسلام صفوفها وغرس الحق في أفقيتها ..

ذلك أن الأمر كما قال العبري لرستم: إنك لا تجادل الإنسان ، وإذا تجادل القدر.

والقضايا النازل لا يدفعه الخلق ، مجتمعين ولا مفترقين.

وانتشر الإسلام في الأرض وانهدم معاقل الطغيان أمام مدة العريض يتمشى مع سنن التطور التي تفسح الطرق لنظام حسن بعد أن تخليه من نظام سيئ.

وقد ألغى رستم إلى هذه الحقيقة وهو يقول للفسقة من ولاة الفرس - لما اعتدوا على الجمهور: والله إن العرب مع هؤلاء - وهم لهم حرب - أحسن سيرة منكم.

وفي الواقع أن أسلفنا من المسلمين الفائنين لم يرثوا الأرض إلا وهم لقيادتها أهل، وكانت مصلحة العالم أجمع ، في انتقال هذا القيادة إلى أيديهم اللبقة ، بعده لعبت به الروم والفرس.

ولن يعود هذا الزمام الضائع إلى أيديهم إلا يوم يكونون أرجح في موازين الصلاحية العامة من غيرهم ، مصدق قول الله في كتابه:

»ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض برثها عبادي الصالحون »(1).

(1) الأنباء 105.
ولكن لماذا نعترض؟
إن المسلمين أغلبًا لأنهم لم يرتفعوا إلى المستوى الذي يفهمون فيه كيف أن الثلاثة
واحد.
وهم أغلبًا. كذلك. لأنهم لا يريدون أن يفهموا كيف يقتل أمرؤ بخطايا آخرين.
وهم أشد غباوة لأنهم لا يفهمون من الآيات السابقة في نشيد سليمان أنها دعوة
إلى الأدب العالي وتهذيب للشهوة الخوانية الطاغية. !!!
لست أشك في أن الألف المؤلفة من المسيحيين لم يقرأوا هذه "الأآيات" المتتالية !!!
إنهم ورثوا الدين كما يرت الهر لقب أسيرته.
فهو يتخصص له لأنه لقب أسيرته فحسب.
ومن يدرى؟ ربما كنا كذلك لو لم نستمع إلى القرآن الكريم وتعرف الحق من
نصوصه التي لا يرقى إليها شك.
ومن خلال الوحي المحكم الذي نتلوا ونتدببه عرفنا أن الله واحد.
وأن كل أمرؤ رهن بما كسب.
وأن الرسول جميعًا متفقون على تعليم البشر هذه الحقائق السهيلة.
وأن هؤلاء المرسلين كانوا معلمين أكلامًا، وكانوا جميعًا على طراز عال من الخلق
الركي والملك الطاهر .. !!!
وعرفنا أيضًا من قرئنا أن النصرانية الأصلية لم تخرج قط عن هذا النطاق الواضح،
وذلك اليهودية.
لكن طوارئ الفساد التي غلت على ترات موسي وعيسى أتاحت لؤلؤة الأولى أن
تفرض نفسها على تعاليم الديانتين.
وأبرز مظاهر الولائية، هو تعدد الآلهة، وتقديم الحب كفارة الخطايا، وإسقاط كرامة
الأنبياء جميعًا حتى لا تكون بهم أسوة حسنة.
وقد جعل دور عيسى بن مريم مشتركًا في هذه النواحي كلهما.
فهو إله مع الله، وهو قربان تكفر به الذنوب.
فقال قيس بن زرارة فقال:
أما ما ذكرت من سوء الحال فما وصفت أو أشد.
ثم ذكر من عيش العرب ورحمة الله بهم بإرسال النبي مثل مقالة «النعمان».
ثم قال: - اختر، إما الجزية عن يد وأنت صاغر، أو السيف، وإلا فنج فنفسك.
بالإسلام.
فقال «يزدجرد»: لولا أن الرسول لا تقتل لقتلكم، لا شيء لكم عندي.
ثم استدعى بوقر من تراب، وقال لقومه احملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقه حتى يخرج من باب المدائن.
فركبهما، وما وصل إلى «سعد» قال له: أبشر، فوالله لقد أعطتنا الله مقاله ملكهم!
ثم إن «رستم» خرج بجيشه الهائل مائة ألف أو يزيدون من سباب.
فلما مر على «كوث» فليم رجل من العرب، فقال له «رستم»:
ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون منا؟
قال العربى: جتنا نطلب موعود الله بملك أرضكم وابناكم إن أبينتم أن تسلموا.
قال رستم: فإن قتلت قبل ذلك؟
قال: من قتل منا دخل الجنة، ومن بقي أخذه الله وعده! فنحن على يقين.
قال «رستم»: قد وضعنا إذن في أيديكم!
قال العربى: أعمالكم وضعتمكم، فأسلمتم الله بها، فلا يغرنك ما ترى حولك.
فإنك لست تجادل الإنس وإنما تجادل القدر.
فغضب منه «رستم» وقتله.
فلما مر بجيشه على «البرس» غصوا أبناء أهله وأموالهم وشردوا الخمور، ووقعوا على النساء.
فشكى أهل «البرس» إلى «رستم» فقال لقومه:
والله لقد صدق العربى! والله ما أسلمنا إلا أعمالنا، والله إن العرب مع هؤلاء.
- وهم لهم حرب - أحسن سيرة منكم . . .
وليس أدل على ذلك من أن بطريرك المارون «أنطون عريضة»، والمطران «غناطيوس مبارك» كانا حريّا على الجامعة العربية لتوهمهما أنها مقدمة جامعة إسلامية! وكانا عونا على عرب فلسطين مع اليهود لأنه حبيب إلى قلوبهم أن يكون اليهود مواطنين، وأن يكون المسلمون مشددين!

وذلك شكر اليد التي قدمها الإسلام في العصور الوسطى يوم كان قادرًا على إفناء هذه الطوائف ثم تنزه على الإساءة إليها، أو سلبها حرية عبادتها.

لأنه لا إكراه في الدين!

* * *

لقد شعر الدعاة إلى النصرانية أن إدخال المسلمين في ديانتهم مستحيل.

فماذا يصنعون لهدم الإسلام الذي يقتله أشد المقت؟

قرر أن يفسدوا أبناءه بتسليط الشهوت عليهم وإشاعة الإخاد الأعمى بينهم.

سلف رئيسي مدرسة تبشيرية في فلسطين: كم نصرت من أبناء المسلمين؟

فكتب إلى سادات الذين أرسلوه، لا تسألوني: كم مسلمًا نصرته؟ ولكن سلونى: كم معولًا صنعته من هؤلاء الأبناء لهدم الإسلام نفسه؟!!!

ومناهج الدراسة التي تخريج اليوم أبناء الإسلام مفروض فيها أن تقطع صلتهم بدينه، فلا يتعلمون منه حكمًا ولا يتركون منه على فضيلة.

وبذلك تشب الأجيال الجديدة غريبة عن الإسلام بل عدوًا لتقليدته وشرائه.

فإذا كانت هذه الناشئة المقطوعة عن دينها هي التي تلي الوظائف الصغرى، والمناصب الكبرى فلن ينتظر منها إلا أن تصنع بدينه الموروث مثل أو أشد ما يصنعه به خصومه الناقمون عليه.

ولذلك ما يتلخ صدور الصليبيين في حملتهم الحديثة على الإسلام.

إنس الحضارة المادية الأخيرة تهاجم مبدأ الإيمان بالله واليوم الآخر.
وأما «المغيرة» فقد أوغر صدور العامة على كبرائها. وقال:
«إنّا - معشر العرب - لا يستعيد بعضنا بعضًا». 
ثم رماهم بهذه الكلمة الخطرة:
"ظنت أنكم نواسون قومكم كما نواسين"!
فلما وثب إلى جوار القائد المستعلي على سريره، كانت وثبته تلك إبادة ذكية إلى أن الإسلام يرفع المستضعفين إلى مصاف السادة.
奥斯وء أكاذب توافق المفاوضين العرب في آرائهم عفوًا أو عمدًا، فهو بيان حاسم عن طبيعة المبادئ التي يحملها الفاقهون.
أي عار في هذه المبادئ؟
إنها - والله - لو لم تكون دينيًا لكانت في حياة الأمة نظامًا حسناً.
فماذا ينتمي الكاتب الصليبي إلى هذه الفتوح؟
إنّه يزعم في ص 22 أن أسباب الفتح الإسلامي لم تكن دينيًا فحسب، بعده أن يزعم أن الجند والبحث عن القوت هما اللذان اضطر العرب للغارة على الأمم الجاوية!
لكن كان جمع العرب هو الذي حملهم على التطرف في الأرض بهذه المبادئ الرائعة فإنه جمع أفضل شعب المبطونين من رجال الكهنة الذين مهدوا للإحاد في العالم كله بتحجر عواطفهم وصم أفكارهم.
أيّه الحقد الذي يغشي على البصائر والأبصار؟
"قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن أمنًا بالله وما أنزل إليكم وما أنزل من قبلكم.
وأن أكثركم فاستقنُون "(1).

* * *

وهذه محاورة أخرى بين "كرسي" نفسه وبين وفد آخر من مفاوضي العرب سابقًا المفاوض الأول. 
فقد أرسل سعد دعوة إلى "يزدجرد" منهم "النعمان بن مقرن" و"قيس بن زرارة" و"الأشتت بن قيس" و"فرات بن حبان". إلخ.
فلما وصلوا المدائن أدخلوا على "يزدجرد" فسألهم بواسطة ترجمانه:

(1) المائدة : 59.
إذ الكنيسة تعلم أنه في سوق التنافس الحُر بين الأفكار والأديان لن تلقى بضاعتها رواجًا.
فهي تلجأ إلى وسائل الدس أو العنف لطرد السلع الأخرى من السوق، ومنعها من التداول.
المهم أن الحضارة المادية الحاكمة في الغرب والكنيسة المسيحية الحكومة هناك قد اتفقت مصالحهما في القضاء على الإسلام وإCLAIM حاضره ومستقبله.
وأنهما رأا الطريقة المثلى لتحقيق مأربهما هي إفساد التعليم بإقصاء الدين عنه.
وبذلك يتخرج الوزير الكبير والضابط الكبير والطبيب الكبير والمهندس الكبير ... إلخ.
وكل أحد منهم لا يفهم من دينه حرفًا، بل لعله يعرف عن دينه ما يجهله فيه.
ويبذل يلم الارتداد عن الإسلام في صمت وأمان ... !!!
ويصل الصليبيون الجدد إلى ما عجز أجدادهم عن الاقتراب منه في العصور الوسطى بعد حرب دامت أجيالًا!!
وقد شعر المسلمون المخلصون بخطورة المصير المرسوم لديهم، فهربوا يصرخون
مجرد من عواقبه حتى بحت أصولهم وليس من مجيب!!
وآخر ما قرأنه في ذلك نداء وجهته جبهة علماء الأزهر إلى رئيس مجلس الوزراء قالت فيه:
"إن الشعب المصري من أقوم الشعوب علميا بشريعة الإسلام، وتسكنا بأحكامه
وآدابه، وحفظًا لكتابه وسننه.
وكان لتعليم الدين المكان الأول في مدارسه.
أو طلب العلم الدينى فريضة على كل مسلم ومسلمة.
وإذا حافظ المصريون على شعائره وتقاليده وأقاموا أحكامه وحدوده، فعزوا
وتزعموا غيرهم من الأم.
فقال رستم: ويلكم، إننا أنظر إلى الرأي والكلام والسيرة، والعرب تستخف اللباس وتصون الأحصاب.

فلمما كان اليوم الثاني من نزول رستم، أرسل إلى سعد» أن أبعث إليك هذا الرجل! فأرسل إليه "حذيفة بن محصن الغطفانى"! فلم يختلف عن "ربعى" في العمل والإجابة.

فقال له رستم: ما في الأول عننا؟
قال: "أميرنا يعدل بيننا في الشدة والرخاء، وهذه نوبتي".
فقال له رستم: المواعدة إلى متى؟
قال: إلى ثلاث من أمس!!
وفي اليوم الثالث. أرسل إلى سعد: "أن أبعث إليك رجلاً. فأرسل إليه» "المغيرة بن شعبة" فتوجه إليه، ولما كان بحضيته جلس معه على سريره.
فأتقبل إليه الأعوان يجذبونه، فقال لهم:
«قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قومًا أسفل منكم.
إذا معشر العرب لا يستعبب بعضنا بعضًا!... إلا أن يكون محاربًا لصاحبه.
فظئت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى...
وكان أحسن من الذي صنعته أن تخرون أن بعضكم أرباب بعض!! وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم.
وإني لم أنكم، ولكنكم دعوتوني، اليوم علمنا أنكم مغلوبون.
وانملكة لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول.
فقالت السؤة: صدق والله العربي!.
وقالت الدهاقين - الزعماء - لقد رمي بكلام لم تزال عبيدنا تنزع إليه، قاتل الله سابقين حيث كانوا يصرون أمر هذه الأمة.
ثم تكلم "رستم" بكلام عظيم فيه شأن الفرس وصغر شأن العرب، وذكر ما كانوا عليه من سوء الحال وضيق العيش.

فقال المغيرة: أما الذي وصفنا به من سوء الحال، والضيق والاختلاف، فنعرفه
فيجب أن تكون أداة تصوغ لصر جيلاً جديداً يعرف حقوقه، وحقوق الناس.

ميز الحب أن الطيب، والخلال من الحرام، يتذوق طعم الحياة الكريمة المحافظة، فيثور النمسك بها.

والذي لا يوجد إلا في تعاليم الدين.

فالضمائر لا يحتضن ولا يهدب إلا خوف الله.

ومن الدوارات الغريبة أن نقص نصف درجة في الموسيقى أو الرسم يرسل به الطالب، وأن جهله بالدين كله لا يضره شيئًا.

إذا ذلك جعلنا نغنى أمر الشمرات، ونشاهد في ناشئتنا مظاهر التمرد والاستخفاف بكل فضيلة، والخروج على كل معنى كريم .(1).

* * *

لكن هذه الشعارات التي يجذب العلماء من فشوهًا، هي بعض ما تجتهد أوروبا الصليبية لإشاعةته بيننا، إن الفساد الذي عرا الأخلاق، والتصدع الذي أصاب الجماعات خبر في نظر رجال الكنيسة من إشراف الإسلام على التوجيه العام لسياسة التعليم والتنظيم !.

وإنك تدرك حقيقة الشعور الكنسي نحو الإسلام من القصة التالية:

من عشرين عامًا وفقد قسيس مسيحي إلى القدس، كفم يشتغل بالدعاية إلى النصرانية، وبدأ هذا القسيس، واسمه «الفريرد نيلسون» يتبادل نظرًا من المفكرين المسلمين، يناقشهم في بعض حقائق الدين! ووزع عليهم نشرات تتضمن أفكاره!

وقد فند العلماء الذين عنا به جميع ما أورد من شبهات.

والحق أن الرجل كان محاميًا مخلصًا في الدفاع عن ديانته، وما أرزى به أمام مجادله إلا موضوع قضيته.

(1) يلاحظ في بيان الأزهر أن سياسة التعليم تتعمد - ومزايا - تحتبن دراسة الدين دراسة جادة، ومزامير الدين بعيدًا عن المجتمع، وذوئت منه المعلومات التي تربى الأجيال ووضعت دراسة اللغة العربية على حساب مواد أخرى، وقد كان الشيخ صولات في التعداد بهذه السياسة، انظر محمد الغزالي «الحق المطلق»، الجزء الرابع والخامس، طبعة دار نهضة مصر.
فقد أعلنوا عليهم حرب فداء في أرجاء ملكهم حتى استأصلوهم، فلمما دارت رحي الحب بينهم وبين الفرس عجزوا بعد مئات السنين على النتائج الموفقة الرائعة التي وصلت إليها جيوش الإسلام في بضع سنين.
بل ترى في سير الفتاح أن المسيحيين قد انضموا إلى الوثنين في مقاتلة الإسلام والنيل منه!
وإنه لأمر عجباً أن يتحالف المشركون وأتباع الإلحاد على مقاتلة الدين الذي يدعو إلى عبادة الله الواحد القهار.
ولكنه الخلد الأمم، ونسوان المسيحية لآصلها السماوي ونزعتها الطازرة إلى جعل الألوهية شركة، مما سول لأشياعها أن يشعوا ضغبيتهم على مبدأ التوحيد، ولو حالفوا الشيطان في سبيل القضاء عليه، وتأبى الله إلا أن يتم نوره.
ولعل من بقايا هذه السخيمة المتقدة أن يجيء هذا المؤلف المسيحي فيرد انسياب الجيوش الفائقة إلى أسباب اقتصادية قائلاً: إن الحاجة تبرز كل عمل حداثي، وإن العرب كثيرًا ما قاموا بأعمال عدوانية بحثًا عن القوة... ص 22.
ثم ينقل زعيمًا لباحث في علم الجغرافيا يقول:
إن مناخ الجزيرة أصبح يجهف في القرن السابع مما دفع العرب إلى الهجرة منها وهمجاء البلدان التي تناحها.
وانحن لا نقف عند هذا اللغو، ولكن قبل أن ندوسه ونتنهى من سخنه نحب أن ننقل حوارًا جليلاً دار بين نفر من فرسان المسلمين وبين قواد كسرى وحاشيته ليرى أولو الألباب مبلغ فقه الصحابة الفائتين لديهم، ومعرفتهم العميقة لأحوال الشعوب التي قدموا عليها، وأنواع الحكم التي قرروا إسقاطها.
وليروا كذلك: بأي ضمائر نفية وأسلحة عفيفة كان حملة الإسلام يلقون خصومهم بها.
قال القسيس: «... لأن أهم نقطة في الدين عمل المسيح للناس كالأوسيط بينهم وبين الله تعالى، حتى يؤكد لهم مغفرة خطابهم ويدخلهم في حالة أولاد الله! فبعدها عن سلطة الجحيم! وقينا خيبة صائحة! ومع احترام المسلمين للمسيح فإنهم لا يجدون فيه شيئًا من ذلك. إن اعتقادهم في المسيح أعلى جدًا من عقائد الأم الأخرى، ولكن لا نقدر إلا أن نبشرهم بتلك البشارة...».

وكلام هذا المشير المسلم يشير إلى أن إيمان المسلمين بالله الأحد وقيدتهم في يوم الحساب لا قيمة له، لماذا؟ لأن الشيء الأول والأخير في الدين أن تعتقد بأن «عيسى» قتل فداء خطابك وخطايا آبائك وأبنائك «كذا».

فإذا قلت أيها المسلم: إن ثوابي أو عقابي ليس إلا نتيجة عادلة لخطئي أو صوابي، ولا مدخل لأحد أبديًا في حسابي.

قال لك هذا المشير المسلم: إنك كفرت وطردت، ولا قيمة لإيمانك بالله وإجلالك عيسى بن مريم.

وأما كان الإيمان بالله واليوم الآخر هو التراتب الباقي لدى النصرانية من وحتى السماء، وكانت فكرة القدر فداء الخطيئة هي العنصر الدخيل من الوثنية الأردنية كان معنى ذلك: أن مسلك البشرين النصارى يقوم على تحقيق الصلة الوحيدة التي تربطهم بالسماء، وتضخم الخلافة الكبيرة التي تلصقهم بالأرض.

ولو كان لدى هؤلاء القساوسة نصيب من سداد، لجعلوا الإيمان بالله ركنًا قائمًا لا مسألة تافهة، وجعلوا الصلب نافلة ثانية لا دعامة خطيرة!!

ولكن حظر الشيطان غلب.

ولا أدل على غلبة حظر الشيطان من أن الكنيسة ربت أعداءها الألداء، فكان الإسلام أول أولئك الأعداء.

في سبيل القضاء عليه، حالفت المجوسية ولو كانت كفرون بالله.

وفي سبيل القضاء عليه، حالفت اليهودية ولو كانت تحورت لعيسى.
كما أن جماهير غفيرة من اليهود والنصارى رأت في هذا الدين الكريم الأصول
الصحيحة للهولودية والنصرانية، فأتمت بمحمد وعيسى وموسى جميعًا، واعتققوا
الإسلام عن رغبة وإعجاز.

إلا أن هناك طوائف أخرى من الوثنين واليهود والنصارى بقيت على ما ورثها،
وحرصت على تجريح الإسلام ونبيه.

وهما - بعد ألف من السنين وأربعمئة - لا يزالون يتحدثون عن رواية دامية صنعها
خيايل رجل لا صلة له بالسماء !!.

ما أشبه أولئك المتخلفين بقطيع من العمياء، كلما طلع عليهم النهاير واستفاضت على
الناس أشعته بقوا في ليلهم الدائم لا يحسون جيدًا، ولا يدركون نقصانًا، ولا مزيدًا ...
أفترى حجاب أولئك الخرومين قادحًا في مطلع الشمس، أو كاسفًا من بريقها؟
إن الأدلة التي تثبت بها نبوة محمد أرسخ - في عصرنا هذا - من الأدلة التي تثبت
نبوة موسى وعيسى.

ومن الإزراء بالعقل أن نزعم القرآن كتابًا بشرى، وأن نطلب بعدئذ بعدة التوراة
والإنجيل تراثًا سماويًا حضيًا.!!

والمؤلف الذي تناول قصة الفتح على أنها غارة شعواء، وتعرض لأصحاب محمد
من ساسة وقادة على أنهم رجال ذوو مطامع وأهواء، من طراز، "الإسكندر
و"ناقلين" وغيرهما.

هذا المؤلف المسكن، ليس إلا مثالًا للتعصب الديميم.

تعصب العلماء ضد الضياء.

تعصب الكهان المشدوهين ضد الديانة التي أسقطت وساطتهم ونسخت خرافتهم.

وستذكر خلطة في الكلام عن الفتح الأولي معقين عليه بالحق المبين.

قال في ص 21: .. الواقع أن الفرس والروم كانوا ينشدون الراحة لأن الحروب
التي وقعت بينهم أنهكتهم.
لقد بدأ الإسلام فصرح:

«فذلك فدع واستقيم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل أمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربي وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بينا وبيكم الله يجمع بينا وإليه المصير». (1)

فكان أهل الكتاب من يهود ونصارى كانوا يحتكررون رب العالمين لأديانهم، برغم ما خالطها من تشويه، وشاب تاريخها من إجحاف.

فهم يثرون على الإسلام ودعاته من كل جانب. يريدون إخراص أسمنتهم، بل يريدون انتزاع أرواحهم من جسومهم.

فأي عاقل يلقى هذا التنكر والصدود بالراح العزلاء؟

أي كريم يبذل وده لم يرفض وده ويبغي قته؟

إن الإسلام مازال على موقفه الأول، لوقى من اليهود والنصارى عرفانا بالحقائق واحتراما لذويها، والالتزام للحدود الصحيحة في شتى المعاملات.

***

ويوجد من أهل الكتاتيب أناس أوقوا حظاً من السماحة والبصremainder\n
بكرم ونبل، فبادئهم المسلمون النحية بهم، وحافظوا أتم المحافظة على مشاعرهم ومناسكهم.

وكم نرجو لو يكثر هؤلاء المنصفون، وكم نرجو لو ملكوا زمام قومهم، فعاشوا وعشا معهم في وثام وطمأنينة.

لكن هؤلاء المعتدلين لا يجدون استجابة من قومهم.

فإن روح الحقد المتآصل على الإسلام تدمر ما أمامها، وجاءه المسلمين بأوضاع محرجة.

وقد لاحظنا ذلك حتى في الأقليات الدينية التي تخلفت بهذه الديار بعد انتشار الإسلام فيها.

(1) الشوقي : 15
إن هذه الأفليات تأتي بالاعتراف بأن دينًا جديدًا قد ألقى رحالة هنا، وأن كثرة كبيرة قد آمنت به!!

وبدو هذا الإباء في محاولاتها المتعمدة أن تفرض وجودها بالعنف أو اللطف على كل شيء ولو على حساب الكثرة الطبية المهيئة.

فإذا كان في بلد ما مائة أسرة، تسكن منها مسلمة، تسلي في أربعة مساجد، فإن الأسر العشر الباقية تحاول أن يكون لها أربع كنائس أو خمس!!!

ولماذا تبذل هذه المحاولات؟

إنه رغبة من القلة المتوجسة في إثبات بقائها وتدعم كيانها، وإبراز طاعبها على الأرضا التي تخاه فيها.. عليها كلها!!

وإذا أحست الكثرة بهذه النيات، فوضعت قيدًا على بناء الكنائس، محافظة منها كذلك على أن يكون مظهر البلاد إسلاميًا مدامعات كثرة السكان مسلمين.

والنزاع بين القلة والكثرة هنا ليس نزاعًا على حرية العبادة، فهي ليست موضع جدل.. بل نزاع على أي الفريق يترك طاعبه على البلاد؟

الكثرة المسألة أم القلة المتحدة؟!!!

القيلة التي تزدد أن تكون في كل قرية متساوية الدين كنائس سامقة الجدران - الإعلان لا للعبادة - والتي تتخير الأحياء الحساسة في المدافن الكبرى لتدفع بأراجها في الفضاء، كأنها تقول للكثرة المسلمة:

إنكم هنا غرباء طارئون!! وإن دينكم في عواصمك الكبرى لا ينبغي أن يحتل إلا منزلة مهينة.

وقد امتد هذا التحدي من ناحية العقائد إلى الناحية العمرانية العامة.

فإن الأفليات المتحفزة للسيطرة على البلاد، الحالة بعدة الحكم المطلق إليها، تعمل - جاهدة - على استغلال كل نفوذ تحرزه في الإدارة والوظائف، خدمة مصالحها الخاصة.
وعندما تولى "بطرس غالي باشا" رئاسة الوزارة في القرن السابق تمكن من أن يبيع للأقباط من أملاك الحكومة أرضًا شاسعة في الصعيد بأثمان سميحة (1).

وذلك سر النزوات الضخمة التي تكونت لهم هناك.

على حين يعيش أكثر المسلمين فقراء مضينين.

ولست أحبس الأقباط حقهم باعتبارهم طائفة نشيطة تستحق حياة حسنة.

فععاذ الله أن أجني إلى ظلم.

بل غاية ما أريد أن أضع حدودًا واضحة بين ما يحصل المرء عليه بجدية وما يكسبه بوسائل ملتونية.

أهمها استغفال الكثرة وانتهاء سماحتها لإضاعة حقها، ثم الطعن عليها بعدد، واتهامها بالتعصب الأعمى!!

وهكذا ينقلب الظالم مظومًا.

* * *

إنني أكره التعصب، وأحس المرارة التي ذاقها المستقدمون والمستأخرون من لوحته.

وكيف لا نكره التعصب، ونحن - المسلمين - أشد الأمة تعرضًا لآثامه وآلامه؟

إلا أننا - وإن كرنا التعصب - ننبه إلى منقضة شر منه.

ونعني بها جهود السماحة واستضاع صاحبها الكريم السهل.

أليس ما يغض الإنسان به أن ثلاثمائة وألفًا من السنين تم على الأقلية اليهودية في بلاد الإسلام، فلا تضمار في مال أو ولد. وير عليها هذا الدهر الطويل في بلاد النصرانية وهي تطارد من بلد إلى بلد . . . ثم ماذا تكون العقاب؟

أما جزاء المطاردين فقد ترك اليهود بلادهم هاربين.

أما جزاء السماحاء الأخيار فقد أقبل اليهود على بلادهم هاجمين.

كان جزاء التعصب أن يسلم أصحابه من العدوان، وجزاء الاعتدال أن يتحمل أصحابه الهوان.

(1) ولا ينسى التاريخ أن "بطرس غالي باشا" كان عضوًا في محكمة دننوات الشهيرة، والتي ندد بها الزعيم مصطفى كامل "المخنق".
(26)
افتلاء من الألف إلى الياء
دخل الإسلام مصر بعدما تمكن قواته من طرد الرومان المحتلين، وعقب فلولهم المدمرة حتى أضطرتهم إلى الجلاء عن البلاد كلها.

وقد أحس المصريون على عجل بأنهم ليسوا أمام فاتح تغيره نشوء النصر بالغى والاستقلال بل أمام رجال تحكمهم أخلاقياً فاضلة، وتضبت سلوكيهم شريعة واضحة، وأن البون بعيد بين كرياء الرومان وبساطة المسلمين.

ومع كثرة مؤرخى النصرانية الحاقدين على الإسلام، فإن أحداً منهم لم يجزع على اتهام العرب بأنهم أظهروا قبطنياً على ترك دينه، أو حرضوا على دخول الإسلام بأسلوب تجاه المنطق الحكيم.

ومع ذلك فإنه لم يعس نصف قرن على دخول الإسلام في مصر، حتى تحول إليه أكثر النصارى، كما يتحول الناهبون في البلاد الحر من حزب إلى حزب، وكما يؤثر منهجاً على منهج.

وما هي إلا أيام حتى أصبحت النصرانية دين قلة محدودة تعتمد في بقاء موروثاتها وطقوسها. على سماحة الإسلام وأهله فحسب.

والحق أن هناك ألوهاً مؤلفة من النصارى تسعبطن الربيعة في عقيدتي الشالوث والفداء، أو تستشعر التبرم الخفي بهما.

وتود لو تخلصت منهما كما يتخلص الحمال المتنقل من عبء أبهظ كواهله.

فإذا وانت فرض مناسبة للدخول في عقيدة أخرى دون غضب ضاحية نلق النفس من الانخراط على عقيدتها الأولى، كان ذلك إجباراً للاختيار واسع النطاق.

وذلك سر انتشار الإسلام لا في مصر وحدها، بل في الرقعة الفسيحة التي أبعد عنها سلطان الضغط والقسر.

إن جماهير الأنطاب - الذين أسلموا عن رغبة - لم يتركون نصرانيتهم الأولى إلا بعد اقتراب نفسى وعقلى من تعاليم الدين الجديد.

وقد كان الحكام المسلمون في العصر الأول يرقبون هذا التطور في صفوف الشعب وهم في موقف الحياة الدقيق.
بل ربما كان مسلك بعضهم أقرب إلى الصد عن الإسلام من تجربة الناس فيه
وإغرائهم باعتناقه.
ولا ريب أن في الأقباط رجالاً كرها هذا الأمر، وراغهم الانتقاض المفاجئ على الكنيسة
وربما اعتبروا إقبالاً على الإسلام خاتمة لتراث النصرانية، وموالاة للدولة
المقبلة، وربما أُهِج ذلك ضغائنهم على الدين الجديد، فأضروا لأهل الشر.
بيد أن ذلك كله لم يجعل الحكومة في يد الإسلام سوط عذاب على المخالفين.
فبقيت الديانات الأخرى مرنضتي بها لا تلقى من أحد عتنًا، ولا يجد أهلها في
الاستماسك بها حرجًا.
وقد أثبت التاريخ حقيقة رائعة، أن المسيحية أو اليهودية تستطيع أن تعيش في ظل
الإسلام - إذا حكم - معينة طيبة.
لكن كلنا اليديانتين إذا حكمت لا تسمح للإسلام أن يعيش في ظلها.
وتلك علة بقاء الأقليات الدينية في الشرق الإسلامي، وفنائها في أوروبا المسيحية.

* * *
ولو قارنا بين الفتح الإسلامي للبلاد المسيحية، والفتح المسيحي (1) للبلاد الإسلامية
لاسودت وجه الأديان المفترن.
وستنفرد بابًا خاصًا بإنواء المسلمين في أسبانيا، والمراسم والقوانين التي أصدرها
الباب والملوك النصارى لتنظيم هذا الإنواء الذريع.
إن المسلمين لا تتحرك في ضمائرهم نوايا الغدر والفتكة بين يخالفونهم في الدين.
وقد مضت قرون طوال على انفراد الإسلام بالسلطة المطلقة في العالم أجمع.
لو شاء المسلمون خلالها أن يبدوا خصومهم لفعلوا.
لكن الذي حدد أن المسلمين كفلاً حياة خصومهم، ودافعوا عنها كما يدافعون
عن دمائهم وأموالهم.
فلما انتقل زمام القوة من أيديهم تجنب اليهود والنصارى كل فرصة للإيقاع بهم
فاستنكر المسلمون من بقاعة شتي.

(1) وستجد النتيجة حتمًا، أنه لم يكن فتحًا، وإنما كان غزوةً واحتلالًا وسطًا !!!
ورأيناه اليهود الذين سمح المسلمون ببقائهم في فلسطين يتحولون إلى دولة لا يعيش
إلا على أنقاض المسلمين.

ورأيناه الحبشة - التي سمح حكامها المسلمون ببقاء الأقباط فيها - تتحول إلى دولة
صلبية هدفها إبناء الإسلام وأهله (1).

ونصارى الحبشة هم القلة الحاكمة، ومسلموها هم الكثيرة المحمية.

كان أسلامنا احترموا حق الحياة لأولئك جميعًا كما يردوا على ذراريهم يسبونهم
حق الحياة، ويستنكرون عليهم أن يبقوا بإسلامهم أو يبقوا بهم إسلام!

أريد حييحته ويريد قتلى!! عذرك من خليتك من مرابد

* * *

ثم جاء أخيرًا هذا الكاتب الناصح على الإسلام فرأى أن يعلن عليه حريًا أخرًا تقوم
على سلسلة من الأكاذيب الضخمة.

وهذا حقده إلى الاتجاه إلى أقباط مصر، ينبسهم بما لا يعلمونهم ولا آباؤهم،
وبلقى في رؤهم أنهم عاشوا في البلاد غرضًا لحملات ممثابة من التعصب المبت.
(كذا)!! تعصب من؟ تعصب المسلمين ضد النصارى!!

وعمى الكاتب الكاثوليكى عن تاريخ كنيسته المفظوح في ماضي الحياة حاضرها،
ووسي أنه هو نفسه موظف مسيحي يأخذ مرتبتا سليما من حكومة مسلمة، ويجلس
على كرسيه الوثير ليصدر الأوامر إلى جملة من الموظفين المسلمين تحت يده!!

لقد عمى عن هذا، ونسي ذلك، وجحد النعمة الدافئة التي يعيش فيها هو وألوى
من أمثاله في بلاد الإسلام...

ثم أمسك بقلبه يكتب أن الإسلام دين تعصب، وأن حكامه وشعوبه قوم
متعصبون ضد الأديان الأخرى!!

والدليل على ذلك أنه منح في بلاد الإسلام ما يعز عليه منئه في بلاد النصرانية نفسها.

* * *

(1) عن سطو الصليبيبة على بلاد الحبشة والمزجær التي أشرفوا عليها هناك... انظر: محمد الغزالي - الاستعمار أحقاد
وأطماع - طبعة دار نهضة مصر. "المحقّق"
من الأمراض التي تلحق النفس الإنسانية ما يسميه العلماء بـ«الإسقاط».
فقد تكمن في طوايا المرء، ذيلته معينة أو شهوة جامحة، تلون الحياة أمام ناظره بصورة لا تمثل إلى الواقع بصلة، لأنها فيض من نفس الناظر الذي يتخيل فحالاً.
وقد روى الأستاذ «القوصي» في كتابه «الصحة النفسية» قصة فتاة عائشة طال عليها الحرمان، وأدركت عنها الحياة.
ولكن تشيئتها العاطفية بصحبة رجل ورغبته الشديدة في أن تسمع ألمات النذير والإعجاز أخرجاها عن طورها.
فكتب يومًا إلى النيابة العامة تتهم رجلاً شريفًا بأنه أساء الأدب معها وصار على مغزلتها!!
وهي بالرجل الذي اندعدله تتهمة لم تخطر باليه!! وحُرق مع العائشة.
فتبين أن أشواقها الكامنة خفيت إليها ما لم يكن، فاتهمت الرجل بما تود لو وقع منه!! لأنه حاجة نفسها المكتوبة!!
وإنك لتجد كثيرًا من الناس يعيبون غيرهم بردائل هرب فيهم، ليست في غيرهم.
تردي: أبحسبون غيرهم مثلهم؟! أم أن نفسهم قد رشحت وما اكتسبت به؟ فهي تسقط رشحها هذا على الآخرين!!
إن الكاتب الصليبي الذي سود صحاحه بأنهن النهم ضد الإسلام كان لاشك.
يُعاني حالة مرضية من هذا النوع الشاذ.
فالتعصب الكلسي الذي يجر وراءه مخازن قرون طويل أووهام أن الحياة كلها لاندورة إلا على محور من التعصب الأعمى.
فإذا بالمؤلف يفعل فعلا الفتاة العائشة السابقة، فيطلب محاكمة الإسلام بتهم هو منها براء.
لأنها فيه وفي قومها داء عيان.
وحدث عن رجل يرد أن يشوه حقائق دين وتاريخ أمة!!
ماذا يصنع في أربعة عشر قرنًا كانت الأقليات الدينية فيها مروعة في كل مكان إلا في أرض الإسلام؟

إنه يكذب ويكذب، لعله يستطيع أن ينثى عن دخان قلبه المخترق ما يعكر

به الأفق النقى الذي انتظرت به بلادنا (1). على حين كانت «أوروبا» ترغي وتزيد، وتضطرم أجواءها بنيران العدوان والبغضاء

بين مذاهب النصرانية المتناحرة، أو بين النصارى واليهود النائمين في كل مكان...

إن هذا الكاتب ماروني كاثوليكي، وقد جاء يستجيش أحقاد القلعة من أقباط مصر

على الكثرة الغامرة من سكانها، مدعيا أن المسلمين أساءوا إلى الأقباط! وأن تاريخ

العلاقات بين الفريقين يشهد بذلك!

كأن الكاثوليك حراس العدالة في الأرض.

أو كأنهم ليسوا آخر من يتكلم في هذا الموضوع!!

إن الكاثوليك حكموا الأقباط قبل المسلمين فأذاقهم أبواب العذاب.

ولو أن أولئك الكاثوليك أخذوا الأقباط معهم إلى فرنسا مثلًا، أفيكون حظهم

أفضل من حظ البروتستانت الذين تعرضوا لمذابح شنعاء? وحفظ التاريخ أخص ضروب الغدر لما أوقعه بهم أولئك الكاثوليك الأشراف، ولكن

«إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

لقد جاء هذا الكاتب إلى تاريخنا يرمينا بدائج، فاستعرض حال الأقباط.

فما وجد من خير واستطاع أن يدفنه سكت عنه سكوت القبر، وما بهره على مر

القرن من إحسان في المعاملة. ادعى - في صفاقة نادرة - أن له أسبابًا أخرى غير

الإسلام وسماحته!

فإذا وقع على خطأ تأبه بالغ في وصفه.

وإذا لم يوجد ما ينشده من أخطاء، ففسي الكذب متسع لم يريد المشي بالنضيجة

والتماس العيوب للأبرياء.

وعلى هذا النحو ألف كتابه.

(1) شارك الشيخ المغزالي في إطفاء كثير من أحداث الفتن الطائفية، أولئك المسيحيون بلا داع يذكر، وادعاءهم

الإعلام الغربي لزعزعة الكيان الاجتماعي في مصر...
والغريب أن من الأقباط من تلقفه، ثم بدأ يتحدث عن هذا الاضطهاد الموهوم.

ويشكو من وقته! 

ونحن نعرف أن سعي المسلمين لطرد الصليبيين المستعمرين لأوطانهم هو سر تلك الزاعم المفتعلة، وأن تأليب الأقباط على الكثرة التي حاستهم دهورًا لن يبطل حقوق المسلمين، كما أنه لن يجر أي نفع للأقباط.

ولكن أصلنا على تحري بلادنا من الإنجليز وغيرهم وتعلعنا إلى حكم إسلامي نظيف يصوم أخلاقنا وعبادتنا، فنحن مرتقون من الأقباط أن يكونوا إلى جوارنا في كفاحنا، ومقدرون أنهم لن ينسوا النعماء التي يرحبون في بحبوحتها منذ دخل الإسلام مصر، ومنتظرون أن يضروبا على أيدي السفهاء الذين ينالون من الإسلام، ويفترون على تعاليمه الزور وعلى أهل البهتان.

نعم إن هناك قومًا باعوا ضمايرهم للإنجليز، واشتعلوا بخدمة مصالحهم في طول الوادي وعرضه.

لكن هذه القلة من الخونة لن يفوتها جزاؤها العدل: "وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب يقلبون" (1).

***

إذا قبل أن نشرح ملاحظاتنا الخواطر التي شوهها هذا الكاتب، نحن أن نؤكد مرة أخرى هذه الحقيقة:

إن أرض الإسلام لم تشهد البئة لؤلؤًا من الاضطهاد الديني الذي عرفته أرض المسيحية.

إن التعليم المقرر التي سوئت بين الكثرة والقلة في الحقوق والواجبات كفت حرية الدينية والذينية، على نحو لم يعرف في أوقات بلاد أوروبا وأمريكا.

وإنه إذا كانت هناك أحداث مؤسفة شابت علاقات القلعة المسيحية بالاختيار المثل، فهي في معرض المقارنة - توافع لا تذكر بالنسبة للشاعرات القبيحة التي فعلها المسيحيون بغيرهم.

(1) الشعراء: 277.
ثم هي - في أسبابها الأصلية - تعود إلى شذوذ نفر من المتعصبين النصارى يريدون تحقير الإسلام والإساءة إلى أمه. ويتهمون مرونة الكثرة الطيبة لتعطين طائفتهم من الامتداد والتغلغل على حساب الجمهور المسلم. ولنجد إلى مناقشة الكاتب الصليبي.

وصف هذا الرجل في خمسين صحفية (60-111) «أحوال الأقباط الحقيقية تحت حكم الولاة العرب». ولم يسخ عن طبيعته الملتوية في غمزم المسلمين والتنديد بهم، لكي يظهر الأقباط وكأنهم فريسة سهلة لاحتلال جشع مريب.

وэтому الباب الذي عقده الكاتب تحت عنوانه السالف لا يتفق مع موضوعه، فقد وصف أحوال مصر من 20 إلى 252 للهجرة. وflutter من الفتح إلى قيام دولة ابن طولون».

ومصر في هذه الفترة كانت إسلامية لا قطبية، فإنه لم يمض نصف قرن على الفتح حتى كانت النصرانية دين طائفة قليلة في البلاد.

ولقد بلغ من قوة المسلمين المصريين بعد عشرة أعوام من الفتح أن وفودهم شاركت في الفتن الكبرى من مقتل عثمان» فيما بعد. وقد اختار الخليفة الأموي المطارد «مروان بن محمد» مصر ليجد فيها ملجأ من بطل العباسيين الغالبين.

ولكي تدرك مدى انتشار الإسلام في البلاد المفتوحة يكفي أن ترى دمشق، بعد إجلاء الرومان عنها قد تحوّلت إلى عاصمة للمسلمين جميعًا، ولم يستغرق ذلك أكثر من ربع قرن.

ولو أن «معاوية» كان وليًا لمصر، لجعل القاهرة عاصمة المسلمين بدل المدينة، فإن ظلال النصرانية كانت قد تقلصت فعلاً عنها.
ولو سلمتنا جداً مع الكاتب الصليبي أن الاضطراب ساد العلاقات بين الولاة والشعوب، وأن العرب كانوا بحاجة إلى سياسة ثابتة... إلخ.
فما صلة هذا بالأقباط، وما موضع القول بأنهم تحملوا أوزار الفتن والاضطرابات السائدة؟

يقول الكاتب «أهملت الإصلاحات العامة إجمالًا تمامًا».
ولكن ما كان من اللازم الاستفادة من مياه النيل الغنية بالطمي الخصيب، لاسيما أثناء الفيضان، فقد كان الحكام يسخرون السكان لتطهير القنوات، وإعادة بناء الطرق والجسور مقابل إعفائهم من قسط من الضرائب يناسب مع المهمة التي قاموا بها» ص 63.

وينظر السخيرة الذي أشار إليه الكاتب كان معروفاً في مصر حتى سنة 1936.
وكان المسلمون - حكم كثرتهم - يحملون أعباء ومحاربه.

فكيف يعتبر هذا تعصبًا ضد الأقباط؟
ويضى الكاتب في كلامه قائلاً:
«لا نعد أى أثر لنشر التعليم حتى بعد إنشاء المستعمرات العربية في الدنيا.»
وبعد وقت طويل.
وفي جهة أخرى أنشأ العرب نظامًا للضرائب... ولكنهم لم يفكروا في تنظيم إدارة للحسابات في المدينة المنورة».

لنفرض أن العرب لم يتعلموا أولادهم، فهل هذا يعد تعصبًا ضد الأقباط؟
ثم من الذي وصف المسلمين في هذه العصور بالتخلف العقلي وضعف العناية بالعلوم؟

ويتساءل الكاتب عن عدم وجود إدارة حسابات بالمدينة.
إن المدينة بعد فتح مصر بأعوام قلائل لم تصبح عاصمة الإسلام.
فما يعني هذا التساؤل وما وجه التعصب فيه ضد النصرانية؟
ويستطرد الكاتب لغوه قائلاً:

"... ثم بينما كان بناء الكنائس محظورًا في المدن التي أنشأها العرب سمح عبد العزيز بن مروان بناء كنيسة في حلوان.

ويعلل هذا التساهل بوجود بعض النصارى الملكيين في خدمة الوالي.

ولم تختلف سياسة "المؤمن" عند إقامته بصر.

واستخدم النصارى الذين التمسوا منه تشييد كنيسة بالقرب من قبة الهواء، فسمح لهم بذلك».

وهذا الأسلوب الملمؤى في عرض الأمور ناضح بنية صاحبه.

إن مصر المسلمة في عهد "المؤمن"، ومن قبل ومن بعد، لم تعجر على حرية العبادة ولم تُحظر بناء الكنائس على الأقباط الذين يحتاجون إلى كنائس.

ولكن إذا حدث أن بني المسلمون مدينة لهم وكانوا فيها الكثرة الساحقة ولم يكن النصارى فيها عددًا يذكر، فما معنى بناء الكنائس فيها؟

فإن بلغ النصارى عددًا يحتاج إلى معبد خاص فإن أحدًا لن يقف في طريق رغبتهم. وهذا ما فعله "ابن مروان" و"المؤمن".

لم يكن السبب في سماحهم بناء الكنائس أن أحدًا من الأقباط كان موظفًا لديهم، فاذنوا بذلك من أجله.

كلا، إن الأمر قائم على سياسة بينة، غير أنه يحدث أحيانًا أن نفرًا يعانون على الأصابع يريدون مراعمة المسلمين وتحدى مشاعرهم، فيحاولون بناء كنيسة على كل شبر من الأرض يقع لهم.

وهذا يسبب مناوشات خفيفة ما إن تتشب حتى تهدأ.

إذ يلزم الأقباط حدود الاعتدال، وينسي المسلمون كل ما حدث، ويستأنف الفريقان حياتهما المعتادة.

ووملك المسلمون مع الأقباط في هذا الشأن أنظف وأعمق من مسلك الكاثوليك معهم.
وإن كان هذا الكاتب -لتقهته على الإسلام- يكره أن ينسب إليه ذرة من خير.
فهو يقول في ص 21: "... نفذ عمرو بن العاص أعامرة الخلافة "عمر" لأنها
كانت تنطف ومطامعه الشخصية، فكان تسامحه مع مصر أثناء ولايته مناه مثار دهشة
المصريين وإجابتهم" فتسامح الفائخ سيبه الطبع لا الدين (أ!).
ثم يقول الكاتب ناقدًا عن حنا النفيسي:

"... لم يستولى "عمر" على ممتلكات الكنيسة، ولم يتكب أعمال السرقة والنهب".

وهذه الكلمة إشارة لما كان يفعله الرومان الكاثوليك مع الأقباط المصريين.

ومضى الكاتب يسرد وقائع التاريخ من الزاوية التي يراها فقال نقلًا عن "ساويرس":

"... أدرك "عمر" منزلة الطريرك اليعقوبي "بنيامين" في نفوس الشعب،
فسارع إلى استقطار أخباره من أفواه الناس ليعرف المكان الذي لجأ إليه الطريرك.
هربًا من اضطهاد "قيرس". متمل الروم الكاثوليك في مصر...
وقال عمرو في هذا الصدد: له العهد والأمان والسلامة من الله! فليحضر أمًّا
مطمئنًا وليدبر حال بيعته وسياسة طائفته.

ولا سمع القديس "بنيامين" هذا، عاد إلى الإسكندرية بفرح عظيم بعد غيبة
ثلاث عشرة سنة، منها عشر سنين "لهرق" الرومي الكافر، وثلاث سنين قبل أن
يفتح المسلمون الإسكندرية - كما في النص - لابسًا إكليل الصبر والجهاد الذي
كان الشعب الأرثوذكسي قد استحققه من اضطهاد الأغلب.
فلما ظهر فرح الشعب والمدينة كلها مجيئه، وأمر "عمرو بن العاص" بإحضاره
بكرامة وإعجاز ومحبة.
فلما رأى أكرمها وقال لأصحابه وخصاه: "إن جميع الكور التي ملكناها إلى
الآن ما رأيت رجلاً - لله- يشبه هذا".
وكان "بنيامين" حسن المنظر جدًا، جيد الكلام يسكن ووقار.
ثم التفت "عمر" إليه وقال له: "جميع بيعك ورجالك، اضبطها ودبر أحوالها.

410
ولا إذا أنت صليت على حتى أمضي إلى المغرب والخمس مدن وأملكها مثل مصر، وأعود إليك سالمًا، فعلت لك كل ما تطلبه مني».

فدعًا له القديس «بنيامين» وأورد له كتابًا حسبًا أعجبه هو والحاضرين، وفيه وعظ ورحى كثير لم يسمعه، وأوحي إليه باشياء، وانصرف عنده مكرماً مهجلاً.

واستطرد الكاتب يقول: «... ثم إن اهتمام عمرو باليعاقبة - الأقباط - جعلهم ينون الأمال الهائل على المستقبل مما حدا بالأسقف المؤرخ «ساويرس ابن المقبع» أن يصف شعورهم هذا بقوله:

«كانت الشعوب فرحين مثل العجل الصغير إذ حل رباطها، وأطلقت على ألبان آمانتها» قال:

وكان «ساويرس» على حق في وصفه ذلك، لأن الأقباط لم يعاملوا بهذه المعاملة اللينة منذ أمد بعيد.

أضاف إلى هذا أن العرب - أثناء ولاية «عمرو» - لم يحاولوا الضغط على الأقباط ليعتنقوا الإسلام ولم يضطهدوهن. ص 72 - 73.

وهذا اعتراف يأبى الكاتب أن يسهوه خالصًا لوجه الحق، فهو يلبسه - على عادته - بما يشاء من باطل.

فإن المسلمين على عهد «عمرو» ومن بعد «عمرو» لم يكرهوا قبطيًا على الدخول في الإسلام، ولم يضطهدوا مخالفينهم في الدين إلا أن يعتدي عليهم فيردوا العدوان.

ونحن لا نأبه كبيرًا للعبارات التي ذكرها «ساويرس» وإن تلك شهادة حسنة للفاقعين، وقد أصلحنا من ركبتها واضطرابها ليصبح إثباتها!

دلائل فارغة ونقول باطلة:

والكاتب الذي انتصب لوصف العلاقات بين المسلمين والأقباط، لو كانت لديه أثارة من إنصاف للجأ - ولو من باب التعوما - إلى الموازنة بين النصوص المتضاربة وترجيح بعضها على الآخر، وتحلص الآثار الروية بتقنية الكشف عن حقيقةتها باعتبارها وثائق تاريخية محرمة، ولحكي أقوال الجانب الآخر وتعرض لها بالنقد أو بالرد ... إلى آخر ما يلتزم المؤرخ النزيه.
بيد أن هذا الكاتب تنكب الجادة في بحثه كله ، من ألقمه إلى يانه فـ، فقد رحم مؤلفه
بحشود مترادفة من النقول المفتعلة ، تتساوي جميعًا لغرض تضخيم .
ويذكرني أسلوب هذا الكاتبはじم المضحي إنجليزي ألف سفر ضخمًا عن الهند - في
أثناء ثورتها على إنجليترا طالبة استقلالها - وشقح كتابه بالعادات والتقاليد الهندية
السيئة .
فلمما نشره على الناس ليطعن في جدارة الهند بخريرية قال غاندي تعليقًا على
الكاتب :
إن هذا المؤلف يشبه بعض موظفي المجالس البلدية المشغلين بجميع الظلمات ، لا تقع
عيونهم إلا على الأقدار !!
والفرق بين الكاتب الإنجليزي والكاتب الصليبيي ، أن الأول حبس عينيه على
الأوساخ والأرواح الساقطة في عرض الطريق ، وذهل عما يقع بجانبيه من قصور
وبساتين.
أما الأخير فقد جاء إلى الطريق النظيف ، وأراد - عادمًا - أن يلوثه .
وقد اعتمد الكاتب الصليبيي في تاريخه للأحداث على نقول كثيرة جدًا من ثلاثة
مصادر بينة :
1- المصدر القبطي : ونحن نلاحظ أن المؤرخين الأقباط لما وجدوا دائرة الإسلام
تسع وتشمل الجماهير الغفيرة ، وقفوا جهدهم كله على إثبات التصريحة وإظهار ما
تحمله الشعب من اضطهادات قديمة وهو ثابت عليها .
وليس يعنيهم في ذلك أن يخلقوا الأفكار ويسجوا الأوهام !
من ذلك ما رواه الأسقف «ساويرس» في تاريخ البطاركة أنه لما هبط مستوى النيل
عام 136 م قام المسلمون يتضرعون في صلواتهم إلى الله أن يزيد في مياه النهر حتى
تفيض ، ثم تبعهم اليهود ، ولكن بدون جدوى .
ولم تحدث المعجزة إلا عندما بدأ النصارى في الصلاة ، فقرر «باعون» نائب الوالي أن
يكافيهما .
فخفض الجزية وأسرهم على حياتهم في القطر المصري كله!!
ومن هذا القبيل ما ذكره أيضاً مورخنا الدقيق (!) عسن «ابن كلس» وزير
المعز لدين الله» قال:

أراد هذا الرجل أن يقلل من شأن الديانة المسيحية في نظر الخليفة».
فطلب أن يخرج أمامه مناقشات دينية، وسمع الخليفة أثناء هذه المناقشات أن الرجل
المؤمن يستطيع بإياباه أن يزحزح الجبال.
فأرسل في طلب البطريرك «أفرام» وسأله فيما إذا كان الإنجيل يحوي مثل هذا
الكلام!!
فرد البطريرك بالإجابة.
فما كان من الخليفة إلا أن أمر بالقيام بهجمة نقل الجبال وإلا محا من الأرض اسم
النصرانية!!
ذهل الرهبان الأقباط عندما أخبروا بأوامر الخليفة، فأخذوا يصلون ويبتهلون في
الكنيسة المعلقة.

وبعد مضي ثلاثة أيام رأى البطريرك في منامه السيدة العذراء تطمئنه، فتوجه
بسرعة يحيط به عدد كبير من النصارى يحملون الصليب والأناجيل إلى المكان الذي
عين له، حيث كان الخليفة ورجال حاشيته في انتظاره.
وتأكد المؤرخون النصارى أن المعجزة حدثت بالفعل وأن الخليفة أبدى دهشته وأمر
بإعادة بناء جميع الكنائس الخردة.
ثم أرسل في طلب كبار الأقباط والعلماء المسلمين، وأمر بقراءة القرآن والإنجيل
 أمامه.
ولما استمع إلى النصين ما كان منه إلا أن أمر بهدم المسجد القائم أمام كنيسة
«أبى شوندة» وبناء كنيسة مكانه!!

* * *

ويقول الكاتب الصليبي تعليقاً على هذه الخرافات:
إن «ساؤوارس بن المقفع» كان يشترك في هذه المناقشات، كما يزعم أن
«مارك بول البندقى» عاد إلى بلاده ومعه بعض التفاصيل المتعلقة بهذا الحادث.
ثم يقول: «يدعى كل من اليعاقبة والملكيين أنهم أصحاب هذه المجزرة».
والرواية التي تتضمن هذه المساحر عن «المؤرخ أبو صالح الأرمنى»، وقد تنزلنا إلى
كتابه هذا السجف مرغمين.
والسألة كلهما تضع يدك على قيمة المصادر القبطية التي اعتمد عليها هذا الكاتب
في تهجمه على الإسلام وافترائه على تاريخه.
وقد ذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان هذه الأسطورة وحكايته تنصر «ال множ
لدين الله» مما يحرف به الأقباط في هذا الشأن، فلم قال معقبًا على تلك المزاعم:
كيف يقال: إن ترتد هذه الأسطورة على ألسنة القسس وخدم الكنيسة دليل يصح
أن يطرح في ميدان البحث؟ فمتى كان خدم الكنيس مؤرخين يرجع إليهم؟
ومنة كانوا بالأخص - مؤرخين للإسلام والمسلمين؟
على أننا نذكر بهذه المناسبة أن أساطير هؤلاء القسس قد زعزعت الإيان في
كثير من مواقЛЕ التاريخ المسيحي ذاته.
وينكب أنها أسدلت حجابًا كثيفًا من الريب على تاريخ قبر المسيح، وجعلت منه
أسطورة كنسية.
وانتهى البحث ببعض أقطاب المؤرخين النصارى مثل «جورج فلني» إلى إنكار
وجود هذا القبر الذي أنشئ بعد وفاة صاحبه بنحو ثلاثةمائة عام ليكون مبعثًا
لأساطير القسس.
وأضحى القبر المقدس رمزاً لا حقيقة.
ولكن القسس مازالوا إلى اليوم يعينون لك في كنيسة القيامة بيت المقدس
وكنيسة بيت لحم موضع بعدها شهدها المسيح صبيًا ونبيًا، وأثارًا ارتبطت بتاريخه
أو بصلبه - كما يزعمون .
ببد أنك لم تجد مؤرخًا يعني الكلمة بل فردًا سليم التفكير يقف عند شيء من
هذه الأساطير رغم ما يسبغ عليها من لون الرسمية وال قدسية».
على أن الأستاذ «بتلر» - وقد أصغي إلى أساطير القسس في الكنيس القبطية
التي زارها وخصوصاً مؤلفه. قد أصدر حكمه في مقدمة كتابه على قيمة هذه
الأسطر، قيمة روائها في تلك الكلمة القوية:
"الواقع أن قليلاً جداً من الأقباط يعرفون شيئاً عن تاريخهم أو رسوم دينهم،
or يستطيعون تعليم الأمور التي يشاهدونها في طقوسهم اليومية.
فإذا سئلوا عن نقطة تتعلق بالطقوس أجابوا عادة بهز الرأس، أو بجوهر ظاهر الخطأ
يتم عن الجهل...".
قال الأستاذ "عانان" وكيفينا حكم هذا العلامة خائفة للبحث.
2- آراء المستشرقين، وتلك هي المصدر الثاني لجملة الأكاذيب التي شنها الكاتب
على الإسلام.
والمستشرقون طائفة من مفكري أوروبا الأذكياء، اشتبغوا ببحث الترتيب الشرقي في
العقائد والعلوم في العصر الذي انهارت فيه قوى الشرق وانفتخت مغاليقه أمام الغزاة
المستعمرين من دول الغرب الطامعة.
كانت الدنيا قد أدبرت عن الإسلام، والدنيا كما يقول: إذا أقبلت على أحد أعارته
محاسن غيره، وإذا أدربرت عنه سلبته محاسن نفسه.
ولو كان المستشرقون الذين اشتبغوا بفهم الإسلام وتاريخه على غرار الرجال الذين
قادوا في أوروبا عصر النهضة، لكانوا لبحوثهم منزلة كبرى ولأفاد العالم منها أجل
الثراء.
إذ إن العلماء والمفكرين الذين قادوا عصر النهضة كانوا رجالاً على قدر كبير من حرية
العقل والضمير، وكانت حماستهم في إطار البشر من أغلال الكهونت، وجرءتهم
على اكتشاف المجاهل، وإجلاهم للمنطق المجرد والتفكير المنزه.
كان ذلك كله أساس التقدم العام الذي ظفر به الحياة أخرى في مبادئ شتى.
أما المستشرقون فإنهم - إلآ قليلاً - درسوا الإسلام وفي أنفسهم رواسب من أحقاد
الكنيسة عليه، وانحلوا بأوهلا.
وهم - مع الأسف البالغ - خدم للاستعمار الغربي الذي لم يعرف للشرف قدرًا منذ وطن أقدامه بلاد الإسلام!!.

ولعل ضعف المسلمين المزري هو الذي وجه بحوت أولئك المستشرقين هذه الوجهة الجائزة.

فإن الضعف يخالط على صاحبه مهارة تعجب حقيقته، وتردى العيون عنه.

والحق أن المستشرقين لم يكونوا بصدد الكلام عن أم حية - يوم وظفهم المستعمرون للكلام عنها - بل كانوا بصدد تشريع جثة ميتة!!

ومهما احتلنا لهؤلاء القوم من أعداد في ضلالهم عن تصوير الحق وتصويره لشعوبهم التي نادمتهم، فإننا نحملهم اللائمة لفقدانهم الأمانة العلمية والنزاهة النفسية فيما كتبوا عن القرآن، وعن النبي، وعن الإسلام وتاريخه.

إني أفهم أن يدخل الباحث الحر ميدان الكشف عن قيم الدينات كلها، وهو خلو من كل غرض بعيد عن أي تعز، ثم يستعرض القرآن والإنجيل والإسلام والمسيحية ويوارز موازنة مطلقة بين ما فيها من عقائد وتعاليم، ثم يرجح أيها شاء.

أما أن يأتي مستشرق يدعي حرية الرأي فيتناول التراث الإسلامي كله، وهو ينوه تحت وقري من التراثات التي ورثها عن الكنيسة، فلا يفهم عن النبي إلا أنه بشر دعى، وعن القرآن إلا أنه كتاب مفرتي، وعن الإسلام إلا أنه جملة أوهام، وعن الفتوح الكبرى إلا أنها غارقة بعيدة المدى... إلخ.

ثم يزعم هذا المخول أنه أتي ببحث آخر بعد دراسة طويلة على هذا الأساس، فذلك ما ننظر إليه بين الأزدراء والسخرية.

تصور مستشرقًا كبيرًا "جولد زيه" الألماني يقول(1):

"من العسير أن نستخلص من القرآن نفسه مذهبًا في العقيدة موحدًا متجانسًا خاليًا من المناقشات.

فالتوحيد مذهب ينطوي على النقائض العشيرة الفهم" (كذا).

(1) من كتاب "العقيدة والشريعة في الإسلام".

وجدير بالذكر أن الشيخ الغزالي رد على الاتهامات الموجهة للإسلام بكتاب "دفاع عن الشريعة والعقيدة ضد مطاعن المستشرقين".
أما التنليث فمذهب واضح في فهم الألوهية!!

وحنن أمام هذا الرتكاس الذهني نرد مع "ابن حزم" قوله:

"... يجب ألا نعجب حين نرى الناس يتمسكون بخلافات!

انظر إلى المسيحيين فإنهم كثيرون إلى حد أن الله وحده هو الذي يعرف عددهم ومن بينهم آناس على قدر كبير من النظرة وأمراء على قدر كبير من الشرف.

ومع ذلك فإنهم يعتبرون أن ثلاثة واحد، وواحد ثلاثة، وأحد الثلاثة هو الأب، والأخر الإبن، والأخر الروح وال الأب هو، وليس هو الإبن، والرجل هو، وليس هو الله، والسيس هو الله في كل شيء، ومع ذلك فهو ليس مثل الله!

وال موجود الدائم مخلوق..."

بل إن إحدى فرقهم "المعاقبة" التي يبلغ عددها مئات الألف تعتقد أن الخالق نفسه عذب وصلب، وقتل، حتى أن العالم ظل بدون سيدته ثلاثة أيام..."

عقيدة التنليث هذه سهلة عذبة ساغة للشاربين!

أما قول القرآن الكريم:

"إن الهُمْ لواحد * رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق"\(^{1}\). فهو

كلام متناقض منهم!!

وهذه هي نزاهة القصد وحضارة الفكر عند المستشرقين.

أما فهمهم للرسالة وصاحبة فأبعد ما يكون عن الإقرار بالنبوة والوحي.

والامر، في نظرهم، لا يعدو مهارة رجل استفاد من الآراء والنحل السابقة في اصطناع ديانة جديدة.

وهم يردون - بهذا الكلام - تهم الأقدمين:

"قال الذين كفروا إن هذا إلا أفكار وآراءه، أنا عليه قوم أخرون فقد جاءوا ظلماً ووزروا* وقالوا أساطير الأولين اكتسبها فهي تملك عليه بكرة وأصيلاً"\(^{3}\).

(1) الفرقان: 44. 5
(2) التصفات: 44. 45
هذا الاتهايم بنصه وروحه هو ما بني عليه المستشرق الكبير "جولدن زيهر" فهمه الخر (!) للإسلام وبنى الإسلام عندما قال:

... إن نمو الإسلام مصطلح نوعًا بالأفكار والأراء "الهيلينستية".

ونظامه الفقهى الدقيق يعبر بأثر القانون الروماني، ونظامه السياسي - كما تكون في عصر الخلافات العباسية - يدل على عمل الأفكار والنصوص السياسية الفارسية.

وصوفه ليس إلا مثلاً تجاوزات الآراء الهندية والأفلاطونية الجديدة.

على أن من الحق أن نتأنى أن الإسلام - في كل هذه البدائل - قد أكد استعداده وقدره على اعتماد هذه الآراء وتشجعها، كما أكد قدرته كذلك على صهر تلك العناصر الأجنبية في بيئة واحدة فأصبحت لا تبدو على حقيقتها إلا إذا حللت تكرارًا عميقًا وبحثًا دقيقًا...

وهذا الطابع العام يحمله الإسلام مثلمًا على جبهته منذ ولادته.

فـ "محمد" مؤسسها، لم يبشِر بجديد من الأفكار، كما لم يبدنا أيضًا بجدبد فيما يتصل بعلاقة الإنسان بما هو فوق حسه وشعوره، وبالانهائية.

لكن هذا وذاك لا ينقصان من القيمة النسبية لطرافته الدينية.

لو أن هذا المستشرق أراد أن يتحدث عن الإسرائيليات والنصرانيات واللغويات التي التصقت بوجه الإسلام بعد انتشاره في الأرض لكان حديثه هذا موضوع نظر.

أما وهو يريد إيهام الناس أن محمدًا الأمى الذي لم يعرف أول عمره شيءًا عن الكتاب والإيام، ولم يقرأ حرفًا عن ثقافة فارس والروم والنجد، ولم يلق بالألى إلى فلسفة "أفلاطون" لا قديما ولا جدديها.

إن هذا الرجل الناشئ في صحراء مقفرة من العلوم والمعرفة إفقارها من الزرع والضرع.

إن هذا الرجل الذي ظهر في بلد لم يلتح يومًا بحضارة أخرى، ولم تنحلي عنه خصائص البداوة والسذاجة.
إنهم لا يعقلون، لأن التخصص الأعمى يلف في جاهليته الموحشة العامة من الأعراب، وخصوصاً المستشرقين.

أما القول: بأن الإسلام لم يأت بجدد في صلة الناس بالكلام ورب الكون، كما يزعم هذا المستشرق فهؤلاء لا وؤن له...

وقد يكون في المستشرقين من هو أجود فهمًا وأحسن حديثًا عن الإسلام من هذا الرجل.

ولكن جمهورهم ينطوي على غلٍ دفين ضد القرآن.

ولما كان أكثرهم يستغل بخدمة الاستعمار الأوروبي قبل اعتقاله بخدمة الحقيقة العلمية فقد جاءت كتاباتهم عن الجهاد الإسلامي مزيجًا من الخلط والإفك.

ومن هذا النوع المسمور استيق المكتاب الصليبي (وثائقه) عن علاقات مسلمي مصر بأقباطها.

والخطأ الذي يروج المستشرقون له ويتواصلون به أن الإسلام انتشر بالقوة، وأنه مذ حكم أهان الشعوب الغليظة واضطرها إلى اعتناقه.

وعلة هذا الخطأ أنهم يقينون الإسلام على المسيحية التي لم يعرفوا في أوروبا غيرها.

والحق أن أوروبا المسيحية كانت وطنًا للالتزام بالبالغ، والتعصب الشديد.

(1) يونس 1915.
ولم يعرف أهلها مداًًا للحرية الدينية إلا بعد أن صلوا جحيم التعصب في ظلال الكنيسة الحاكمة نحو خمسة عشر قرناً.
لكن قياس الإسلام بها خطأ محض.
فالإسلام قرر الحرية الدينية من يوم ظهوره على ما أوضحنا آنفًا.
غير أن المستشرقين الذين لم يتعودوا ذلك في تاريخ ديناتهم استبعدوا هذا الفرض أول الأمر من بحوتهم الحرة!!
وللختافيش إذا أسندت جفنونها في وضح النهار أن تتحدث عن الظلم الذي تعانيه، إنه طول أعينها الكليلة.
أما أن تنعم أن العالم مظلم معها فذلك الكذب الصغير أو الغرور الكبير.
لبدنا المستشرقون على أمر مثل هذا صدر من حكام الإسلام الأولين.
كتب "ميخائيل السورى" في تاريخه قال:
رأى الإمبراطور "هرقل" في منامه عندما أخذ خنه في الأفول، أن شعبًا مختونًا سيثور عليه ويهزمه، ثم يحكم العالم كله.
واعتقد "هرقل" أن هذا الشعب ما هو إلا اليهود.
فأصدر أمرًا في الحال بتعبيد جميع اليهود والسامريين الذين يفتنون مختلف ولايات الإمبراطورية.
أمر بتنصير اليهود والسامريين في جميع أنحاء البلاد!!
إن الإمبراطور في هذا يقلد أسلافه الأمجاد في مصادرة العقائد وإهراج الأم على اعتناق نصرانيته!!
ولماداً؟ ليساوس نائيم!!
إن الحرية الدينية أبداؤ ما تكون عن وهم هذا الحاكم.
ومن يدرى لعل المستشرقين الطاعنين على الإسلام، والأقباط الذين يصدقونهم في
مطاعنهم، هم من نسل أولئك اليهود الذين اقتادهم عسكر «هرقل» إلى الكنائس

حيث نصروهم رغم أنوفهم؟

لو أن هذا الأمر امتنع هكذا حاكم فرد لما ساعنا أن نؤخذ به تاريخ دين ما.

لكن هذا الأمر قد سبق إلى مثله - وقلد في فعله - بابوات وأباطرة وملوك.

فإذا صدر ، سبق الناس بالسيط إلى حيث يُعمَّدون.

فإذا عبر أحد على عصيان أمر الدولة قطع عنقه.

وماذا يفعل الناس أمام هذا البطل؟

إن عقبتهم كما قال الشاعر:

تلوا باطلا، وجعلوا صحارًا وقالوا: صدتنا؟ فقلنا: نعم!!

وعلى هذا النحو هكذا المسلمون في الأندلس، وهكذا من بعدهم الوحدون في أوروبا.

والعجب أن الذين يهيلون التراب على هذه الآنسى، يجيئون من بعد إلى الإسلام.

النقى ليقولوا له: إنك انتشرت بالسيف!!

- المراجع العربية، وهي المصدر الثالث لمطاعن المؤلف على الإسلام وتاريخه.

وصنعب المؤلف ما يقتبسه من هذه المراجع مثل صارخ لسوء النية وشهوة التحامل،

ومحاولة طمس الحقيقة، وسُوَّى كل شيء - طوعًا أو كرهًا - خدمة عرض معين.

ولو ذهبنا نفدي أكاذيب هذا المؤلف وتلبساته واحتياله على إبراز الزور في ثوب الحق.

لطال بنا الكلام.

فإنك لا تعود في كل صفحة من كتابه جريمة علمية وخلقية.

ذكر هذا الرجل اسم المدعو «ابن النقاش» وأجرى على لسانه كلامًا في أحكام

الشريعة لا أصل له.

ثم بني افتاحه في كتابه على هذه الأحكام المختلفة بعدما وصف «ابن النقاش» هذا

بأنه فقيه من الدرجة الأولى!
ونحن المشتغلين بالثقافة الإسلامية منذ ثلاثين سنة - لم نعرف ابن النقاش هذا.
 ولم نقرأ له كتابًا.
والكلام المسوب إليه لا يقوله فقيه في الدرجة الأولى أو الأخيرة.
ونحن لا نرى هل "ابن النقاش" هذا شخص موهوم أم أن المستشرقين افتتعلوا الآراء المنسوبة إليه ثم ترجمها المؤلف كما يقول؟ أم أنه اختلقها من عند نفسه؟
ولا يستغرب القارئ هذا.
فإذا لم نعرف جرأة في وضع الآراء وإرسال الأحكام وتوزيع النصوص كما عرفنا في هذا المؤلف.
إنه ينسب إلى كثير من المؤرخين كلامًا لم يقولوه، أو ينقل عنهم كلامًا بعد مقدمات لم يعرفها ليصل إلى نتائج خاصة.
وهو هذا ضرب من التدليس العلمي لا يلجأ إليه مؤرخ يحتزم نفسه.
لندع جميع الآراء المزيفة التي نسبها لابن النقاش، ونسب فيها للعمريين - ابن الخطاب وابن عبد العزيز - ما لم يعلما به! ثم لنتابع جرام جرام هذا الخلق.
في ص 39 ادعى أن "عمرو بن العاص" أسكت الزبير بن العوام عن معارضته في تنفيذ حكم أمير المؤمنين عمر، الخاص بتوزيع الأرض على أصحابها، وأن سكوت "الزبير" كان نظير رشوة كبيرة أخذها "كذا".
أرأت إلى أي حد بلغ هذا الإسفاف؟
إن المسلم قد يشعر بغضاضة من تطالب السفهاء على صحابة رسول الله بهذه الجرأة.
ولكن المسلم وغير المسلم يشعرون بغضاضة أخرى من تناول الأمور بهذه الغباوة.
"عمرو" القوي، رئيس الدولة، يرسل إلى "عمرو" الأريب وليه على مصر لأن ينفذ حكمًا أجمع الصحابة في المدينة على المصري إليه، وسبق أن نفذ هذا الحكم في أرض فارس والعراق والشام. فلتحتاج "عمرو" ولي الإقليم إلى رشوة واحد من الناس مهما كان شأنه، لتُنفذ أمر الخليفة!!
هذا هو ما استقر في ذهن الكاتب الصليبي، ونفذ منه إلى اتهام حواري رسول الله
بأخذ رشوة !!

إن القصة في عقل هذا الكاتب لا تقوم على تأريخ حقائق، بل على تجريح دين وإهانة رجال. وهذا أسلوب قديم في التبشير بالنصرانية.

وقد مضى الكاتب في سفنه يصور الواقع على هذا النحو.

فالمعروف أن "عمر بن الخطاب" كان شديداً في معاملة الولاة.

يرسم لهم لوًا من الحياة الخشنة لا يرتفعون به عن مستوى الجماهير.
وكان - رضي الله عنه - يخف أن يتسبح حكام المسلمين بحكم الروم والفرس في حياة سلطانهم بظاهر من الوجهة والتعالى.

فدعاه ذلك التوجس إلى الدقة في معاملة حكام الأ المصار، ومصدراً ما يبدو في بيوتهم من شارات التوسع والجاه.

فعل ذلك مع "أبي هريرة"، ومع "سعبد بن أبي وقاص"، ومع "معاوية بن أبي سفيان" وغيرهم.

ومن بين من نالتهم شدة "عمر" وإلى مصر "عمرو بن العاص" إذ كتب يقول له:

"إن فشلت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان، لم تكن لك حين وليت مصر."

فرد عليه "عمرو" يقول:

"إن أرضنا أرض مزرعة ومحجر، فنحن نصيب فضلاً - يعني زيادة - عما تحتاج إليه نفقاتنا".

فكتب إليه "عمر بن الخطاب" يقول:

"إني قد خبرت من عمال السوء ما كفي! وكتابك إلى كتاب من أقلقك الأخذ بالحق! وقد سنست بك ظناً، ووجهت إليك "محمد بن مسلمة" ليقادرك مالك فأخرج إليه ما طالب به وأعفي من الغلظة عليك فإنه برح الخفاء...".
وهذا الصنع من «عمرو» لم ينفرد به ولي مصر، فقد طبقه «عمرو» على أبنائه العائدين من الكوفة.
وفقه الموضوع لا يعدو أن «عمرو» يريد جعل ولاته طرازاً من الخкам الزهد، لا يتطلعون إلى منتاغ الحياة، ولا ينالون من خخارفها ما يلقح بالذين أنه يقوم على استغلال الشعوب أو هضم حقوقها.
أين هذا ما تدلح إلى الكاتب الصليبي إذ يقول عن «عمرو بن العاص»:

«إن الخليفة اتهمه صراحة بأنه اختلس مبالغ كبيرة من المال» ص ۷۲.
ثم يعقب على ذلك بقوله:

»ليس يستغرب أن يغتفر عمرو المال، وهو العربي البدوي الذي وجد نفسه بين عشية وضحاها أمام ثروة كبيرة ..ً.».
إن هذه الوضعية في التفكير والتعقيب تجعلنا نتجاوز هذا الصغر كله.
فإن رجلًا يضطرب في أحواله على السفوح الدانية، لا يعرف أحوال القمم التي تعم الشمس هاماتها في الشروق وفي الغروب.
لقد أرسل الموقوفي بعض رجاله إلى جيش عمرو، يحملون رسالة إلى القائد الفائز فاحتجزهم عمرو يومين، ثم أعادهم للموقوفي فقالوا - يصفون المسلمين -:
«رأينا قومًا، اللوى أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة.
إذا جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم.
ما يعرف رفعهم من وضعهم، ولا السيد منهم من العباد.
وإذا حضرت الصلاة لم تتفت خلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشون في صلاتهم».
مع ذلك يوغل هذا الكاتب في كذبه، فيزعم أن «عمر بن الخطاب» وضع الأسس
في معالمة الأم المفتوحة بقوله:

"يأكلهم المسلمون ما داموا أحياء، فإذا هلكنا وهم أنفسهم، أكل أبناؤنا أبناءهم ما بقوا"!

ويروى ذلك عن أبي يوسف!!

وفي هذا النقل عدد مفصل مبين.

فإن المعالمة المقررة بين المسلمين وغيرهم لا تخفي قواعدها حتى يستجلب لها هذا
الذين قواعد من عينه، يفرغ فيها سموه ضد الإسلام، ويعمل بها تخفيض
الأقيان على محاولةً.

إن التاريخ يعرف من الذي أكمل الأم المغلوبة.

وهل خطأ العالم إلى الأمام إلا يوم تخلص من قيود الكنيسة المفروضة على البدامور
والأفكار؟

أما «عمر بن الخطاب» فهو صاحب الكلمة التي لا تزال أضواءها تشع من خلال
القرن السحيقة: «منى استعبلت الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرازا»؟

فلينظر القارئ كيف يسول الحقد لأصحابه جحود الحق المشرق، واحتكلاق
الأكاذيب البعيدة، وتصميم هذا وذاك تأريخًا منزهًا!

أرأيت مؤرخًا لفضح مصر يأتى كتابة المعاهدة التي تمت بين المسلمين والأقبيات؟

أو يتابع - بأمانة - سير المفاوضات بين الفريقين؟

أو يذكر تفاصيل الخوادث ذات الدلالة الخطيرة مع أنه سدو بالتوافه الصفحات
الطوال؟

إنه رجل أراد أن يصور الإسلام.

فلم يرجع إلى آيات القرآن، ولا إلى شروح المسلمين المعتمدين.

بل عمد إلى ما تربى إلى التفسير من إسرائيليات ونصريات، وإلى ما شاع على
ألف سنة اجتهال من أحاديث موضوعات.
ثم أخذ من ذلك ما يلائم أهواه، وأضاف إليه المزيد من عنده وادعى - بعد أن
أتي بصورة كاملة لتعليم الإسلام!

كذلك فعل هذا الكاتب في تصوير الروابط بين المسلمين والأقباط.
ولقد استعرض من المراجع ما شاء، وذهل عن الوقائع الناشئة التي زاخرت بها.
ثم صدف عن كل ما أحاط به من شواهد رائعة.
لأن عينه - كما قال «غاندي» في الكاتب الإنجليزي المتحامل على الهند - لا تقع
إلا على الأقدار.

وتحدث الكاتب عن ثورة للأقباط بمصر، وهو كاذب كعادته.
فقد حدثت بمصر ثورة حقًا، ولكنها ثورة عامة لأسباب سياسية أو اقتصادية.
كتب عنها المقريز يقول:

"مما كان في جمادي الأول عام 371 هـ انتفض أسفل الأرض بأسره عرب البلاد
وبرقوها، وأخرجوا العمال، وخلعوا الطاعة، لسوى سيرة عمال السلطان فيهم، وكانت
بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب".

فنداء الأقباط في الثورة كان مؤازرة جموع المسلمين الثائر، والمسلمون يؤمنون هم كثرة
السكان.

وقد سبق لعرب الحجاز أن ناروا فأطهشت ثورتهم وهوجمت المدينة وصلب
بها "عبد الله بن الزبير".

وهذه الثورات وأمثالها في تاريخ الإسلام لها طابعها المعروف.
وإلباس الثورة في مصر ثوب الاضطهاد الديني محاولة فاشلة لجعل تاريخ الإسلام
مشابهًا لثورة العالم النصراني في التعصب ضد الأقليات.
وقد انتهت هذه الثورة جماعة من اليونان المهاجرين يدعون "البياماي" فعاقروا في
الأرض فسادًا وارتكبوا أعمالًا شرسة.
إذ أحرقوا "رشيد" وقتلوا سكانها المسلمين جميعًا.

(1) ذهب بعض جموع المسلمين إلى أن الأقباط يقصد بهم المصريين وليس المسيحيين، وهذا رأى راجح. وبناءً
عليه، قد يكون المصطلح بالفقرة السابقة: عرب البلاد القادمون من الجزيرة العربية وقطها المصريين من أبناء
البلاد. ولا دخل للمسيحيين هنا. أي أن قبطين يعني أبناء مصر من مسلمين ومسيحيين. (المحق)
وقد أسرع الخليفة «المأمون» بالجيش إلى مصر مخافة أن تكون هذه الثورة طبيعية هجوم يقوم به «الأمويون» بالأندلس، وأعلن عند قدومه عفوًا عامًا عن الخائرين من المسلمين وأقباط شريطة أن يلتزموا الهدوء.
فأما المسلمون فقد خضعوا.
وأما «البيامائ» فقد أصرأ على تمزقتهم، برغم أن الخليفة أرسل إليهم البطريرك القبطي يطلب منهم التسليم، فلم رفضوا أضرار إلى إحضارهم.
وقد حقق «المأمون» في أسباب الثورة، فرأى الوالي «عيسى بن منصور» مسؤولاً عن اشتغالها بسياسة الخاناتة فعزله عن العمال.
والممل لا يسعه إلا أن يسخر من أوصاف المستشرقين لحركة «البيامائ» هذه، وما نسجت الخيال بدلاً عن المستنقعات التي يسكنون أطرافها والأحراش التي يختبئون فيها، والدروب التي ينقطعون منها، والهيزام التي أوقعها بجيوش المسلمين برأى وبحر (؟)
كأنهم يصفون قطعة من منطقة الغابات، على شاطئ جزيرة في بحر الظلمات.
والأسطورة التي خلقت حول هذه القصة وروج لها الكاتب الكاثوليكي ترويج، إن دلت على شيء فعلى الرغبات الكبيرة لدى هؤلاء الناقمين.
إنهم يودون لو انجلعت في كل قطر من أقطار الإسلام ثورة جامحة من النصارى الذين يعيشون به.
إنه هذه الرغبة لتنجم في مواقف الخلاغ الذين يتخيلونها، ولا مكان لها إلا في أوهامهم المريضة!!
فإذا فتحوا أعينهم على الواقع الهادئ عادوا بيننون جهودًا أخرى لتحريض الأقليات على التمرد والجذوع.
فلجأوا إلى خديعتها - بالكذب - بغية إحداث ما يرجون من شحب.
ولا كانت أرض الإسلام لا تعترف إلا مواطنيين متساوين في الحقوق والواجبات مهما اختلفت أديانهم، فإن الخطة التي اتبعها هؤلاء لإدراك غايتهم تقوم على إيجاد الأقليات بأنها مغبونة، وإزراقها بالتزيد قدر الاستطاعة من الحقوق، والتخوف قدر الاستطاعة من الواجبات.

ولن يتم ذلك - حتمًا - إلا على حساب الكثرة. فإذا تحقق هذا الافتراض واستذال المسلمون فيها. . إلا فإن شعور الأقليات - بعدم بلوعها ما تنشد - سيظل عامل قلق وغضب!!

وعندى أن الصليبية الغربية تحمل أوزار هذه الخطة الجائرة.

وها هي لاتزال تسخر عملاءها في الشرق لتجديدها كلما درست.

ونحن - بين الفينة والفينة - نرى جهود هذه العصابات المسيرة موصولة بالنداء لإعانت المسلمين والأقباط على السواء.

* * *
حقائق لا مندوحة عن ذكرها
ويؤمنا أن نفرق من الأقباط قد أقتنع بالخطيئة الألفية وقرر تنفيذها.

ونقول: نفرق منهم، لأنهم كثرى منهم على قسط كبير من ذماثة الحلق وعدلة الحكم ومعرفة الواجب.

أما النفر الآخر فهو يرجع للمسلمين العنت.

ولو استطاع لخلق بهم الأذى ومسلكه، إذا تولى وظيفة هو علة الاضطراب الذي يعكر ما بين المسلمين والأقباط من علاقات.

وأظن أن واجب الأقباط قبل المسلمين يتقاضيه إقصاء هذا الصنف الحقوق من ميدان الحياة العامة، فإنه لو ملك زمام طأئته جر عليها الكوارث.

أما المسلمون، فإنهم لم يكتفوا بالعدل حتى ضموا إليهم الفضول فكان إحسانهم إلى الأقباط سيلًا غدًا.

والكاتب الكاثوليكي الذي تكلم عن أحوالهم منذ الفتح يذكر في جلاء تام أن الحكومة المسلمة وظفت الأقباط فيما يصبحون له من أعمال. فكتب ص 10 تحت عنوان: «الأقباط يعتبرون الأعمال الإدارية»:

إن الأحداث التي ذكِرتها لا تعني أن الأقباط كانوا تعصيا تحت حكم الولاة العرب، بل إنهم كانوا أسد роли كثيرًا ما كانوا عليه أيام الرومان، وبالرغم من جهود الخلفاء وإهتمامهم بتطبيق تعاليم القرآن، فإن الأقباط لم يقتصروا على شغلهم الوظائف الإدارية فحسب، بل كان لهم الأمر والنهي في بعض الأحيان، وبنى نظام الضرائب والحسابات بين أيديهم ما أتاح لهم الفرصة لتحقيق إمكانيات كبيرة.

وكذلك يمكن أن نقول:

إنه فيما يتعلق بالأقباط ظلت تعاليم القرآن غير معمول بها (!). وقد أظهر الخلفاء مراراً رغبتهم في إبعاد الأقباط عن الوظائف الإدارية، كما أظهروا خيبة أملهم، فشفيقي إن لم يكن كابيًا! كمما وجدوه في مناصبهم، ولكن دراسة عمرو بن العاص السياسية تغلبت على تزمنت عمر الدين. . . .
هذا الكلام الذي ذكره الكاتب، تلمح في ثناياه مشاعر الحسنة، ونكران الجميل، والكرامة العميقة للإسلام وأهله.
فلً أن لديه ذرة من إنصاف لذكر الحقيقة مجرد واعترف - راضيًا أو ساخنًا - بآثارها البازرة.

إن الأقباط وظفوا في شتي الأعمال وعلى مدى القرون.
فًما أن يقال: إن ذلك كان ضد تعاليم القرآن، وأن الفضل فيه لعمرو - كأن «عمرو»
طال عمره ألفًا من السنين وثمانية أخرى!! فكلام معروف أن الطعن في الإسلام هو باعثه وغايته!

لقد وظفت الحكومة الإسلامية الأقباط، لأن الإسلام بريء من التعصب الأعمى.
والنما الذي يضبطها إلى ذلك؟ إن احتاجته إليهم سنة أمكنها الاستغناء عنهم في السنة التالية، بإخوانهم الذين
أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجًا.
وذلك كله على التسليم بأن في الأقباط كفاية إدارية وحسابية امتازوا بها على العالمين، كما يزعم هذا الكاتب المسكون.

وإيبلاغ هذا الكاتب في شئبه يثير الاستنكار.
فهو ما أرى الأقباط يوظفون في كل عهد، بدأ يعلل لكل عهد.
فالحاكم هنا يحتاج إليهم.
وهنا يريد الاستقلال بصر.
وهنا كان له أستاذ قبطي.
وهنا كانت له زوجة قبطية.
وهنا لأنه نصراني في السر! وهكذا...
فإذا فصل الأقباط من عمل صاح: عاد الحكم إلى تعاليم القرآن.
ونحن لا نقف عند نقيصة شخص كونه يجد أداء الإسلام عليه وعلى آلها.

ولكننا نخمع وننزف عندما نرى هذه النعمة التي أسداها الإسلام قدر كفرت على نطاق واسع، وأن الموظفين الأقباط يعتبرون هذه السماحة المشكورة لونًا من الغفلة الكبيرة تنبع منهم إيداء المسلمين المستسلمين في نفاوة صدرهم وبساطة سلوكهم، وتمكنهم من إعلاء ديانتهم وخدمة مأربهم!!

وأنهم - كهذا الكاتب وهو موظف بأخذ مرتbie من حكومة مسلمة لا يرون في الإسلام إلا خرافة انتشرت بالعدوان، فيجب أن يسهو أمه سوء الذاذب.

وقع نحن لا نرسل القول على عواهتنا.

فهذا الكاتب نفسه ينكي من أحداث التاريخ السود ما يدمغ أمثاله بالحساسية والجروح.

أليس يذكر أن الخليفة "أبا جعفر المنصور" أصدر أوامر دقيقة بإبعاد الذئبين من الوظائف؟ ولماذا؟ يقول في ص ١٠٦:

"إن هذا الإجراء لم يشهده مشكل به من قبل، بل كان وليد سايعه، فقد تقدم إلى الخليفة في أثناء فرصة المجح بعض المسلمين، والتمسوا أن يحميهم من جور النصارى".

ويقول في ص ٢٧١: "الواقع أن الذئبين لم يقالوا من وظائفهم دفعة واحدة.

فإنهم في خلافة المهدي - أصبحوا أصحاب الأمر والنهي وأظهروا كبرياءهم حتى سخت عليهم المسلمين واحتقوا على ذلك".

ويقول بعد ذلك: "استمر النصارى يتمتعون بشغال الوظائف كما كانت حالهم في الماضي.

واحسن دليل على ذلك ما صرح به الأمام لكاتم سره، لما كان في مصر، قال:

" لقد سئمت من الشكايات التي ألقاها ضد النصارى، بخصوص

اضطهادهم للمسلمين وعدم نزاهتهم في إدارة الشئون المالية"،(١).

(١) هذه النقل ترجمها الكاتب عن الفرنسية، والعدة في روايتها عليه.
إن هذه الشكايات لم يختص بها عصر بعينه، حتى تعرض عنها، باعتبارها حالة شاذة، بل سبقت في العهد الأموي، واستمرت في العصر العباسي، وترددت في مصر أيام الفاطميين والمماليك والأتراك.

وأطراف الشكوى على هذا النحو الدائم، قد يفسر لنا سلسلة الأوامر التي كانت تصدر بعزل الأقباط عن الأعمال العامة، وتحييتهم عن المناصب التي يدفعهم التعصب الأعمى إلى ظلم الكثرة فيها.

على أن الأقباط لا يلبثون طويلاً حتى يعودوا إلى أعمالهم.

ولعل ذلك يرجع إلى أمرين:

الأول: أن سماحة الإسلام يجعل الشعب سريع النسيان، فليل الاهتمام بحماية الفروق الدينية، ضعيف الأخذ لنفسه إذا وقع عليه عدوان أساسه التعصب.

والآخر: أن فساد الحكم داء عضال في بلاد الإسلام.

فكثر من الولاة بحب السكر والعريدة والكبر.
ولن يعينه على دناءته تلك إلا أحد رجليين، إما مسلم لا دين له، وإما رجل ليست له بالإسلام صلة، يهوديًا كان أو نصرانيًا.

ومن ثم كانت حواشي الأمواء في أغلب العصور تضم هذين الصفين.
وقد أحسن الأقباط استغلال هذه الحالة استغلالاً كبيراً لمصلحة طائفتهم الخاصة، ونالهم من ورائها مغام جزء.
والأقباط لا يلامون على هذا، إلا إذا كنا نكلفهم حراسة الإسلام إن نام أهله عنه!
وإذا نحن نحن نهدوهم عجبًا إذا سمعنا أحداً منهم يتهم المسلمين بالتعصب.
وكان أولى به أن يتهمهم بالغباء.. إلا إن كان في اتهامه الأول ماكرًا أو هازلاً.

***

و عندما افتتح الإنجليز قناة السويس، وأطلوا الوادي سبعين عامًا، كان الإسلام مصابًا بطعنات نافذة من حكامه الحوينة.
ونظر الإنجليز إلى الدين الجريج وأهله المقهورين، ثم قرووا الإجهاز عليه وعليهم.

فرأى "لورد كرومر" أن يحكم البلاد بنغض يتخذه من الموظفين الأقباط.

وقرر أن يستكثر منهم استثمارًا بالغًا في الدوافع والمصالح والمناصب الهامة.

وأثنى أن يضيع الخناق على الأكبرية، متخذًا ألاف الخيال لحرمانها من حقها.

وإن كان لا بد من توظيف بعضهم في عمل ما، ففني أشغال الخدمة والدرجات

الدنيا فحسب !!

وهذه سياسة صليبية قدض بها الفضاء على الإسلام بأسلوب "الدبلوماسية"

الخبيثة التي برز الإنجليز فيها.

وكانت جريحة "كرومر" على وضع هذه الخطة وتنفيذها مستمدة من جهل الحكم

الكبار جهلاً مطبقًا بالإسلام وحقوق أهله، مما خلز إلى هذا الإنجليزى السليط أن في

وسعه إعادة الحياة في مصر إلى ما قبل دخول "عمرو بن العاص".

فأما استفاغ المسلمون من أثار النكبة التي صرعتهم وقاموا يناوشون أعدهم،

ويالون ب حياتهم ودينهم، بدأ كأن الأقباط يريدون الاحتفاظ بهم (1) "كرومر" في

سياسة التوظيف (!).

وحمل لواء هذه الفكرة الخاطئة لضيف من المتهوسيين الأغوار، في مقدمتهم

الصحافي المعروف "سلامة موسى".

***

إن قلة الإنسحاب تمر الأرحام القريبة.

أفتراها تبقى على عقد بين شريكين، أو عهد بين مواطنين؟

وإذا كان القرآن قد أوصانا بالأقباط إحسانًا وبرًا، ونبي القرآن عهد إلينا أن نسدى

إليهم إحسانًا وخيرًا، فهل ما يستزيد تلك المشاعر النبيلة، ويستدرها أن نقط فقلاً:

مفرطون! أو نحن في فقلا: مغضون! ؟

فإن كنا أقوياء خدعنا، وإن عرض لنا ضعف وجدنا الشماتة والتحدى.

(1) اقرأ في كتابنا "من هنا نتعلم" فصل بين الهلال والصليب.
ونحن لا نؤمن على ما دار من تزاعماً - طال أو قصر - حول سياسة التوظيف، بقدر ما نؤمن لسلوك الموظفين الذين اتمنتهم الكثرة على مصالح الدولة.

فإنما بالتعصب يسلَّد على أعيانهم ليلاً وبلياً، لا يرون فيه إلا أشباحاً تخلقها الكراهية العميق ة للإسلام وأهلها.

ذكر القلقشندي في كتابه "صحيح الأخذ" أنه في أيام "الخليفة الداخل"، اتضح أنهم Packet by Packet باكستاناً وسطها بالخيانة، وتفندنا في أذي المسلمين، وقد استعمل منهم كتاب يعرف بالرسالة، لقب بالأب القديس، الروحاني، النفيس، أبي الآباء، وسيل الروس، مقدم دين التصرينية، وسيد البطريكية، وصوفي الرس، وخالر، وثالث عشر الحواريين.

صدر هذا "الخليفة" عامة من في الديار المصرية من كتاب وحاكم وجندي وتاجر.

وانتقد بدأ إلى الناس على اختلاف طبقاتهم.

فخوره بعض مشاهد الكتاب بخالقه ودعاه ومحاسبه.

وحذره من عواقب صنعه وأشار عليه بترك ما يكون سبيلاً في هلاكه، وذلك بحضور من كتاب مصر وقبرتها.

رفع عقيره قائلًا: "نحن ملاك هذه الديار حرًا وخراجًا، ملكها المسلمون،

وتبلغوا عليها وغيبوها من أديانًا.

نحن مهما فعلنا بالمسلمين فهو قبالة ما فعلوا بنا، ولا يكون له نسبة إلى من

قتل من روادنا ومعلومنا (إلى أيام الفتح).

فجميع ما نأخذه من أموال المسلمين، وأموال ملوكم وخلافائهم حل لنا، وهو بعض ما نستحقه عليهم.

فإذا حملناهم لمالًا كانت المنحة لنا عليهم.

فاستحسن الحاضرون من النصارى والأنوار من سمعوه منه (إلى واستعادوه). اهـ.

نقل الكتاب الصليبي هذه الرواية، وأنه يوسع إلى الموظفين الأقباط أن يعتقدوا أفكاراً الباطلة ويسوسوا مصالح الدولة على هديها!!
ولا كانت هذه المعاني التي عرف بها "الراهن" متوارثة متبادلة، فإننا نستغرب شيوخها ونساءل عن بواعث تكراها.

لقد دخل الإسلام مصر وهي مستعمرة لرومان فحرواها، مما جعل أقباطها ينتعشون بعد هزال وضعة.

ثم ارتدى القسم الأكبر من الأقباط أن يعتنق الإسلام دينًا، وبقى الفريق الأقل على نصرانيته.

ولم يستأثر من أسلم بوظائف الدولة كلها، بل منح مواطنيه حظهم منها. فهل يكون جزء المسلمين على إنصافهم واعتدالهم أن يحاول الفريق الأقل انتهاب كل شيء استغلًا لرئيس الدولة واستهتارًا بجمهور الشعب على النحو الذي فرأته نبأ؟ لماذا تنبنج القلوب بهذا الحقد الدفين على دين آخر العفو على العقوبة؟ واختار الجود على الشجاع؟

إن النصرانية استأصلت خصومها استئصالًا بشعاً.

فهل الإسلام - حين يسبقه خصومه ويلفظون إليه - يلقى منهم جزاء سنوار؟ لقد ضاقت جموع المسلمين بما وقع عليهم من عدوان الراهن "ابن أبي النجاح" المستولي على الخليفة الفاطمى فقتل الراهن والخليفة ثم تعرض الأقباط بذاة لبعض الإيذاء.

بيد أن مسلك الموظفين لم يطرأ عليه تغير كبير.

فقد ظلوا على عبئهم مال الدولة، وبقيت نظرتهم الضيقة العطنة إلى أنه حل لهم، يغبون منه كيف شاءوا، محتجين بأنه حقهم الذي اعتصب منهم منذ الفتح!

حتى جاء "تابليون بونابرت" إلى هذه البلاد، ورأى في فترة الاحتلال الفرنسي انقطعه هو ورجاله عن وطنهم أن ينظم شؤون الإدارة والمال، فهالله ما كان يصنع الأقباط بها، وفطن إلى سيرتهم المريبة.

وإنك لتقرأ اعتراف الكاتب نفسه بهذه الحقيقة في قوله في ص 213:
نعم إنه استعان بهم في جباية الضرائب كما فعل المماليك من قبل لكنه اتخاذ هذا الإجراء مرمغًا، إذ كان يتحدث عنهم بسخوة شديدة فيقول:
«إنهم لصومس مكرهون في البلاد غير أنه يجب مراحتهم لأنهم يعرفون الأصول العامة لإدارة البلاد دون سواهم».
لذلك عين المعلم "جريس الجوهرى" مباشرةً عامًا وخوّل السلطة على سائر المباشرين، وعلى أن يكون معه موظف فرنسي لراقبته.
ثم لم يزل "بونابرت" منذ هذه اللحظة يترقب أول فرصة للتدخل من الجوهرى.
فلما ترك القائد الفرنسي مصر أرسل إلى الجنرال "كليبير" كتابًا مورخًا في 22 أغسطس 1799 يقول فيه بصراحة:
... كنت مزعمًا إن سارت الأمور سيرها الطبيعى وأن أضع نظامًا شديدًا للضرائب يجعلها تستغنى تقريبًا عن خدمات الأقباط...
وفي صفحة 219 يقول: "خلف "مينو" الجنرال "كليبير".
ولما كان "مينو" رجلاً إداريًا فقد أظهر ربيته من المباشر القبطى الذي كان غير محبوب من الفرنسيين، وكان الفرنسيون يعاقبون بفسوهما المباشرين الأقباط الذين اختلسو الأموال.
وكانوا يتربعون الفرصة للاستغلان عن هؤلاء الموظفين غير الخصيين.
وفي شهر "فاندميير" عام 9 من السنة اتهم "أستيف" الأقباط باختلاس 1432 جينهًا على حساب دافعي الضرائب، فأمر "مينو" بالقبض على المباشر بأبي طقية وتغريمه 75000 جنيه لتعويض الخسائر.
ومسلك "مينو" في تغريم الأقباط هذه المبالغ الجسيمة يفسر لنا ما كان يصنعه الولاة من مصادرات متكررة لما يتجمع في أبدى الأقباط الموظفين من أموال.

(1) حصل الكاتب على نصوص هذه الوثائق من مذكرات مطبوعات المكتبة الخاصة للملك السابق.
وكان الكاتب الصليبي يعتبر ذلك آية تعبس المسلمين، واقتباسهم على الأقليات
وً وً وً لا يعودنا لما وقع من سرقات.

ويقول الكاتب نفسه: ".. نقراً أيضاً في البند الرابع من الأمر المؤرخ
1051 (1) "فانديمير" عام 10 الخاص بإعادة تنظيم الإدارة المصرية.

"إن الأقليات ما هم في مصر إلا أقلية مكروهة من المسلمين لأنهم يعملون على
إثارة هذا الخنق عليهم.

إنه يجب أن نضمن لهم العدل والحرية.

ولكن ليس من الحكم - بل من الخطر - أن نتحالف معهم ونمنحهم امتيازات،
لذلك سيضمار رؤساؤهم ورؤساء الأمتين اليونانية والسورية جلسات الديوان على
أن يكون رأيهم استشارياً فحسب.

وعمل "مينو" على تحقيق مشروع "بونابرت" الخاص بتجريد الموظفين الأقليات
من امتيازاتهم.

فألغى - فعلاً - وظائف المباشرين في النظام الإداري الجديد" ص 220.

إن الحكومة لا تقوم على السرقة، وشئون الدولة لا تصلح بالفوضى.
ومهما رحب الأقليات بدخول الفرنسيين مصر، فإن قواد الحملة لا يكثرون بهذا
الترحيب إلا في حدود ما يضمن انتظام الأمور في أيديهم.

وقد انتحعوا بالأقليات - رجالاً ونساءً على ما سئنحل بعد، انتحعوا بهم على
الأسلوب الذي يتقه الأجانب دائماً، عندما يضربون كتلة الشعب ببعض
الخونة.

فليسوا في أيديهم - إلا أدوات تستعمل بقدر، ثم تهم إذا قلت جدواها.

وقد احتال "نابليون" لترضية المسلمين بكل ما لديه من وسائل.
لكن المسلمين أبا إلا الثورة عليه، فما اعتبروه إلا مغامرًا لإذلالهم وغصب
بلاهم.

أما النصارى فقد انضموا إليه غالبًا وقالباً.

(1) يقصد عام 10 من ثورة فرنسا التي قامت 1789.
فكان هم نابليون الأول أن يعالج من استعصوا عليه بعد أن وضع في جيبه من الاستراحات مقدمة.

فكتب لقواده في مناسبات عديدة يقول لهم:

»مهما فعلتم تأكدوا من أن النصارى في صفكم، فلا تترددوا إذن في تفضيل المسلمين على النصارى».

وكرر هذا القول على الجنرال «كليبر» قبل ريحنه إلى فرنسا.

وأما النصر على القوات التركية في «أبي قير» وأراد أن يطمئن الأعيان والعلماء صرح علانية:

»نعم إني أكره النصارى، لقد سحقت ديانتهم وهدمت هياكلهم وقتلت قساوستهم، وهدمت صلبائهم ونكرت أبائهم.

وعلى الرغم من ذلك فإني أراه يفرحون لفرحى ويتاملون لألمى.

فهل من المقبول أن أعتنق من جديد الدين المسيحى؟

وما هي الفائدة التي ساجننيها من هذا العمل؟».

و هذا التصريح يومئذى إلى ما صنع «نابليون» في أوروبا عندما حمل روح الثورة الكبرى في فرنسا ثم طوف بها الأفاق، وأزاح العوائق التي وضعتها الكنيسة في طريقه.

وكانت الكنيسة يؤمنها معقل الرجعية التي آزرت الملك وأهانت الشعوب وقد جاء «نابليون» مصر بهذه الروح.

فهو ابن الثورة التي كفرت بالنصرانية خادمة الاستبداد، وقاهرة العلماء، وقائتلة الحريات.

غير أن أقباط مصر هرعوا لاستقباله بوصفه أنه رجل مسيحي جاء ليحتل بجيشه بلاد الإسلام.

ولم يترددوا في تكوين فرقة مقاتلة تنضم إلى عسكره، رغم أن هذا القائد لم يتناول الأمور بعاطفة صليبية متعصبة.
فهو - أولاً - وأخيراً - ولبد ثورة معروفة المبادئ والأهداف، لم تبال بتحطيم الكنيسة.
وقت قساوستها عندما وقفت ووقفوا في طريقها.
ونحن نكرر العجب من مسلك الآقباط بإزاء من عاشوا معهم عصورًا وتركوا لهم الوظائف المالية يعبرون منها كيف يشاءون.
أجل نعجب!
فما كذلك يريد جميل، ولا كذلك يدافع عن الوطن، الوطن الذي يزعمون أنفسهم أصحابه الأولين.
أخبر التخصص ضد الإسلام أن يرفض في ظل الأمن، وتقبل في ظلال غيره.
الدينية؟! ولكن... إن هذا هو الذي حدث.

بطر المدلين:
أجمع المؤرخون على أن الآقباط كانوا مستثنين أيام احتلال الرومان لمصر، وأن هذا الاستثمار بلغ مداه قبل الفتح الأعظم.
فإن الرومان، وإن كانوا نصارى يومئذ كأهل مصر، إلا أن الاستعمار لا يعرف غير علاقة السيد بالعبد.
يضاف إلى ذلك ما قررنه من اختلاف الآراء في فهم عقيدة التثليث.
فإن آقباط مصر كانوا «يعاقبة» لهم في فهم هذه عقيدة مذهب يخالف ما استقر عليه الأمر عند الكاثوليك الرومان.
اكتشافات النصارى الدينية تحمل طابعًا عنيفًا يصطبغ - غالبًا - بلون الدم.
وقد انتهى أمر القبض إلى أن فقدوا حريتهم الدينية والمدنية فلم يرفعوا روؤسهم إلا منذ تمكن المسلمون من سحق قوى الرومان في عشرات المبادئ التي احتموا فيها القتال من آسيا إلى إفريقيا.

***
استرد الأقباط حقوقهم المفقودة، فاسترجعوا الكنائس التي سلبوا منهم، وأحسوا
فيها ما خطر من شعائرهم، وأسهموا في حكم البلاد بعدد كبير من الموظفين، وانتهى
إلى الأبد عهد الفتن الذي كان يخرق بطارقتهم ثم يرمي بهم في أعمق اليم.
ذلك أن المسلمين لا يفقهون منطق الإكراه في العقيدة.
ولستنا نزعم أنهم لا يعرضون دينهم على الناس، كلا.
إنهم يذكرون به، ويشرحون أصوله، ويبحثون دعواه.
فمن آمن رحبوا به، ومن أعرض عنهم فهو على عقد الدمة.
يعيش بين المسلمين كواحد منهم، له ما لههم، وعليه ما عليهم.
ولا يوجد في الدنيا أمر بمنقد هذه المعاملة المقبولة، إلا أن الأقباط فوجئوا بأمر لم
يكن في حساباتهم.
هو أن جمهورًا غفيرًا منهم ينفضون من حول الكنيسة ويدخلون في الإسلام.
وأن هذا الجمهور يتضاعف عددًا على مر الأيام.
وقد حزن الباشارة والفساسة لهذا الحدث الجلل.
إنهم رحبوا بدخول العرب محرومين، ولم يدر خلدهم أن تتحول رعيتهم بين
عشية وضحاها إلى مسلمين!
ولكن ماذا يصنع العرب؟
أكانوا يصدون بالقوة من يدخل في دين الله بغض مشيئته؟
يدو أن ذلك ما كانت ترقبه الكنيسة القبطية!!
فلما تتابعت السنون وال المسلمون يحرون من ينضم إليهم، والكنيسة ترى نفسها
كجزيرة انحصرت وراء فيضان طام من أتباع الدين الجديد، دبت إليها مشاعر الكراهية
للإسلام، وشرعت تظهر حنيًا وتضمر حنيًا تبرمها به حكومة وشعبًا...
ونحن نفهم تشبث الكنيسة بالحياة، وسخطها من حول الشعب عنها، وقد نعذراها
إذا احتد غضبها.
بعد أن تغير الأحوال - ينبغي أن تدرك حقيقة وضعها، وأن تعرف بالتطور
الواقع - فليس منه بد.
وإذا فكرت في وضع عقبات دون تفليس أن أنها بها - ومن حقها ذلك - فليكن
تفكرها في حدود معقولية كريمة ..
أعني أنه لا يجوز أن تخرج المسلمين في الداخل ولا أن تنأم على سلطانهم مع
الخارج.
فإن العهد الذي يحوطها بسياج من الرعاية والحماية يفرض عليها ذلك.
فإذا حدث أن نبتل جهادًا مدنيًا أو عسكريًا لإسقاط الإسلام كدولة حاكمة ، فإن
هذا يبت عهود الدمة المرممة بينها وبيته.
ولا شك أن رجال الكنيسة أحسوا هذه المعاني ، وقد التزم الرجال الرسميون منهم
بالمحافظة عليها.
غير أن أمورًا أخرى كانت تجري من وراء ستار.
إذ اندفع الطائشون والناقمون يشنون على الإسلام حربًا من البغضاء والترصب.
وجمعهم فلؤهم الباقية ثم يجمعون على سياسة من الكيد والاحتياج لإلحاق
الأذى بهذا الدين ووقف رحمة المتلاحق.
ولكن انكشف جزء من هذه السياسة الخبيثة في مسلك الموظفين الأقابط - الذي
أوضحناه - منذ الفتح، إن الجزء الأخر يتعدى حدود العراك على المناصب الحكومية
وإساءة استغلالها .. إلى سياسة الحكم الإسلامي في البلدان الدولية الكبير .. وهنا
خطر كله!!
ذلك أن صغار القمس والرهبان علقو قلوب رعاياهم بالنصرانية المتأهبة هناك خلف
الحدود!
إن انتشر الإسلام بهذه السرعة الخائفة جعلهم يجفون منه على مصيرهم.
فتنسبوا آلامهم الماضية، وأسسوا آمالاً جديدة في بقاء النصرانية الرومانية تقاوم
الإسلام وتقاتل المسلمين.
وسرت هذه العواطف الجديدة في صفوف الأقباط، فأصبحوا يتتابعون أنباء الصراع
بين المسلمين والرومان خارج الحدود باهتمام بالغ.
فإن انتصار الرومان استبشروا، وإن انهزمو وجموا.
وكأن المسلمون - مع هذه الحال المتكررة - لا يظلمون الأقباط ذرة من حقوقهم العامة.
ومع ذلك فإن الأقباط ناقمون!!

وما نقوم إلا أن أعناه الله ورسوله من فضله
ولنعد إلى الماضي البعيد نبني دفائه، ولنندرج مع الحوادث حتى نصل إلى هذا العصر.

* * *

يقول "ميخائيل السوري": "إن "عمر بن عبد العزيز" أسس معاملة النصارى حين
اضطر جيشه إلى رفع الحصار عن القسطنطينية بعدما حملت خسائر فادحة".
وتقول: "إن "عمر بن عبد العزيز" ليس الخليفة الذي يفترض الظلم ضد بشر، إن
الحكام المستبددين في بنى أمية لم ينتموا بهذا، فكيف ينسب إلى أعدل رجل فيهم؟
غاية ما هنالك أن النصارى أظهروا الشماتة لهؤلاء المسلمين.
وتلك مشاعر منحرفة من قوم يستسلمون للراية الإسلامية.
ومع انحرافها لم يلبقها المسلمون بالقمع العنيف.
وتكررت القصة أيضًا أيام "المهدى"، عندما انهزمت بعض قتله أمام الرومان.
يقول "ميخائيل السوري": "فارس "المهدى" محتميًا لهدم الكنيسة التي بنيت
في عهد العرب..."

ونحن نستبعد وقوع ذلك. ولعله - إذا وقع - راجع إلى زياط بعض النصارى في
معابدهم عقب انتصار الرومان.

ويقول الكاتب الصليبي في ص 111:

... ثم جاء "هارون الرشيد" ففرض على الذمين زياً خاصاً.

(1) التوبة : ٧٤
ذلك لأن سكان الحدود كانوا يتجسسون لمصلحة الإمبراطور «نسيفور» الروماني.
ويلوح أن هذا الإجراء لم ينفذ إلا في مدينة بغداد. أما أقباط مصر فلم ينلهم
منه شيء».

ومسألة إفراد التضامن لرئي ضرورات مغنية ليست حكماً دينياً، وإنما هي
تشريع سياسي أوجحت به ضرورات عسكرية.

وظهر من تصرف «هارون» أنه وضع هذا التقليد محاربة للتجسس، ثم امتد بعد
ذلك مع بقاء ضروراته، واختفى مع اختيائها.

على أن الحرب بين المسلمين والروم لم تهدا في ميدان إلا هاجت في ميدان آخر،
ولحرب وقوتها الدائم من الهم والخطر.

ولا ريب أن المسلمين كانوا يتلقون أخبارها على الحالين بوجل.

فضحاها منهم إن انتصروا، وعقبًا عليها إن انكسروا.

فإذا تلفتوا حولهم فوجدوا جيرانهم من النصارى يرضون بما يصيب المسلمين من
هزائم، ويتضامكون لما يلحق بهم من خسائر، فإن ذلك لا ريب يحطم صلات المودة
المرجوة بين الفريقين.

وليت النصارى كتبوا عواطفهم تلك في أنفسهم، وتظاهروا بالخياب التام في هذه
المعارك الحساسة.

إن المسؤولين من رجالهم الكبار فعلوا ذلك طبعًا.

وقد قال الوالي المسلمون هذه الجملات الظاهرة، وأطعوها حقها من الاعتبار.

وكانت الأعياد والمواسم العامة تميز فيتبادلة الفريقان فيها الجهانى المعتادة، وبحولان
نسبة ما كان.

فإذا حدثت حرب أخرى بين المسلمين والروم تكررت الأمساء من جديد، وعاجلها
المؤلذين من جديد.

في عهد «كافور الإخشيدى» أحرز الإمبراطور الروماني نصرًا كبيرًا على حدود
الشام، واغتاظ المسلمون المصريون لما وقع بهم، على حين لزم النصارى خلعهم، فحاولوا الدهماء مهاجمة كنائسهم وألفوا مظاهرات كبيرة لذلك. بيد أن الحكومة فرقتها بالقوة.

ويقول في ذلك المستشرق ٍّ تاونس فيبت: ٌّ إن الحكومة لم يكن لها يد في تلك الاضطرابات الشعبية.

وفيما طمأنة النصارى أصدر الخليفة مرسومًا سنة ٣١٣ هـ أسقط فيه الجزية عن الأساقفة والرهبان والمعزونين.

* * *

وقد انتقل العطف على الروم من مشايعة بالقلب، وتأييد عن بعد، إلى معاونة فعالة ضد المسلمين وقواتهم المعدة للقتال.

روى ٍّ سعيد بن يحيى الأنتلالي، قال: ٌّ كان ٍّ العزيز قد اعترف أن يغزو بلاد الروم، وأمر ٍّ عيسى بن نسطور ٍّ بإعداد الأسطول، وعزم على تسيره بعد صلاة الظهر من نهار الجمعة وقعت فيه نار أحرقت منه سنة عشر مركبًا.

واتهم الجمهور بحريعة تجار الروم الولددين بالبضائع إلى مصر.

فثارت عليهم الرعية والمرغبة، وفتحوا منهم مائة وستين رجلاً، ونهبت كنيسة ميغانيصل ٍّ التي للملكين بقصر الشمع، ونهبت كنيسة النسطورية وركب ٍّ ابن نسطور ٍّ وقت النهب، ونزل إلى مصر، وتقدم بكف الأذى عن الروم، والنع من معارضتهم، وتودى في البلد أن يرد كل واحد من النصارى جمع ما أخذه، فرد البعض من ذلك وأحظر من سلم من التجار الروم، ودفع لكل واحد منهم ما تعرف عليه، وقبض من النصارى على ثلاثة وستين رجلاً، وأمر ٍّ العزيز بالله إنهطلاق ثلاثتهم، وضرب ثلاثهم، وقتل ثلاثهم ٍّ. هـ.

قال الباحث القصيمي: ٍّ بعد أن قضى هذه الرواية ٍّ: ٌّ كان من شأن هذا الإجراء زيادة غضب المسلمين، وإذا كان ٍّ الحاكم بأمر الله قد اضطهد النصارى يومًا، فلم يكن ذلك إلا إرضاء لروح الانتقام التي استفزت قلوب الناس.

والحق أن الحاكم كان أحكم، وقد عم ظلمه المسلمين والنصارى.
ونحن لا نعرف في تاريخنا - على طوله - حاكماً رسم سياسة اضطهاد للنصارى.
وقد كانت للنصارى أخطاء جمة.
ولكن حكاماً في معاملتهم - كانوا يسيرون على قاعدة «الآن تخطئ في العفو خير من أن تخطئ في العقوبة».
وجريمة حرق الأسطول ليست حادثة تافهة.
والقول بأن الروم الوفادين بتجارتهم إلى مصر هم مرتكبوها، قولًا لا يقنع الباحث.
فإن مثل هذا العمل الخطير لا يتم إلا بعد مؤامرة محكمة من قوم مقيمين.
ومن حق الشعب أن يهتدا بما وقع وإن كنا لا نبرر أعمال القتل والنهب.
وقد تعقبتها السلطة القائمة بأشد النكال.
وقرر أن تلك الأحداث - على دلالتها السيئة - لم تخرج مركز الأقباط في مصر قط.
ولا مركز النصارى في سائر بلاد الإسلام.
ولا محل للمقارنة بين اليهود أقلية في العالم المسيحي، وبين المسيحيين أقلية في العالم الإسلامي.
أجل، لا محل لهذه المقارنة، فإن النصارى عندنا كانوا يتوّلون في الدولة وظائف
جليلة يأمرون فيها وينهون.
على حين كان منتهى ما يصير إليه اليهود بين النصارى أن يظفروا بحق الحياة.
ولل أن جزءًا من مائة من التهم التي وجهت للنصارى عندنا وجهت لليهود في
ملكة الرومان لاستأصلتهم استئصالًا.
وإنهنا ننحى مرازة في حلولنا من كفر النصارى بهذا الفضل.
ونرق موقفهم من الغزاة في الحروب الصليبية وما بعدها، فنضرب كفًا على كف!!
الصليبيون ونصارى الشرق:
ما أكثر الشخص المهاźبل في أحقاد العصابيين الكبار!!
ذهب الجيل الأول من حملة الإسلام، وأعقبتهم خلف حملهم الإسلام فناه
بهم.
ذهب الذين ذابوا في إمداد العالم بقضيّة الإسلام، كما تذوب الشمعة في إمداد ذبالتها باللهب ووجاء من بعدهم حكام ما آكلون بالإسلام وتمطون تحت ظلاله الوارفة، ولا يحملون له عبئًا، ولا يحسون له بلاغًا ولا يطبقون جهادًا. تعاركوا على الحكم لأنه متعة ووجاه، فتشبع أهواهم عليه.

وتفرقوا شيعًا فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبئ!!

أفكان هذا النزاع الأثم على الإمامة والمنابر ينشأ لأن الإمارة محدة يتلألئ بها أو لو أن المناور مصادر توجيه ومتابع تربية؟

فلما هات الخلافة فاصحبت منتجع الأدعياء ومرتزق الطامعين، وأصبح الدين لغوًا على الألسنة وكثر الرواد وفشت الأحزاب وضاع أمر العامة، استفتح المسلمون القرن السادس من تاريخهم وقبضات الصليبيين تقرع أبوابهم وحفرها، وطرقاها دوي يسمعه الشرقان.

كان الأجداد الجدد قد ولوا، وبنى الأحفاد اللاهوون.

فلما انتسبت جحايل النصارى، اندفعت في سهل لين كالفيضان الزاخر لا يوقفه شيء.

وحائق بورته المجد الغارب جزاء ما فرطوا، فكانت المذاهب الشناع خنات اللهو واللعب.

ذرههم يأكلون ويتّمتعون ويلهم الأمَّ السُّفِيف يعلمون وما أهلكه من قَرْبة إلا ولوها.

كتاب معلوم ما تسبي من أمة أجملها وما يستأثرون (1).

* * *

خرجت "أوروبا" عن بكرة أبيها، في تعبئة لم تشهد القرون الأولى كنائتها.

وكل الصليبيون الراحفون وجههم نحو الشرق الأوسط.

بحدهم الحكَّود الدفين وتسيطر عليهم فكرة واحدة، هي أن يستأسوا الإسلام استصلاهم. ويحوا نفوذهم محوًا تمامًا.

ويست هذا مجال سرد تاريخ الحملات الصليبية ونتائجها (2).

(1) الخبر: 30.
(2) عن الحملات الصليبية وأحداثها نظر: ابن كثير - البداية والنهائية .. والدكتور معز عبد الفتاح عاشور - الحركة الصليبية - جزء - طبعة دار الأبحاث المصرية.
ولكن المؤرخ المسلم في مثل هذه الخلاصة العاجلة لا يفوته أن يقرر عدة أمور:
أولها: أن المؤرخين مجمعون على أن أمراء المسلمين لو وجدوا كلمتهم، وواجهوا هذه الفلوس المنقطعة لالتهامهم، لصرعواها في منتصف الطريق إلى أرض الإسلام، ولنحوا من فظائعها.

غير أن المسلمين كانوا في سبات عميق، وكانت أزمة أمورهم قسمة ضيزة بين أدنهاء"على"، وأدنهاء"العباس"، وأدنهاء"أمية".

إنى مسلم - أمسى عرق الحجل عن وجهي، إذ أرى قياد دين الله بين هؤلاء المقالين، من ورثة أمجاد الجاهلية القديمة.

وأشر أنه كان من المستحيل أن يتحد هؤلاء على صالح دين أو دنيا.

إذا صلاح الدين والدنيا في زوالهم من ميدان السياسة العامة.

وثانيهما: أن انسياح هؤلاء الصليبيين في الشرق الأوسط بعد ما تخلو أرضًا إسلامية يذكرونا لانسياح المسلمين فيه يوم كان أرضًا مسيحية، كما يذكر الهد بالضد والبيض بالسوار.

فالمسلمون الأولون - كما جلونا لك صور الفتح - كانوا حملة مبادئ يعرضونها ويجادلون عليها.

أما الصليبيون الفاقعون اليوم، فهم كأجراز الذي لا يعرف إلا الذبح، أو المخمور الذي لا يحسن إلا الهزر والفوضى، فكان الناس يفرون مذهورين من طريقهم، كما يفر طلاب الحياة من الوباء العاصف.

بل إن نصارى الشام من اليعاقبة خافوا الهلاك على أيدي هؤلاء العميان، فقرعوا من وجههم إلى مصر.

والأنار الأخير الذي نحب التنبيه إليه، أن هذا الزحف الصليبي صورة للفكر الضيق الذي لا يعرف الباباوات والأباطرة غيره.

فالأبادة هي أسلوب المعاملة الأول والآخر إذا ذكر الإسلام والمسلمون.
ونريد أن نسأل كل عاقل: ماذا نصنع بإذاعة من لا ينظر إليها إلا من خلال هذه الزاوية القانية؟
إننا نسأل العقلاء، ولا نسأل الأهاقين الذين يبررون الجرائمة التي يرتكبونها بجرائم
يختلفونها ثم ينسبونها إلى الأبرياء الأطباء كما يفعل الكاتب الكاثوليكي المضلل،
حين يذكر مذبحة "بيت المقدس" التي أبدى فيها المسلمون فيقول:
على أثر قيام المذابح العظيمة التي كانت سببًا في إخلاء مدينة "القدس" من
سكانها المسلمين الذين سبق لهم إبادة العناصر النصرانية، قرر "بودوان" تعميرها
بالنصارى الشرقيين" ص 162.
أقرّت هذه الجملة الرقطاء السمنومة التي يقترح كل حرف منها إفكًا وكفرًا؟
إنه يريد تخلص الصليبيين من سبة إبادة مسلمي القدس، فيختزع أسطورة من
لدنها، يوهب بها أن المسلمين سبق أن أبادوا العناصر النصرانية.
وهي أكاذيب لم يجرؤ على تزويرها مؤرخ في القديم والحديث.
لو كنا من يلجأ إلى حرب الإبادة ما ولد في بلاد الإسلام مثلك أيها الكاتب
الكاثوليكي الحقوقد، لأن آباءك نالوا حق الحياة في العفو السمح الذي بذله عن طواعية
المسلمون المنصرون.
ولو شاءوا أن يشأروا لمذبحة بيت "المقدس" لعمروا القبور بجثث الجرمين الذين
سبقوا بالقدر وقتلوا الآمنين.

**
ويقول المؤرخ "ميشو" واصفًا قادة الحملة الصليبية وفرسانها:
"كان البارونات والقادة يجهلون لغلاظهم - الكلمات المعبرة عن حقوق المرء،
وكان أفقي علمهم مقصورًا على ميادين الحروب. وهي سياسة الأمراء والدول في
ذلك العصر".
يعني أنهم كانوا قطعانًا من البشر، لهم بغم كقوافل الذئاب المنطلقة للبحث عن
فريدة!!
أما الكاتب الصليبي فيفسر هذا الوصف فيقول: «إنهم كانوا يأنفون لزهوهم وكريبتهم من الالتجاء إلى الطرق السلمية ليصلوا إلى رغباتهم» ص ۱۵۴. إنه يريد أن يخلع عليهم من عنده شيخًا يشرفهم! ويتنفغ الغبار عن سيرتهم الحيوانية!!

ويروي «ميشو» أن الفاطميين عرضوا على الصليبيين «فتح أبواب المدينة المقدسة جميع الخناجر، على أن أتوا مجردين من الأسلحة، وألا يظلموا بها أكثر من شهر...». 

وأن الصليبيين رفضوا هذه العروض وقالوا لللمود المصري الذي جاء بها: 

.. اذهبوا وقولوا من أرسلتم أن يختار الحرب أو التسليم، قولوا له: إن المسيحين المعسكرين أمام أنطاكية لا يهابون شعوب مصر ولا الحبشة ولا يغضبون، وأنهم لا يتحالفون إلا مع الدول التي تتخترم القوانين العادلة وأعلام يسوع المسيح.

والقوانين العادلة التي طبقت تحت أعلام السيد المسيح حين رفعت على بيت المقدس هي... اللذين!!

لندع أخبار الصليبيين الزاحفين على المشرق، ولنعيد إلى أخبار الصليبيين المقيمين فيه من قديم، الصليبيين الذين كانوا - كما ذكرونا آنفًا - يتسمون أنباء الحرب الدائرة بين المسلمين والروم.

فإن وجدوا أبناء دينهم غلبوا استراحوا، وإن سمعوا بهؤالمهم عراهم وجوه.

هؤلاء النصارى الذين أكرمهن المسلمون وبلغوا في التلفظ معهم أن وصلوا في الوظائف إلى منصب الوزارة، ما إن سمعوا بهجمات الصليبيين حتى بادروا إلى انتهاز فرص الخيانة.

ويروي الكاتب نقلاً عن «ميشو» و«جروسيه» في ص ۱۶۰ «الأرم الأول من ساعد الصليبيين أثناء اجتيازهم آسيا الصغرى، وأن «بودوان».. قائد الحملة لم يكن محتاجًا إلى مرشدين - يعرفونه الطرق - في بلاد كان سكانها يعرضون عليه مساعدتهم ...

ثم يقول في الصفحة نفسها:

... وهذا اللبنانيون حذو الأرمن، فقدمو معاونتهم للفاع، وكانوا له خير معين...»
وكأن يوجد وقتئذ في بيروت عدد كبير من النصارى الملكيين واليعاقبة، لم يترددوا جميعًا في مناصرة الصليبيين، ودامت لهم بالزواج فزاد عدد الأسر الأوروبية، وكانوا يؤثرون أغلب الأطباء والصيادلة في الجيش والمعسكرات.

أضاف إلى ذلك أنهم يضطعون بأعباء الترجمة في مختلف الدواوين.

ويقول كذلك: «ارتاح الصليبيون واطمئنوا موقف هذه العناصر.

إذ إنهم وجدوا فيها حلفاء مخلصين في قلب الإمبراطورية الإسلامية. لم يكن لهم إلا العدو واحد. وهو المسلم».

أمام هذه الخيانات الواضحة لم يرّ «صلاح الدين الأيوبي» بدأًا - حين عينه الخليفة العلاضد وزيرة له - من إصدار أمر بحرم على الدمبن شغل وظائف الدولة.

إذ كيف يملؤها بالجواسيس والخونة؟

لكن الكاتب المتحالب يعقب على هذا التصرف بقوله في ص 124:

».. وكان صلاح الدين متدينًا، فلم يحاول تحرير مبادئه.

يجعل أن «صلاح الدين» خضع لتعاليم الإسلام في عدم توظيف الدمبنين.

وكان يجب عليه أن يتحرر منها ليكون رجلاً راقياً.

أما مملكة أبناء جلدته فلا غبار عليه.

إن هذا المسلم أغضب كثيرًا من المسلمين حتى فكر بعضهم في التخلص من هذه الأقلام الحقود.

ذكر ميخائيل السوري في تاريخه: أن نور الدين كتب إلى الخليفة العباسي يقول له:

«إن المسلمين حكموا خمسمائة عام لم يسيروا خلالها إلى النصارى.

أما الآن وقد انصرمت هذه الأعوام، فيجب ألا يبقى هؤلاء النصارى في البلاد الإسلامية (من لم يسلم منهم يقتل)».

فأجابه الخليفة العباسي:

«إنك لم تفهم أقوال النبي، إن الله لا يأمرنا أن نقتل من يرتكب السوء».
نحن نفهم غضبة «نور الدين»، ونشاركه تأذيه من جهود النعمة وكران الصبع، فالمسلمون ظلوا طوال القرون التي سبقت الهجوم الصليبي يعدون النصارى جزءًا من الرعية الإسلامية في الحقوق والواجبات.
بل إن حظهم كان أفضل من المسلمين أحيانًا، فلم هذا التذكر؟ إن الإحسان الضائع سدي يحرج الصدر.
وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ:
«ثلاث من الفوارق - المصائب التي تقضي ظهور: إمام إن أسست لم يشكر وإن أسأت لم يغفر، وجار سوء إن رأى خيرًا دفنه، وإن رأى شرًا أذاعه، وامرأة إن حضرت أذكى، وإن غبت عنها خانتك».
إن هذه الفوارق تجلبت نقصانها في مسلك الخونة من أهل الدمعة.
بيد أن الخليفة العباسي التزم حكم الإسلام الدقيق في أمر الكفر والإيمان والقتل والأشياء، فلم يوافق وزيره على مقتراحه.
وملك الخللفة يستحق التنوه.
فقد ضبط أعبابه أمام سيل من الحياطات ونفض قول الله في كتابه:
«ولا يجرمنكم شئان فقوم على ألا تعذلو أعدلوا فقوم على أقرب للفئوين واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »(1).
ويصف «رينو» صلاح الدين قائلاً:
«الغريب أنه لم يكره النصارى كأفراد، بل كان يكرههم كأمة. فلما هزمهم سرعان ما تغير موقفه نحوهم.
واية ذلك: أنه لم يكتف بالتسامح مع أقباط مصر، وكان عدواهم وقتئذ كبيرًا.
بل احترم كذلك عهدهم، وجعل بعضهم في خدمته».
ووظن «رينو» يقصد أن «صلاح الدين» يكره النصارى دولة، ولا يكرههم فرادى.
وهذا تصوير صريح لمشاعر القائد المسلم.

(1) المائدة: 8
فإن الدولة في يد النصرانية سلاح قاتل للحريات والكرامات فيجب أن تجرد منه.
بل إن الأوروبيين فعلوا ذلك كما نبهنا سابقاً.
أما النصارى - أفراداً - فلا يклонون فتنة أحد عن دينه.
ومن أحسن منهم في ظل الحكم الإسلامي استحقاق الرعاية والتقدير.
لكن الكاتب المسكون يخالف «رينو» في حكمه على موقف «صلاح الدين» من النصارى، ويقول في ص 164.

... نعتقد أنه لا يميل إليهم بأي حال. رغم استخدامه لعدد من الكتب النصارى، وخصوصا أنه لم ينج أحدهم بأي امتياز خاص».
أي امتياز كان ينجهم إياه؟ أينقلهم من وظائف الكتابة إلى وظائف الوزارة؟
أم أنه اختفى وكفى يدفعه إلى تشويه التاريخ وتنقص الأبطال؟

* * *

وجاء دور الأقباط في الحرب الصليبية عندما انتقل ميدان هذه الحرب إلى مصر نفسها وقد اتجه الهجوم الصليبي إلى مدينة دمياط بقيادة «جان دي برين».
ووقعت بين الأقباط عندئذ حوادث تدل على التحدي والتواطؤ مع العدو.
ونحن نحن نذكر بسير الوقائع، ففي سيرها ما يغني عن التعليق، وسندكرها بقلم الكاتب الصليبي نفسه في ص 126 قال:

«لم نزل «جان دي برين» على ساحل دمياط واحتل المدينة، فقلقت السلطات المصرية، وأخذ أولو الأمر يتساءلون:
عما إذا كان نصارى مصر سيستقبلون الإفرج بحفاوة، كما استقبلهم نصارى الأرمن والسوريين، وتساءلوا أيضًا:
هل من الحكمة أن يحتولوا دون هذا التعاون الذي قد يؤدي إلى عواقب خطيرة بالنسبة إلى المسلمين؟».
يا عجبًا! كيف لا تحول الحكومة دون هذا التعاون الشائع؟!
أكان الكاتب ينتظر من حكومة تدافع عن البلاد أن تترك فريقًا من السكان يساعد المغزون؟

يقول: "وما زاد المشكلة تعقيدًا أن كان في "دمياط" نفسها عدد كبير من النصارى الملكيين.

وتساءل: ما الذي حدث في "دمياط" عند بدء الغزو؟

يقول الكاتب في ص 169:

"إننا نستطيع تقديم بعض التفاصيل عما حدث في التقرير الذي وضعه الكونت دي شامبانى عن هذه الحملة:

علمنا أنه بينما كان "لويس التاسع" يستعد لحصار "دمياط" قام المسلمون بقتل جميع النصارى القاطنين بالمدينة بلا شفقة ولا رحمة، وفي اليوم التالي وجد الصليبيون مدينة دماط خاوية.

أما النصارى الذين فروا من المدينة ونجوا من القتل فقد عادوا إليها وأعمالوا سيوفهم في رقاب المسلمين الذين لم يساعدهم كبر سنهم أو مرضهم على اللحاق بالجيش الإسلامي المتفهير.

فإن هؤلاء النصارى خفوا إلى استقبال الصليبيين الذين اعتبروههم إخوتهم، وأشروهم في موكب انتصارهم.

هذا هو التقرير الذي توجمه الكاتب على عهده، ومع أنه من مصدر صليبي إلا أنه بين الدلالة في موضوعه، ولا نلاحظ عليه إلا تناقضه.

فقد زعم أن المسلمين قتلوا نصارى المدينة جميعًا.

ثم إذا بإمكاني النصارى يؤمن جيشًا يعود فيقتل من بقى من المسلمين بالمدينة، وهم العجزة والمرضى!! (1)

وقد تلفت للحوادث قدس به تبرير الخيانة الفاضحة التي جعلت الأقباط ينضمنون إلى الصليبيين في حملتهم على مصر.

(1) إذ كيف يفتحون جميعًا على آخرهم ثم يهضرون وهم قتلى ويلعون جيشًا منهم لقتل المسلمين انتقامًا.

ومن هذه الحملة أنجز مذكرات جوانغان هؤلاء الرجل الملازم للملك لويس التاسع ورغم شدة تشكيه بالصليبية إلا أنه لم يذكر شيئًا من ذلك عن أحداث الحملة المت穴مة. أنظر مذكرات جوانغان - ترجمة د/ حسن حيتي.
ويظهر أن وسائل إنجاح الحملات الصليبية لم تقتصر على المعونة العسكرية فحسب، فإن نقل الأخبار النافعة لهم والتحسس لصلحتهم أيسر على من يبحث مساعدتهم، فقد نقل الكاتب عن المؤرخ "ميشو" في كتابه "وثائق عن الحرب الصليبية" أنه جاء في رسالة أحد الصليبيين ما يلي: ص 170.

«. . . لدينا بعض المؤمنين الشرقيين الذين يمكن اكتسابهم. فهم يعرفون البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وكذلك الأخطار التي قد تصادفنا فيها، وأنهم تلقوا سر العماد بتقوى حقية». 

والعبارة الأخيرة تعود أن أولئك الجواسيس نصري شرقيون. فإن الكاثوليك يعتبرون اليعاقبة وآشوبهم ملحدين، أو مسيحيين مزورين.

وقد جاء في الكاتب الذي أرسله الصليبيون إلى "أوريانوس": 

«لقد هزمنا الأتراك والوثنيين، ولكننا لا نستطيع استعمال العنف مع الملحدين من الروم والأرمن والسوريين واليعاقبة . . تعال فحفظ نفوذك الذي لا مثيل له الإخاد» ص 161.

ويديهي أن الصليبية الغربية انتفعت من هذه الطوائف كلها في أعمال التجسس، وشكو القتال، لماذا يستعملون العنف ضدهم؟ ومع ذلك فإن طبيعة النصرانية لم تول أولئك الصليبيين المتنفعين من خيانات نصاري الشرق، فهم يستخدمون البابا لحطم الإخاد كله. أي ليلجم الأقباط والسريان والأرمن . . !!!

وروى الكاتب قصة جاسوس قبطي في القاهرة، هو "أبو الفضائل بن دوخان"، وهو موظف كبير في الحكومة المصرية ذكر عنه "ابن النقاش": . . أنه كان يراسل الفرغ، وبخيرهم عما يحدث عند المسلمين والحكام والأعيان، وكان مبعوث الفرغ والنصارى يقتتحون مكتبته فيستقبلهم بحفاوة، وينجز أعمالهم قبل غيرهم.

والنص المذكور ترجمه الكاتب عن مجلة الآسيوية الفرنسية.

* * *
وانتهت الحرب الصليبية على عكس ما بدأت به.
فقد أصيب الغزاة بانكسارات ماحقة محت أثار الانتصارات الكبيرة التي أحرزوها أول أديوار القتال.
وظهر أن المسلمين - رغم تقز شملهم لفساد حكامهم - كانوا أعرق خلقًا وأعظم رقيًا، وأنبه تقاليد من دول أوروبا كثيرة.
وأنهم استفاغوا على عجل من روعة المفاجأة التي دعت بلادهم، وأحسنوا تخلصها من الأزمات التي عرتها.
فماذا كان موقفهم من خونة الأمس عندما عادت المياه إلى مجاريها؟
إذا لا نشك في أن هذه الحروب خلقت في النفس حزازات قاتمة.
ولأن الجراح التي أحدثتها في أفتياد المسلمين احتاجت في شفائها إلى أمد طويل.
على أن المسلمين لم يشعروا على النصارى في مصر والشام حملة انتقام لما فرط منهم، بل جنحوا - بعد أن نصرهم الله - إلى التفاغي عن هوات الماضي.
وما أعان على رأب الصدع أن روح التسامح في المسلمين أصيلة، فهم بطيئو الغضب سريع الرجوع.
ولأن الحكم - على اختلاف عصبياتهم - كانوا يعتبرون النصارى ويهود جزءًا من رعاياهم.
وأن رؤساء الطوائف المسيحية تجاوبوا مع الحكم المسلمين في إقرار الأمن وتلافي الفرقة.
وأن عددًا كبيرًا من النصارى المتواطنين يُغيثون إذا حمو تبعات النزاع الذي لجأ إليه الحاقدون على الإسلام والكارهون لسلامة أمنة.
أجل فمن الظلم أن تؤخذ طائفة ما بخيانية بعض بنية.
على أن الفئات التي عرفت بالتحام على الإسلام، وأنتهاز الفرص المواتية للنيل منه قد شئ تفكيرها ما أصاب الصليبية الغربية من انكسار ساحق.
فقبعت في مكانها لا تبدي حراكاً!!
ويقول الكاتب في ص 170: «من الغريب أن نرى - بعد النكبة التي حلت بجيوش
لويس» - عددًا من الصليبيين قد أركبهم الفرع وقبل أفكارهم، فأخذوا يشقون في
إيابهم.

ولما خيرونهم بين اعتناق الإسلام والموت، لم يترددوا في اعتناق الإسلام».

ونحن لا نعرف القصة التي يشير إليها الكاتب، ولا يهمنا الآن غحفتها، وإذا
نذكر أن جملة الأسباب التي سردناها، جعلت جمهور الأقباط ينجو من الاقتصاد
على حوادث الخيانة السالفة، ويعين على اعتبارها حوادث فردية متناهية.

ذلك بعد أن وضعت الحرب أوزارها.

أما في أثناء نشوب القتال، وعندما تظاهرت الفتن الداخلية والهجمات الخارجية
ضد الإسلام، فقد أفلت زمام العامة، وانطلقوا في العاصمة والإسكندرية والأقاليم
يدمرون الكنيسة والأديرة.

ولكن الحكومة ضبطت الحالة، وضربت على أيدي العابدين بالنظام العام وحسنًا
فعلت.

وقد تكون جروح العامة قد اندملا إلى داخل نظرًا لما شاب نفوذهم من عدم
الثقة!

غير أنهم ظلوا هادئين مستكتحين حتى وقعت في عهد المماليك عدة حوادث، بدأ
منها كأن النصارى يتحدون المسلمين ويتربصون بهم.

فاستطارت شرارة الفتنة، وكاد الأمر يفث من أيدي المسؤولين.

وشننرد تفاصيل هذا الشغب وبوئته بعد الحملة عن الحملة الفرنسية على مصر.

موقف الأقباط من الاحتلال الفرنسي:

لم يكن المصريون - من المسلمين وأقباط - يدركون شيئًا عن عصر النهضة في أوروبا.

كانت الثورات الخفية تُثير التقاليد والخلافات في كل ميدان.

فتطور العلم والفلسفة وتطورت الجماعات والحكومات، وانطلق العقل من إسوار
الكنيسة، وتزداد الشعب على سلطات الفرد، ووُثبت الحياة العامة تفتح آفاقًا
جديدة في كل ناحية.
أما المسلمون في ظل الحكم التركي فقد ضرب الاستبداد السياسي عليهم نطاقًا
من الظلمات الكثيفة عزلهم عن العالم، وجعل عيونهم لا ترى أبعد من حدود بلادهم
المتأخرة.
وكان أقباط مصر ومسلموها في هذا القصور سواء.
فلما هجم "نابليون" بجيشه على مصر، رجع المسلمون والأقباط إلى ذكرياتهم
الأولى.
فقسموا اقتحام الإسكندرية باقتحام الصليبيين القدماء لدمياط، واستعد الفريقان
لاستقبال الغزاة الجدد.
المسلمون يتأهبون لحرب دينية طويلة المدى.
والأقباط يستعدون لاستقبال زحف نصراني بينه وبينهم وشائع لا تنكر، غير أن
سيرة القائد الأوروبي الطامح كانت مفاجأة محرجة للفريقين معًا.
فإن "نابليون" سلك طريقًا يغبار ثعالب المغابرة مسلك القادة الأولين للحملات
الصليبية.
إن دخل مصر مدعٍ الإسلام، مئوجًا بقيمتهم، متوجهًا لأهله!!
ثم طلب من جنوده أن يعتبروا الإسلام دينًا كالأثريان واليهودية.
وهذا نوع من الاعتراف كانت أوروبا ترضع به على المسلمين،
وهي لم تعترف به في تاريخها الحديث إلا بعدما اعترفت بالبوذية والبرهمية كآديان
كبيرة لها أتباع يعدون بالملايين.
أما نابليون فقد خاطب جنوده قبل أن ينزل إلى البر قائلاً:
"إن الشعب الذي سيعيش معه يدين بالإسلام.
وأول ما يؤمن به هو أنه لا إله إلا الله محمد رسول الله.

184
 فلا تنازعوه في ذلك، بل عاملوا هؤلاء المسلمين كـ "عالمهم اليهود والإيطاليين".
واحترموا رجال الدين كما احترمهم الخاـخامات والمطارنة.
أظهروا للمواـسسات الدينية والمساجد التسامح نفسه الذي أظهروـه بإزاء الأدـرة والمعابد، وإصـابة دينهم وديانـه.
لكن، كيف ينفذ الجنود هذه الوصـية، وهم لا يعرفون عن المسلمين إلا أنهم كفار
تجب إبادتهم؟
وتلك هي التعليمات التي انحدرت إليهم عن آبائهم الصليبيين.
يقول الكاتب: "معالاً أن نصـيـع الجنون لأوامر "بونوارت" 
.. لما كانت الثورة الفرنسية قد أبعدت الفرنسيين عن الديانة المسيحية، فقد
اكتُشف "بونوارت" بوصـيقة رجاله أن يظهروا احترامهم للمسلمين! من 189.
فماذا كان يقع لو لم يحرف روح الثورة تعلق النصارى بدينهن؟
كان المسلمون بـ "أنا شـك .. سيتعرضون" لمأس دامية تشـعلها نيران التعصب الصليبي.
القديم.

** **
من حق المرء أن يتساءل: ما كان دين "نابليون"؟
إننا نقيم بأنه لم يكن نصرانياً، وإن عبيرناً مثله أوتي عقلةً كبيراً وموهبة جليلة
يستحيل أن يتسـتعـيَّن التثليث أو يقبل مبدأ القرأن.
ولو أنه بني حياته العقلية على إمكان أن يكون الثلاثة واحدًا، أو الواحد ثلاثة ما
انتصر في معركة ضد أطفال بـ "نابليون".
به معارك ضد أعنت القوى في العالم، أبدى فيها من البراعة والذكاء ما خلد
اسمه.
ذلك مع ملاحظة أن "نابليون" من رجال الثورة التي اعتبرت طبقة رجال الدين مع
طبقة الأشراف مسؤولة عما أصاب الشعب من ظلم وفقر.
فكان غضب الثوار ينصب على القصور والسويس والكنائس على أنها جميعًا شارة الرجعية البائدة والطغيان القديم.

ولو كانت نقمة الثوار على النصارائية غضبة مفاجئة، أو فورة من فورات الرعاع الذين توج بهم الطرق، لما رأينا فيها أكثر من عاطفة حمقاء، هاجت ثم خمدت، فهل الأمر كذلك؟ لا.

إن الحملة على النصارائية بدأت مع طلائع اليقظة الأوروبية، وقداها لغيف من الكتب الأحرار، واتصلت هجماتها على سلطان الكنيسة حتى استطاعت - بعد مراحل شاقة - أن تصل إلى الحكم بإبعادها عن الحياة العامة، ولم ترضع الكنيسة لهذا الحكم دون مقاومة، إنها ظلت تقاوم حتى خمدت أنفسها.

وكان «بونابرت» يفخر بأنه أحد الرجال الذين اضطحلوا بهذا العمل الكبير وهو ينوه في نداء وجهة إلى الشعب المصري.

... بأن الفرسين اقتحموا روما الكبرى، وضربوا فيها كرسي «البابا» الذي كان يحت النصارى دائمًا على محاربة الإسلام، ثم قصدوا إلى جزيرة «مالطة» وطردوا منها فرسان القديس يوحنا الذين يزعمون أن الله انتدبهم معارضة المسلمين.

والفحق أن «نابليون» تود إلى المسلمين طويلاً، وتحدث عن دينهم باحترام وإن كان المسلمون في مصر رفضوا أن يصدقوا حرفًا مما قال.

والعبارات التي جرت على لسان هذا القائد، وهو يتحدث عن الإسلام - تبعث على التأمل.

إنه عندما تقدم إلى أسوار الإسكندرية قال لمسلمي مصر:

«لست من كبار العصور الهمجية الذين يأتون إليكم محاربة إيمانكم.

إني نعترف بأن إيمانكم رفع القدر.

وسوف نعتني دينكم إذا حلت الساعة التي يصح فيها الفرسانيون الراشدون مؤمنين حقيقيين»(1).

(1) هذا النص من النصوص التي تترجمها الكاتب عن الفرسان، وقد أثبتناها كما ترجمها مع إصلاح لبعض التراكيب التي أخطأ في صياغتها.
وكتب نابليون - بعد احتلاله القاهرة - إلى الجنرال «مارمول» في 28 أغسطس

 سنة 1798 م يقول:

 قابل من طرف الشيخ «المسيري» وقل له: كيف احتفلنا بولد النبي. قل له:

 إن في القاهرة أجمع برؤساء القضاة، وكبار القوم ثلاث وأربع مرات كل عشرة أياً، وإن أكثر الناس اقتناعًا بصفة الديانة الإسلامية وقادستها»(1).

 وفي اليوم نفسه كتب إلى الشيخ «المسيري» مباشرة يقول له:

 أرجو ألا يتأخر الوقت الذي أستطيع فيه جمع العناصر الحكيمة والمثقفة في البلاد، ووضع نظام ثابت، يتركز على مبادئ القرآن الحقة الوحيدة التي تستطيع إسعاد البشر دون سواها(2).

 على أن المشايخ والأئمة لم تلن قلوبهم لهذه التصريحات، بل انتهوا أول فرصة لإعلان الثورة في الأزهر، والانطلاق في شوارع القاهرة لقتل كل فرنسي يصادفونه، فلم يَرّ «نابليون» بدأًا من أن يصب حمّم مدافعه على المدينة السائرة، وما زال بها حتى أسكنها.

 هل كان «نابليون» منافقًا حقًا في إدعائه للإسلام؟

 إن قراءات «نابليون» الكثيرة عن الشرق أثرت - لا ريب - في نزعته إلى افتتاحه، وإقامة ملك عرض فيه!

 ودراسته لأحوال الشرق جعلته يعرف إلى الإسلام، ويدرك طرقًا من حقيقته وأركانه.

 ونحن نستبعد أنه أسلم، وإنما نظن أن مثله من كبار الرجال الذين ظهروا في الغرب ميلون - بحث من فطرتهم وفكرتهم - إلى الإسلام بإله واحد يهيمن على هذا العالم، وتلك أزمة أموره.

 وهم يرفضون - بأنفه - ما في النصرانية من أقانيم وقرابين، ويرن من المهنة لعقلهم تصديقها...

(1) هذه النصوص ترجمها الكاتب عن الفرنسية، وقد أثبتناها كما ترجمها مع إصلاح لبعض التراكيب التي أخطأ في صياغتها.
هؤلاء الموحدون ليسوا نصارى، ودعوة الإسلام لم تبلغهم على وجه محتتم حتى
يؤمنوا بها كاملة.
فهم يصدقون بعقيدة التوحيد الناشئة عن تفكيرهم الخاص، وربما احترموا الرجل
الذي يدعو الناس إليها.
أما الدخول في الإسلام نفسه فلا!!
إذ كيف يدخلون في دين ليست له أمة تشرف دعايته وتحمل رسالته؟
وقد كان نابليون كان من هذا الصف.
إنه ليس مسلمًا، ولا نصرانيًا.
وبد أن يرى الإسلام أدنى إلى طبيعته العقلية من النصرانية.
فَلما قرر الاحتلال مصر لم ير حرجًا نفسيًا في اعتناقه.
وعلى أية حال فهو لم يضطهد المسلمين لديهم قدرماً اضطهدهم لمقاومتهم
سياسة الإستعمارية وأطعمة الخاصة.
أما الأقباط فقد ظروا كالمسلمين - أن نابليون يقود هجومًا صليبيًا جديدًا على مصر.
فلما هرعوا لاستقباله لم يكثرت لهم! فما حاجته إليهم وما حاجتهم إليه؟
وقد اغتاظ المسلمون من احتفاء الأقباط بالقائد الفائق، ونشبت في بعض القرى
ثورات قتل فيها نفر من الأقباط.
فوعد نابليون أن يعاقب بشدة القرى التي ارتكبت هذه الجرائم.
على أن نابليون لم ير في مسلك الكاترة المسلمة مع القلة النصرانية ما ينطوي
على كيف أو تعصب أو اضطهاد من النوع الذي عرفه في أوروبا.
بل على العكس لاحظ عند تنظيمه للإدارة والاقتصاد والميزانية أن الأقباط كانوا
يستغلون الحكم المسلمين، ويختلسون أموالًا جسيمة.
فقرر إقصائهم من وظائفهم بالتدريج على ما شرحناه قبلاً.
مع ذلك فقد ظل الأقباط متعلمين بالفرنسيين، راغبين في التعاون العسكري معهم. مع عزوف نابليون عن قبول هذا العون حتى تولى "كليبر" القيادة بعد نابليون، فأخذ للأقباط أن يؤولوا فوقهم العسكرية لتنضم إلى الجيش الفرنسي الجديد، ولنتمتع موقف مواطنينا الأقباط من الوثائق نفسها التي ذكرها الكاتب الصليبي النزيه، قال في ص 21:

"ولما وصلت العمارسة الفرنسية إلى مياه الإسكندرية ظل الفرنسيون - الأجانب - والأقباط موضع شكل السلطات وتعرضوا من جراء ذلك إلى أعمال السوء.

وهذا كذب بالنسبة للأقباط خاصة.

نعم إن "مراد بك" هم بإذاء الأقباط، متفقًا أن ينصموا إلى الجيش الغازي غير أن مشيريه رفضوا ذلك رفضًا باتًا.

وينقل "نقولا ترك" في هذا الشأن ما يلي:

"الوزير، وشيخ البلد "إبراهيم بك": غير ممكن أن نسلم في هذا العزم والرأى، لأن هؤلاء - يعني الأقباط - رعاية مولانا السلطان صاحب العز والنصر والشأن.

وكان الوزير وشيخ البلد يرسلون إليهم كل يوم "سليم أغأ" مستحفظ أعوات الانكشارية "كذا في الأصل" يطمئنهم على محلاتهم وأرواحهم وأموالهم ويطلق المناداة في البلد كله على حفظ البقاء وعدم التعرض لهم".

وقال الكاتب في ص 217:

"الملاحظ أن "بونابرت" أرسل في طلب المعلم "جرجس الجوهرى" - المباشر العام للضياء المالية - فجاء المعلم، وقدم إلى الجنرال الفرنسي أعيان الأقباط.

ومن الطبيعي أن ينتهي الأقباط هذه الفرصة ليقدموا الطاعة والخضوع للرجل الذي جلس على أنقاض المماليك "كذا" ورسخت أقدامه في أنحاء البلاد.

وكان أعضاء الوفد يرتدون الكسائي ذات الأكمام المذهبة المزدنة بالوريدات

(1) دونها الكاتب من مذكرات مطبوعات المكتبة الخاصة للملك السابق"
الذهبية، وعلى رؤوسهم العُمائم الكشمیر، وأعربوا «لبنابرت» عن خالص ولائهم. قال الكاتب في ص 218: «وقال المسلمون لعمل الأقباط، مما دعا „الجبرتي“ إلى اتهامهم صراحة بالتعاون مع الفرنسيين».

ونحن نعجب لهذا الوفد احتفال في ملابسه المزخرفة! أهتم ذاهب إلى حفل عرس، أكان مسلكون المسلمين معهم يتطلب إظهار هذا الفرح، كيف في استقبال الفاع المنتصر، وتشييع الدولة الإسلامية المدبرة؟ أيما ما كان الأمر، فإن عناصر المقاومة بين المسلمين ظلت تواصل جهادا المقدس لازراه المحتل وتعكير صفوفه.

وبرغم الخسائر المتلاحقة التي أرسلها الفرنسيون بالجيوش المنظمة ثم بجموع التوار، لمكافحة، فإن المسلمين قروا ألا يستسلموا. لقد ثاروا على «نابليون» فقمع ثورتهم.

وها هو ذا «نابليون» تضطر احوال فرنسا أن يغادر مصر مستخلصًا «كلبير».

وظن المكافحون أنهم يستطيعون مقاتلة القائد الجديد فأعلنوا عليه الثورة، إلا أنه لم يفي بثأرهم، فاضطرروا إلى طلب الأمان.

ويقول الكاتب (1) في ص 218:

»لم طلب ثوار القاهرة الأمان لم ير «كلبير» من منههم إياه، ولكنه أقفل كاهل البلاد بالضربات بعد ذلك. ثم أرسل في طلب العلماء والأعيان وألقى فيهم خطبة ملأها بالتهديد والوعيد، ووصفهم بالرجال الأشر الجاهدين، وأخبرهم بفرض ضربة استثنائية على جميع السكان، ما عدا النصارى الذئبين.«

وذلك بداعه، لأن النصارى الذئبين حلفاء الاحتلال الفرنسي.

فَلَمَّاذا تفرض عليهم ضريبة؟

(1) نفلاً عن مذكرات نكولا تركر.
في هذه الظروف ألف الأقباط فوقهم عسكرية لمعاناة الفرنسيين.

وقد اهتاج المسلمون لهذه الخيانة السافرة.

ويدل وصف "الجرتلي" لأفرادها على غيظ دفين وغل مكين قال:

"إن "يعقوب القبطي" لما تظهر مع الفرنسا، وجعلوه ساري عسكر القبط،
جميع شباب القبط وحلق قاهم وزواعهم بزي مشابه لعسكر الفرنسا، معين
عنهم بقع يلبسونه على رؤوسهم مشابه لشكل البرنيطية، وعليها قطعة فرو سوداء
من جلد الغنم في غاية البشاعة! مع ما يضاف إليها من قيح صورهم، وسوداء
أجسامهم وزنارة أبدانهم" وبلغ أفراد الفرقة ثلاثمائة.

وقد أمعن الفرنسيون على قاتلهم المدعو "يعقوب" بلقب "جرتالي"!!

و "يعقوب" هذا كان يستغل مع المماليك، ونال من نعمائهم ما جعله صاحب ثروة
ضحمة، أكسبه بين المصريين منزلة حسنة.

فلما دخل الفرنسيون مصر، ومالأهم قومه أشتغل هو الآخر خسابهم.

يقول الكاتب في صفحة 227:

"ولما قدمه "جرجس الجوهرى" إلى الجنرال "بوسيلنج" كتب الجنرال إلى
"بونابرت" يقول له:

"قال لى "الجوهرى"، إنك لن تجد إنسانا أكثر غيرة منه على مصالحنا، وإنه
يضع رأسه بين يديك راجيًا أن تأمر بقطعه، إن بدأ من المعلم "يعقوب" أدنى
خيانة...!!"

أرأيت هذا التفاني المطلق في خدمة الخلل؟

ويستطرد الكاتب في الكلام عن المعلم "يعقوب":

"... ألقى دوائه المعلقة بزناره واستل سيفه من غمده وخاض غمار المعارك
طاحنة وعرض نفسه للهلاك أكثر من مائة مرة! هذا لأنه يعتبر نفسه جنديًا من
جنود بونابرت" ص 227.
ضد من خاص هذه المعارك؟ ضد المسلمين الثانين على الاحتلال الفرنسي.

وفي الصفحة نفسها يقول الكاتب: «... وما سافر `ديزيه" إلى فرنسا مع `بونابرت" استقر `يعقوب" بالقاهرة حيث كان يحيط الفرنسيين بعلومات مفيدة.

فلما حوصر في ثورة القاهرة الثانية برهن على مهارته في الفنون الحربية.

الشيء الذي جعله يطلب إلى `كليبر" السماح له بتجنيد فرقة من الأقباط

يتولى قيادتها \(\ldots\).»

وقد رحل هذا `يعقوب" الخائن في أعقاب الحملة الفاشلة إلى فرنسا.

حيث لقى حتفه في عرض البحر ذاهبًا إلى الجحيمل.

وقيل: إنه صرح قبل وفاته لربان السفينة التي فر عليها بأنه كان يرغب بسيرةه السالفة تحقق استقلال مصر (إب) ـ.

وقد روج الكاتب الصليبيي لهذا الهدى، يحسب أنه يرفع به خسية خائن قد فذر إنهـ

فعلًا ـ كان يريد قطع صلة مصر بتركيا ليلحقها بفرنسا !!

وهو ومن شايوعه فإنما تجمسوا لهذه النذالة من غلابي أحقادهم على الإسلام ومقتهم

العنيف لأمته ودولته، مهما أحسى إليهم من أياد وأغدق عليهم من نعم

إنها النزعة الصليبية الحبيبة هي التي جعلت هذا الخلق يجد مواساة المسلمين له

وبرهم به. 

وهي التي جعلت `سلامة موسى" يكتب عدة مقالات في جريدة مصر القبطية

يجده فيها أعمال الجنرال `يعقوب"(1).

أجل، يجد هذه الأعمال، التي سردناها لك من فم كاثوليكي متعصب شديد

البغضاء للإسلام.

فإذا هي جملة سؤالات تنطق بأن فاعلها مات في دمه نوازع الشرف كلهها.

(1) وقد مهد له الراهب لويس عوض، ورد عليه الشيخ الغزالي بما هو أله. ومهما طال الزمن لا يمكن اعتبار الخيانة

معيًا لاستقلال مصر.
إن الكاتب الصليبي يستشعر الهجوم من هذه التصرفات التي ارتكبها الأقباط على عهد الاحتلال الفرنسي.
وهو - لكي يبرره - يريد إيهامنا بأن الأقباط وقع عليهم اضطهاد سابق فلا يستغرب منهم أن يتأوروا لأنفسهم.
وقد أخفق في ذكر حادثة واحدة تشهد بأن المسلمين آدوا الأقباط إيانًا واحتسابًا كما فعل النصارى بعضهم مع البعض الآخر في أوروبا نفسها.
ولا أدل على ذلك من أن الفرنسيين دخلوا مصر، ودخلوا أسبانيا في أيام متقاربة.
فماذا وجدوا في مصر الإسلامية؟ وماذا وجدوا في أسبانيا الكاثوليكية؟
إذن إذا نحنك الكاثوليكي بهذا التقرير (1) ليери أنه في الوقت الذي كان المسلمون يستدون الوظائف العالية خلافهم في الدين، كان قومه يحترعون المهن والخلفان في الدين.
وفي الوقت الذي داس الفرنسيون فيه الجامع الأزهر وقام علماء يصفون الأقباط بأنهم أهل دم، «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» كان الفرنسيون يدخلون كنائس أسبانيا باحتشان عن وسائل التعذيب التي أعدها القساوسة الرحماء للتنكيل بالعزل المستضعفين من اتهموا بعذاء المسيح.
وإليك ما كتبه الكولونيل ليمونسكي أحد ضباط الحملة الفرنسية في أسبانيا:
قال:
«كنت سنة 1809 ملحقًا بالجيش الفرنسي الذي يقاتل في أسبانيا، وكانت فرقتى بين فرق الجيش الذي احتل «مدريد» - العاصمة -.
وكان الإمبراطور نابليون أصدر مرسومًا سنة 1808 بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الأسبانية.
غير أن هذا الأمر أهمل العمل به للحالة الحربية، والاضطرابات السياسية التي سادت وقتئذ.»
(1) ترجمة الدكتور علي مظهر في كتابه "محاكم التفتيش".
وصمم رهبان «الجرويت» - أصحاب الديوان الملغي - على قتل وتعذيب كل فرنسي يقع في أيديهم، انتقامًا من القرار الصادر، وإلقاء للرع في قلوب الفرنسيين حتى يضطروا إلى إخلاء البلاد فيلو لهم الجو.

وبينما أسير في إحدى الليالي، أجتاز شارعًا يقل الموال فين من شوارع مدريد. إذ باثين مسلحين قد هجموا على بيبيان قتلوا، فدافعت عن حياتي دفاعًا شديداً، ولم ينجني من فتكهما إلا قذوم سرية من جيشنا مكلفة بالتوقف في المدينة.

وهي كوكبة من الفرنسيون تحمل المصابيح وتبيت الليل ساهرة على حفظ النظام. فما إن شاهدها القاتلان حتى لاذا بالهر، وتبين لنا من ملابسهما أنهما من جنود ديوان التفتيش.

فأسرعت إلى «المريشال سولت» الحاكم العسكري لمدريد، وقصصته عليه النبأ فثار غضبه، وقال:

لا شك بأن من يقتل من جنودنا كل ليلة إذا هو من صنع أولئك الأشرار، ولا بد من معاقبتهم وتنفيذ حكم الإمبراطور بحل ديوانهم.

والآن خذ مكع آلاف جندي وأربعة مدافع، وهجوم دير الديوان، وأقبض على هؤلاء الرهبان الأرملة، ولتفصص منهم بمحاكمتهم أمام مجلس عسكري.

وفي الرابعة صباحًا ركبت على رأس تلك الحملة، ثم قصدنا إلى دير الديوان، وهو على مسافة خمسة أميال من «مدريد».

فلم يشعر الرهبان إلا والجنود يحيطون بديريهم، والدفاع تفوه إلى فوهاتها.

وكان هذا الدير عبارة عن بناء ضخم أشبه بقلعة حصينة، وأسوارها العالية تحرسها فرقة من الجنود الجنسيين.

فتقدمت إلى باب الدير وخاطبت الحاكم الواقف على السور وأمرته - باسم الإمبراطور - أن يفتح الباب.

وظهر لي أن الحاكم الواقف نحو الداخل وكلم أشخاصًا لا نراه.
ولما انتهى من حديثه عاد وأخذ بندقيته وأطلق علينا الرصاص ثم انتهال علينا الرصاص من كل جهة، فقتل بعض رجال وجرح آخرون.

ولكن أمرت جنودي أن يقتتحموا الدير عنوا، واعتنى بإطلاق الرصاص من الجزيئ علامة رفض، وأنهم لا يفتحون الباب إلا بالقوة.

واقبنا نطلق الدافع على أسوار الدير، وعلى الباب الموصد.

وأستخدم جنودنا ألواح الخشب السميكة تقيهم رصاص الخرس الذي كان ينهرانا كالمطر الغزير.

وبعد نصف ساعة استطعنا فتح ثغرة واسعة في الحائط، نفذ الجيش منها إلى داخل الدير، وكنت مع بعض زملائي طليعة الداخليين.

واسرع الرهبان اليسوعيون إلى لقائنا مرحبين بنا! ووجههم باشة!

وهم يستفهمون عن سبب قدمنا على هذا النحو، وكأن لم يدر بيننا قتال ولم تنشب معركة.

ثم استدنا إلى جنودهم وانهالوا علينا تعنيفة وتأنيبًا وقالوا:

إن الفرنسيين أصدقاونا فمهبًا بهم.

علي أن هذا النفاق الحبيث لم ينل عليًا، فأصدرت الأمر جنودي بالقبض على أولئك القساوسة جميعًا وعلى جنودهم الخرس، توطئة للتقديمهم إلى مجلس عسكري.

ثم أخذنا يبحث عن قاعات العذاب المشهورة، وطنا بغرف الدير، فراغنا ما بها من أثاث فاخر، ورياش وكراسي هزازة! وسجاجيد فارسية ثمينة، وصور نادرة، ومكاتب كبيرة.

وقد صنعت أرض هذه الغرفة من خشب المغنى المصلول المدهون بالشمع.

وكان شديد العطور يعقم في أرجاء الغرف فتبدو الساحة كلها أشبه بأبهاء القصور الفاخرة التي لا يسكنها إلا ملوك قصروا حياتهم على الشرف واللهو.
وعلمنا بعد أن تلك الروائح المعطرة تبعث من شمع يوقد دائمًا أمام صور الرهبان، ويظهر أن هذا الشمع قد خلط به ماء الورد.

وكادت جهودنا تذهب سدى، ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب.

إذا فحصنا غرف الدير ومراتها وأقيمتها كلها ولم نجد شيئًا يدل عليها.

فعزمنا على الخروج يائسين من اكتشاف بغيتنا مقتنعين بتقدم أولئك الرهبان إلى المجلس العسكري.

وكانوا في أثناء رحيلنا يقسمون ويؤكدون أن ما شاع عنهم وعن ديرهم ليس إلا تهمة باطلة، وأنهم يحتفظون هذه الأكاذيب في سبيل الله.

وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراءة أتباعه بصورة خافتة وهو خاشع الرأس توشك عيناه أن تطفو بالدموع، فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير.

لكن، «اللفتنان دى ليل» استلمه قائلًا: «أيضحك لي الكولونيل أن أخبره بأن مهمتنا لم تنته حتى الآن؟».

قلت له: قد فشلنا الدير كله ولم نكتشف شيئًا مفيدًا به ففليم ترغب؟

قال: إن أرغب في فحص أرضية هذه الغرف، وأدقق في امتحانها، فإن قلبي يحدثني بأن السامعينها.

ووعند ذلك نظر الرهبان بعضهم إلى بعض نظرة قلقة، وأخذت للضابط بالبحث.

فأمر الجنود برفع الأسبلة، فرفعت، ثم أمر بأن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة ففعلوها.

وكنا نرقب الماء، فإذا بالأرض تبتعله في إحدى الغرف، ويتسرب إلى أسفل.

فصفق الضابط «دى ليل» من شدة فرحه وقال: هو هذا الباب! انظروا، فنظرنا، فإذا بالباب قد انكشف، وهو قطعة من أرض الغرفة، يفتح بطريقة مبكرة بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جوارها رجل مكتب الرئيس.

واخذ الجنود يكسرون الباب المسحور بقحوف البنادق.
والتفت فرقة من الجنود حول عصابات الرهبان الذين اصغرت وجههم وكستها غمرة.

وفتح الباب وظهر لنا سلم يؤدي إلى باطن الأرض.

فأشارت إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر كانت تضيء أمام صورة أحد رؤساء محامى التفتيش السابقين.

ولما هممت بالنزول وضع راهب يسوع يده على كتفي ملتفًا وقال لي:

يا باني، لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملتوة بد المقتل لأنها شمعة مقدسة.

فقلت له: يا هذا إنه لا يلبق بيد أن تنجز بلسم شمعتكم الملطخة بدم الأبرياء، وسنرى من النجس فينا؟ ومن القاتل السفاك؟ وهبطت على درج السلم يتبناى سائر الضباط الجنود شاهرين سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدراج.

فإذا بنا في غرفة كبيرة مربعة، هي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، ربطت بها سلاسل، كانت الفرائس تقيد بها رهن المحاكمة.

وأمام ذلك العمود عرش «الديونة»، كما يسمونه إلى جانبيه مقاعد أخرى أقل ارتفاعًا معدة جلس جماعة القضية.

ثم توجهنا إلى غرف آلات التعذيب، وتزيق الأجسام البشرية.

وقد أمتدت تلك الغرف مسافات كبيرة تحت الأرض.

وقد رأيت بها ما يستفز نفسه، ويدعونى إلى التفرز ما حيبت. رأينى غرفا صغيرة ففي حجم جسم الإنسان بعضها عمودي وبعضها أفقي. فيبقى سجين العمودية واقفًا به على رجليه مدة سجنه حتى يقضي عليه. ويبقى سجين الأفقية ممددا به حتى يموت.

وبقي الجثة في السجن الضيق حتى تلبى، ويساقط اللحم عن العظم.
ولتصريف الروائع الكربيهة المنبعثة من الأجداث البالية تفتح كوة صغيرة إلى الخارج.

وقد عثرنا على عدة هياكل بشرية ما زالت في أغلالها سجينة.

والأجساد كانا رجاءً ونساء تختلف أعمارهم بين الرابعة عشرة والسبعين.

واستطعنا فكناك بعض السجناء الأحياء، وتغطين أغلالهم، وهم على آخر رمق من الحياة.

وكان فيهم من جُنٍّ كثرة ما لا يرى من عذاب، وكان السجناء عرفا زياً في النكماة بهم، حتى اضطر جنودنا أن نخلعوا أرديتهم، ونستروا بها ليفنفوا من النساء السجنات.

وقمنا السجناء إلى النور تدريجيًاً لئلا يؤثر النور المفاجئ على أبصارهم.

وكانوا يكونن فرحًا وهم يقبلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقذوه من العذاب، وأعادوه إلى الحياة.

وانطلقنا إلى غرف أخرى، فرأينا هناك ما تقهقر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم.

وكاننا بيداً بيداً بسحاق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين، وذلك كله على سبيل التدريج حتى تأتي الآلة على البدن المشبع، فيخرج من الجانب الآخر كتلة واحدة.

وعثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تمامًا، يوضع فيه الرأس المعذب، بعد أن يربط صاحبه بالسلاسل في يديه ورجله فلا يقوى على حركة.

وتقلع على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط ماء بارد، فتنقع على رأسه بانتظام في كل دقيقة نقطة.

وقد جن الكثيرون من ذلك اللون من العذاب، قبل أن يحملوا به على الاعتراف.

وبقى المعذب على حاله تلك حتى يموت.
وعبرنا على آلة ثانية للتعذيب تسمى بالسيدة الجميلة، وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة جميلة مصنوعة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة.

وكانوا يطرحون الشاب المعذب فوق هذه الصورة، ثم يطبقون عليهما باب التابوت بسكاكينه وحماده، فإذا أعقب مزق جسم الشاب وقطع إربى إربى.

كما عثرنا على جملة آلات لسل اللسان، ولتمريض أثناء النسا وسبحها من الصدور بواسطة كاللريب فظيعة، ومجالد من الحديد الشائك لضرب المعذبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم عن العظام.

وصل خبر الهجوم على دير "ديوان التفتيش" إلى مدريد، فهب الألاف ليروا ماحدث.

وخيل - إلينا من شدة الزحام - أتنا ففي يوم القيامة.

ولما شاهد الناس بأعينهم وسائل التعذيب وآلاتها الجهنمية جن جنونهم، وانطلقوا - كمن به مس - فأمسوا برئيس اليسوعيين، ووضعوه في آلة تكسير العظام، فدقت عظامه دقة وسحقتها سحقًا.

وأمسوا كامت سرح ورفوه إلى السيدة الجميلة وأطبقوا عليها الأبواب، فمزقتهم السكاكين شر مزق.

ثم أخرزوا الجثتين، وفعلوا بسائر العصابات وبقية الرهبان كذلك.

ولم يقض نصف ساعة حتى قضى الشعب على حياة ثلاثة عشر راهبًا، ثم أخذ ينهب ما بالدير.

وقد عثرنا على أسماء آلاف الأغنياء في سجلات الديوان السرية، وهم الذين قضى الرهبان بقتلهم كي يبتزوا أموالهم، أو يضطروهم إلى كتابة إقرارات تخول ثرواتهم إلى اليسوعيين.

ويمكن أن أقول: بأن ذلك اليوم هو أعظم يوم شهدته بعد هدم "الباستيل". ا. ه.
في جامعة القاهرة، د. محمد شلتوت، جمعة:AVG.1

هذه حلقة اكتشفت من سلسلة متنازلة مع الماضي السحيق، تشهد بأساسية التاريخ الكنسي من أهوال وانكال.

وبهذه الوسائل أصبحت "الكاثوليكية" هي الدين الوحيد في أسبانيا.

وإذا في مصر حيث يعيش الأقباط في أكثراً كثرة تحوّل عليهم، وترى المحافظة على دمائهم وأموالهم وأعراضهم ذمة تُسأل أمام الله عن الوفاء بها.

أما في مصر حيث لا جديد على يهود أو نصارى أن يعتقد ربه على طريقته، ويتبرد ما شاء على كنيسته، فما معنى الانضمام إلى الجيوش الغزية وتكوين الفرق لمعاونتها؟

إن الكاتب الكاثوليكي لا يستحلى - وهو يعرف تاريخ كنيسته - من أن يزعج أن "نابليون" لما جاء مصر من الأقباط حريرهم الدينية "كذا".

إلى وربي كذلك يزعم الأفان!! فماذا صنع للأقباط "نابليون"؟

وجدهم في وظائف الدولة الإسلامية يغتالون مالها فأمر بفصلهم.

وكان المسلمون لفرط ثقتهم لا يشعرون بذلك.

وجد الكنيسة فوق الحاجة فما شاد كنيسة جديدة.

فبأحس بأنهم يتضامنون إليه بطرير، و鬰ميرًا ما يتهمون فيه من مسلم بالنصرانية قبض يده عليهم، حتى إذا تحرجت حالته وأحوال خلفائه قبل منهم العون.

وما كان الفرنسيون - وهم الغرباء الخصرون - ينهبون في خيانة الحانين. ذلك.. وقد استرط الفرنسيون عند رحيلهم من مصر ألا يؤذي من ساعدهم مدة احتلالهم لها.

ولكن الشعب - كما يقول الكاتب في ص 275 - "أربع النفس في أثناء انسحابهم! ثم وجه غضبه إلى النصارى!"
وهكذا لم تفلح الإجراءات التي اتخذها رجال الشرطة ولا تصريحات الوالي في التخفيف من نار الانتقام المتأججة في قلوب الشعب إلا بعد مضى وقت طويل.

لا . إن الشعب المسلم نسي بعد وقت قصير .
لأنه - بطبيعته اللينة - يقبل الكثير ، ويعفو عن الخطر.

ونحن نؤكد أن القلعة القبطية التي فعلت ذلك مع المسلمين ، لو كانت قلعة مسلمة مع النصارى في إنجلترا أو فرنسا أو إيطاليا ، ثم ارتكبت هذه الخيانة لأُبِدِّت عن بكرة أبيها .

بل إن هذه القلعة المسلمة كانت ستتجدد ولو لم تتطور إثمًا ، وحسبها من إثم أنها مسلمة .

أليس ذلك ما كان في سالف الأزمان ؟

* * *
بين ملوك النصرانية ومالكي الإسلام
في نفس أم "أوروبا" عقد مستحكرة ضد الحكم الديني، ولهم في كراهته عذر مبين، وليس للحكم الديني في "أوروبا" رجال ينشدون عودته ويحبسون دولته.

فإن مآتم الشاعة هنالك ترد أصفح الوجه عن المطالبة به. وللكنيسة - منذ حكمت - تاريخ يجر وراء أثقالاً من الكوارث اعتبرت لازمة لسيطرتها، فلا غرو إذا استراح القوم من حكمها وقواربها.

وقد لاحظنا أن النافعين على الإسلام، الراغبين في إزالته من الوجود - دينًا ودولة - حريصون على تشبيه الإسلام بالنصرانية، مولعون بعدد مقارنات بين تاريخه وتاريخها، فإذا صدمتهم الحقائق القائمة فروا إلى الأدعاء العريض.

ولما كان أبرز ما في المسيحية الحاكمة تعصبها المراد المختلفين لها في الأصول والفروع، وجدها إلى الحديقة والنزار في حل مشاكلها النافحة، وتسيرها القسوة الهائلة في فرض معتقداتها وآرائها..

فإن المتحاللين على الإسلام أرادوا استخلاص مثل هذه المواقف الخزينة من تاريخه، فأعمهوا الخيل واستوعبوا السبل، فما يصنعون؟ لا شيء إلا الكذب والتحريف والتشمل.

ولنا باس عليهم إذا عثروا على الإساءة الصغيرة فوضعوا لها عنوان المذبحة الكبرى!! ليكون من ذلك وجه شبه بين الحكم الإسلامي العف، وبين الحكم النصراني المفع.

ومن هذا القبيل ما أفرد له الكاتب الصليبي بابًا خاصًا بعنوان:

"كارثة النصرانية في عهد المماليك".

ونحن نرحب بهذه المهمة؛ لأنها ستجعلنا نقد الضلالات، ونقصد المقارنات، نخرج بالنكات التي تبقي لها وجه وتسود وجه.

وقبل أن نسرد الوقائع - وهي قريبة من متناول اليد - تؤكد للقارئ أن الفرق بين تاريخ الدينتين كالفرق بين حقائقهما.

فالتوحيد شيء آخر غير التثليث، والسماح شيء آخر غير الاضطهاد.
ومدائم الكاتب قد يتكلم عن كارثة للنصرانية في عهد الإسلام - أي عن كارثة للأقليات في عهد حكمته - فلنتكلم نحن عن كوارث الأقليات المسيحية في عهد المسيحين أنفسهم، ولنقارن بين أرض وسماء، بين حكم المماليك في النصارى - وهو المحدود أسوأ عهد في تاريخنا - وبين حكم الملوك الأحرار والباباوات الكبار من رجال النصرانية.

ذلك، ولن تعتبر هذه الكوارث، التي اقترفها رجال النصرانية، من وحي أنفسهم، بل من وحي كتبهم التي بين أيديهم.

يقول الدكتور " توفيق الطويل " :

... لكن الذين حملوا الأناجيل نصبيها في تبعة الاضطهاد الدينى يقولون:

إن أتباع الاضطهاد من أمثال القديس "أوغسطين" قد استنذوا إلى آيات وردت في الإنجيل. كقول المسيح لخواريه:

"اجبروهم على اعتناق دينكم" أو "لا تظنوا أنتم جنت للأقلي سلامًا على الأرض، ما جئت لأقلي سلامًا، بل سيها، فإني جئت لأفرق الإنسان من أبيه، والابن من أمها، والكنى من حماتها، وأعداء الإنسان أهل بيته".

هذا الكلام هو الذي حكمت تاريخ النصرانية، وصاغته - من بدايةه إلى نهایته - بالدم العبيط.

أما "من ضربك على خدك الأيمن فأجذر له الأيسر" فكلام لم يعرفه المسيحيون مع أنفسهم يومًا ولا مع أعدائهم ساعة.

وإليك هذه الصفحة (1) من تاريخ النصرانية السمح (1)

أراد "تشرلس" السماح سنة 1570م أن ينشر الأمن في روع البلاد، فنهادن الهوجونوث وأذعناهم من حضرتهم، وتوج هذه الحركة بالرغبة في تزويج أحدهم من زعيم لهم، فأثار هذا المسلك ثائرة الكاثوليك.

وفي ليلة الزفاف أقبل جموع "الهوجونوث" تتبنى إلى باريس، فأطلق الرصاص على زعيمتهم.

(1) عن كتاب "محاكم التفتيش".)
وعندئذ وطد عزمه على التنكيل من حأم اغتياله، وخشى (الكاثوليك) مغبة ذلك فعقدوا مبيبة على أن يجلعوا عبد القديس (بارتلوميس) في 24 أغسطس سنة 1572 م مذبحة يبديد فيها خصومهم.

وفي منتصف الليل دق ناقوس كنيسة (سان جرمان) مذيبًا ببدء المذبحة.

فإذا بأشراف الكاثوليك والحرس الملكي وجموع الجماهير تنقض على بيوت الههفونث والفنادق التي أوترهم، وتأتي على من بها ذبحًا.

فلما أصبح الصباح كانت شوارع باريس تحتوي بدماء آلاف من النفوس.

وتطايرت أنباء المذبحة المرورة إلى الأقاليم، فإنها بها تستحيل - بدورها - مجزرة تخري بدماء طائفة آلاف من هؤلاء المساكن.

بل قبل: إن هذه المذبحة قد أودت بحياة نيف وعشرين ألفًا.

وقد أثار وقوع هذه المذبحة الغبطة والرضا في أوروبا المسيحية الكاثوليكية كلهما.

فقد (فينلي día) الثاني يجني من فرط الفرح عندما بلغته أنباءها، وانهالت النهف على تشريس التاسع بغير حساب!

وكاد البابا (جريجوري) الثالث عشر يطير من السرور.

حتى إنه أمر بسك أوسمة للتخليد ذكرها تزويج على وجه الشعب وعئده.

وقد رسمت على هذه الأوسمة صورته، وإلى جانبه مكان يضرب بسيفه أعناق الملحدين.

وكتب على هذه الأوسمة (إعدام الملحدين).

وأمر البابا - إلى جانب ذلك - بإطلاق المدافع وإقامة القداس في شتى الكنائس، ودعا الفنانين إلى تصوير مناظر المذبحة على حوارئ الفاتيكان، وأرسل تهنيئته الخاصة إلى (تششرس) . (1). 1. هـ.

هذه هي أنباء مجزرة (سان بارتلومي) التي فتك فيها الكاثوليك بإخوانهم البروتستانت.

(1) ترجمة الدكتور على مظهر في كتابه (محاكم التفتيش).
والفكاريوك لم يفعلوا ذلك في ساعة طيش ينتمي المرء بعدها على خطينه!!!

بل فعلوا ذلك نزولاً على الكلمات التي دوّنها «ستي» في إنجيله ونقلناها لك آنذاً.
وتقترب من السير المتوضحة التي سجلها العهد القديم نفسه لأنبيائهم، في الحروب التي
شوهها على أعدائهم.

إن العهد القديم يوصى بحرب الإبادة، الإبادة التي لا تبقى في ديار الأعداء إنسانًا
ولا حيواناً.

والنصارى الذين حكموا نفذوا هذه الوصيّة بدقة، واستوحوا منها مسالكهم تجاه
خصومهم في العقيدة أو في الرأي.

إنهم يسفكون هذه الدماء، لا على أنها جرائم، بل على أنها قربات يطلبون بها
رضوان الله.

إنهم يعتصرون أعراب الضحايا كما يبدأون في إقامة صلاة سواء سواء.

في الإصحاح السادس من سفر «يشوع» (وكان في المرة السابعة، عندما ضربت
الكهنة بالأيْجَرْم، أن «يشوع» قال للشعب: اهتفوا لأن الرب قد أعطاكاه المدينة (1)،
فتكون المدينة وكل ما فيها مَحْرَمٌ للرب.

وكان حين سمع الشعب صوت البواب أن الشعب هتف هتافًا عظيمًا، فسقط السور
في مكانه، وصعد الشعب إلى المدينة، كل رجل مع ووجهه.

وأخذوا المدينة، وحرموا (2) كل ما في المدينة من رجل، وامرأة، من طفل وشيخ،
حتى البقر والغنم والحمير، بعد السيف، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها».
وفي الإصحاح الثامن: «فقال الرب لـ «يشوع»: مَدَّ المراك الذي بيدك نحو
عائ، لأن بيتك أدعوه!

فمد يشوع المزراق الذي يده نحو المدينة.
فقام الكمين بسرعة من مكانه وركضوا عندما يدعو، ودخلوا المدينة وأخذوها،
وأسرعوا وأحرقوا المدينة بالنار.

(1) أريحا.
(2) قتلوا.
ولا رأى "يشوع" وجميع إسرائيل أن الكمين قد أخذ المدينة، وأن دخان المدينة قد صعد، انضموا وضربوا رجال "عائ".

وهؤلاء خرجوا من المدينة للفسقتهم، فكانوا في وسط إسرائيل، هؤلاء من هناء وأولئك من هناك، وضربوه حتى لم يبق منهم شارد ولا منفشت.

وأما ملك "عائ" فأمسكوه حيًا وتقدموا به إلى "يشوع".

وكان لما انتهى إسرائيل من قتل جميع سكان "عائ" في الحقل في البرية حيث لحقوه وسقطوا جميعًا بحدود السيف حتى فنوا، أن جميع إسرائيل رجع إلى "عائ" وضربوها بحدود السيف.

فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء أثني عشر ألفًا، جميع أهل "عائ".

وفي الإصحاح العاشر "... ثم اجتز "يشوع"، وكل إسرائيل معه، من "لخيشا" إلى "عجلونا" فنزلوا عليها وحاصرواها، وأخذوها في ذلك اليوم وضربوها بحدود السيف وحرم كل نفس بها في ذلك اليوم...".

"... فضرب "يشوع" كل أرض الجبل، وجنوب والسهول، والسفوح، وكل ملوكها، لم يبق شاردًا بل حرم كل نسمة كما أمر الرب إله إسرائيل.

وفي الإصحاح الحادي عشر "... ثم رجع "يشوع" في ذلك الوقت، وأخذ حاصور وضرب تملكة بالسيف، لأن "حاصور" كانت قبلًا رأس جميع تلك الممالك وضربوا كل نفس بها بحدود السيف، حرمهم ولم تبق نسمة، وأحرق "حاصور" بالنار.

فأخذ "يشوع" كل مدن أولئك الملوك وجميع ملوكها وضربهم بحدود السيف، حرمهم كما أمر موسى عبد الرب.

لم تكن مدينة صالحة بنى إسرائيل إلا "الحوين" سكان "جبعون" بل أخذوا جميع بالحرب، لأنه كان من قبل الرب أن يصدد قلوبهم حتى يلافوا إسرائيل للحارثة، فبحروها، فلا تكون عليهم راحة بل يبادوا، كما أمر الرب موسى."

أرأيت معالم حرب الإبادة كما تصفها الكتب المقدسة لدى القوم؟
أرأيت عاطفة تنضج بالرحمة وسط هذه المجاز المتعاقبة؟
أعرفت ما هو الأصل الذي انبثقت عنه مذبحة «سان بارثليوم» التي كاد يعفر البابا
من الفرح لأنبائها؟
إن هذه التعاليم الإلهية في نظر اليهود والنصاري هي أساس الصلات بين المؤمنين
وخصومهم. هي التدمير الذي يسقط جثة الأب، إلى جوار ولده، إلى جوار امرأته...
ثم يهدم البيت فوق الجميع.
هذه هي المبادئ، والأسس التي يصدر عنها رجال لا يستحيون من اتهام الإسلام
بأنه انتشر بالسيف ولا ملامحة!
فالفحؤود الذي يتشهى سفك الدماء لا يستكرح عليه الافتناء.
إنهم إن كانوا كثرة أبادوا خصومهم وإن كانوا قلة مكروا وترصوا وجهدوا، ثم لا
يعوز أحدثهم وجه الذي يتهم به الإسلام بأنه قام على السيف!!
ولقد قرأت تاريخ الفتوح وسير النبي وخلافته .. فهل ترى مكانًا لمقارنة بين وحش
وملالك؟
لقد نعى القرآن على أهل الكتاب السابقين هذا التوحش في مسالكهم، فقال
لليهود:
ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لا
يتفجر من الأنهار وإن منا لما يشقق فيخرج من أمامه وإن منها لما يهبط من خشية الله
وما الله يغافل عنه تعملون» (1).
وقال عن النصارى:
ففسوا حظًا مما ذكرنا به فأغرى بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة» (2).
وقد هبت على حضارات العالم كلها سوموم محرقة من لفح هذه العداوات
والاتهام.

(1) البقرة : 74.
(2) المائدة : 14.
فما تحت حضارة أوروبا الأخيرة إلا عندما طاردت رجال الكنيسة وألجأتهم إلى
جحورهم لا يخرجون منها.

حتى إذا اختفت من الحياة العامة بدأت النهضة الكبرى تنتعش في كل ميدان.

* * *

ولنعد إلى مناقشة الكاتب فيما أراد أن يضم به الحكم الإسلامي تحت العنوان المثير
الذي اختاره «كارثة النصرانية في عهد السلاطين المماليك».

قال في ص 180: «كان عام 720 هـ خرابًا على الأقباط، ولم يُعرف ما حدث بالضبط، ولكن بمجرد إشارة اعتدى الشعب على الأقباط في جميع أنحاء البلاد. ثم نقل عن المقرئي إحدى عشرة صفحة كبيرة ملئت بتفاصيل الحوادث التي وقعت في هذا العام والتي انتهت بتدمير 54 كنيسة. عدا المساجد التي أحرقت - وقتل عدد كبير من الناس، مسلمين وأقباطًا.

ونحن سنتناول أطراف الموضوع كلها، ونكشف ما اكتشفت هذه الفئة الأولى، وأخرى من وقائع وملابسات، لنرى أكان الذي حدث عدوانًا على النصرانية أم رد عدوان على الإسلام؟ وسنعتمد في هذا على الأحداث نفسها التي نقلها الكاتب، واعترف بصحتها، ولن نزيد عليها من مراجعنا جدًا.

نقل الكاتب قصصًا تصور حال الأقباط في عهد المماليك من رواية «المقرئي»، والقصص المذكورة تكشف عن لون المعيشة التي ينعمون بها، وأسلوب المعاملة الذي يواجهون المسلمين به فيما نقلته في ص 175:

قال: «كان قد كسر الحريق بالقاهرة ومصر في مدة سفر السلطان «ببدرس» وأشع أن ذلك من النصارى، ونزل بالناس من الحريق في كل مكان شدة عظيمة، ووجد في بعض المواضع التي احتراقت، ثقيلة وكبرى.

فأمر السلطان بجمع النصارى واليهود، وأنكر عليهم هذه الأمور التي تفسخ عهدهم، وأمر بإحرائهم.

فجمع منهم عالم عظيم في القلعة، وأحضرت الأخطاب والخلفاء، وأمر بإلقائهم في النار. فلاذوا بعفوهم، وسألوا الموت عليهم.»
وتقدم الأمير فارس الدين «أقطاي» أتابك العساكر فشفع فيهم، على أن يلتزموا بالأموال التي احترقت وأن يحملوا إلى بيت المال خمسين ألف دينار.

فأخرج عنهم السلطان، وتولى البطريرك توزيع المال، واللزموا ألا يعودوا إلى شيء من المنكرات ولا يخرجوا عما هو مرتب على أهل الدمة، وأطلقوا».

علما تدل هذه القصة؟

على أن الأقلية حاولت إحراق البلاد بمن فيها ثم عُفِي عنهم، على أن يلتزموا حدود الشرف والوفاء.

فماذا كان مسلكهم - بعد؟

كان الأقباط قد عززوا عن وظائفهم.

ويقول الكاتب في ص 176: «وتدل الدلائل كلها على أن السلطان «قلاوون» وابنه الأشرف «خليل» أعاد النصارى إلى وظائفهم».

وينقل عن «المقريزي»: «... أن هؤلاء النصارى أصبحوا يعاملون المسلمين بأنفسهم وأرادوا أن يظهروا أهميهم بارتداء الملابس الثمينة.

ويروى أن أحد النصارى واسمه «عين الغزال» صادف يومًا في طريق مصر سنة 882 هـ سمسار شونة مخادومه.

فنزل السمسار على دابته وقبل رجل الكاتب، فأخذ يشبه ويهده على مال قد تأخر عليه من ثمن غلة الأمير، وهو يترفق له ويعتذر فلا يزيده ذلك عليه إلا غلطة.

وأمر غلامة فنزل، وكتب السمسار، ومضى به، والناس تجتمع عليه حتى صار إلى صليبة جامع «أحمد بن طولون». ومعه عالم كبير.

وما منهم إلا من يسأل أن يخلو عن السمسار، وهو يمنع عليهم.

فتكاثروا عليه وألقوا عن حماره وأطلقوا السمسار ... إلخ». 
علام تدل هذه القصة؟

كاتب قبطي، يلقاه تاجر مسلم، والпасور راكب دابته، فينزل عنها احترامًا للقبطى.
ثم يقبل المسلم قدمه، ويطلب منه إظهاره في سداد دين عليه.
والمسلم يبى، ويعلمه، ويرفض إجابته، ثم يكفه، ويقتاده إلى قصر الأمير الدانين.
والجمهور من خلفه يستوسع إليه أن يطلق المدين الغارم: أي يطلق المسلم الذليل.

علم يدل هذا على كارثة النصرانية في عهد المماليك!!
وتظل هذه المساعر متصلة مدى عشرين عامًا في القاهرة عاصمة المسلمين فينقل
الكاتب في عشرين صورة أخرى مشابهة لسابقتها، يقول:

ففي شهر رجب سنة 700 ه حدثت مأساة في القاهرة غريبة في نوعها، ففي
هذا التاريخ وصل القاهرة ووزير صاحب المغرب حاجًا.
وينبئ هو ذات يوم بسوق الخيل تحت القلعة إذا هو برجل راكب على فرس
وعليه عباءة بيضاء، وزوجية مصغرة، وجماعة من ركابه، وهم يسألونه
ويتضرعون إليه، ويقولون رجليه وهو معرض عليهم وينبرهم ويصبح بظلمانه أن
يطردوهم عنه.

فقال له بعضهم: "يا مولاي الشيخ، حياة ولدك النشر - ننظر في حالنا!!
فلم يزده ذلك إلا عتوًا وتحاقة.
فرق المغربي لهم، وهم يخاطبه في أمرهم، فقيل له: "أي أولئك نصارى!
فغضب لذلك، وكاد أن يظلي به، ثم كف عنه، وطبع إلى القلعة . . .".
ويستدبر المؤرخون قائلين: "إن الوزير المغربي اجتمع بالملي رجل
محمد ابن قلدون، ونائب يومنين "سولار".
فتحدث الوزير المغربي معهم في أمر اليهود والنصارى، وأنهم عندهم في غاية
القلة والهوى، وأنه لا يمكن أحدًا منهم من ركوب الخيل ولا الاستخدام في
الجهات الدبلوماسية.

وأنكر حال نصارى الديار المصرية ويهودها بسبب ليسهم أنخر الملابس وركوبهم
الخيم والبغال، واستخدامهم في أجل المناصب وتحكمهم في رقيب المسلمين.
وذكر أن عهد ذمته انقضى من سنة ۶۰۰ للهجرة.

«تأثر كلامه عند رجال الدولة، ولا سيما الأمير بيبيرس» الجاشنكير...».

ووافق أن الوزير المغربي ذكر من المنظر الذليل الذي شاهده، وهاله أن يرى جماعة من المسلمين يتدافعون ضارعين إلى مثاب حسن معهود، ويقولون قدميه رجاء أن يرق حالهم، وهو يا أجمل عبده بطاردتهما، ويحيث فرسه للابتعاد عنهم.

وأخطى أن الأقباط في عهد المماليك، وفي العهد الذي سبقته، وجدوا الإسلام السمح يفتح أحضارته لتوظيفهم، والحكومات المختلفة تنظر إليهم على أنهم فريق من الرعية، وتتيح لهم أن ينالوا ما يشاءون من حظوظ المال والجاه.

فكان تقديراً لهذا الصنيع أن استهزاوا بالإسلام، واستغفروا حكمة وتألقوا ضد أهله، وكانت الجماهير بين الحين والحين تحس الغضابة من هذا الموقف النابي.

فكان التنفس عن أهلها المكبوب بكلمة نابية، أو تهمج محدود.

وأخطرت مسألة الحكام بإزاء تصرفات النصارى، فمنهم من كان يغاضى عنها على ما بها من إجحاف صارخ بكرامة الإسلام ومصلحة الكثرة التي تدين به.

حتى أن شخصًا تقدم إلى «العزيز بالله» يحمل عريضة جاء في صدرها بالذي أعز اليهود مدننا والنصاري بعيسي بن نسطور، وأذل المسلمين بك...».

وقد أكثر أولئك الحكام المتهاونون، حتى أن النصارى طمعوا في إعادة مصر إلى عهد ما قبل الفتح، أي طمعوا في إعادة الإسلام وإزالة سلطانه.

ويشهد للكتاب الصليبي نفسه إذ يقول في ص ۱۵۲ ماعقباً على قصة - مؤداها أن الموظفين الأقباط كانوا ينجوزون الأوراق التي تتضمن مصالح طائفتهم فحسب.

قال: «ولا عجب فإن الأقباط كانوا يمثلون في ذلك الوقت في استرداد النفوذ الذي كانوا يتمتعون به عندما فتح العرب مصر».

فهو يلزم تعصبهم ضد الكثرة بتعصب مثله، ويضم إلى ذلك الكذب على التاريخ.

إذ إن الرومان كانوا عند الفتح يستلدون الأقباط.
ولو سار المسلمون على سياسة الرومان لباد الأقباط من زمان بعيد.

وكان هناك حكام آخرون يدركون خفايا النصارى، ويستنكرون محاولتهم تغلب الطبع المسيحي على بلاد كثيرة مسلمة، ولا يتواونون في إنزال العقوبة بِن يفعل ذلك.

وأغلب حوادث العزل من المناصب، وفرض الغرامات، وتقديم بناء الكنائس يعود إلى هذه العلة الدفينه.

ونحن نخطئ سياسة الحكام المسلمين في هذا الشأن.

فإن إخراجهم العنان للموظفين النصارى أوّر عليهم صدور المسلمين، وألقاع الضغائن بين القلة والكثرة، وتوقيع العقوبات بعد ذلك على المتخصص منهم فُسر بأنه ظلم.

كان المماليك يتركون الموظفين الأقباط يعبون، ثم يهجمون عليهم فيصادرن قسمًا من مالهم.

وهذه فوضى أولاً وأخيرًا!!

ولقد رأينا "نابليون" يفرض هذا السلك، إنه شهد الرقابة ابتداء عليهم.

وأظهر - بالحساب الدقيق - سرقات الخلفيين منهم، ثم قرر فصلهم، وذلك هو النظام الذي لا ترقى إليه شبهة.

ومن هذا القبيل ما رواه الكاتب في ص 139 من أن "أبا الحسن الصيرفي" رئيس مجلس العقود مَرّ بمدينة "دمرو" فوجدها أصبحت "قسطنطينية" أخرى، إذ وجد فيها سبع عشرة كنيسة حديثة البناء، فضلًا عن عدد كبير من الكنائس بنيت حديثًا في القرى الخبيثة بها.

كما لاحظ أن البطريرك بنى لنفسه قصرًا نقشت عليه عبارات مهينة للإسلام.

وحكى الكاتب - بعد ذلك - أن البطريرك سجن، وأن الكنائس أغلقت وألزم النصارى بدفع عشرة آلاف دينار غرامة.
وهذه القصة من رواية مستشرق فرنسي لا أعرف قيمته، وقد يكون صادقًا، وعندي أنه كان الأشراف في علاج هذا الإسراف المقصود في بناء الكنائس هو مراقبة البناء لا الأمر بالإغلاق والتقغيم.

على أن الأقباط مضوا قدمًا إلى غايتهم، لا يكثرون بهذه العوائق التافهة، إن جاء حاكم فحدث من غلائهم، جاء بعده جملة حكام فتركوا لهم الحبل على البار. ومضت السنين تلو السنين واخطب يتفاقم على المسلمين. موظفون ينكرون كل الدويلة ليدعموا به عصبيتهم، وكنائس يلد قربها في كل أفق، وغنى يعيش المسلمون على حواشي صاعليك تقبل الأرجل وتركض وراء الجيد.

ثم الأنكى من ذلك كله ترص الدوائر بجماع المسلمون الساحر، فإذا هجم الخروج من أوروبا على البلد الوادي الحروب أسرع الخونة من أولئك يهدون لهم بدعون، ويمهدون لهم أساب الغلب. ومن هنا رأى الوزير الغربي أن عهد الدفنة قد نقضه نصارى الشرق منذ أيدوا الصليبية الغربية في هجومها المتوحش على أرض الإسلام.

خيانة، واختلاس، ضغينة، وجود، ما هذا كله؟ هل جرائم الإحسان إلا الإحسان؟

إن هذه المشاعر كلها التي تلاقت دفعة واحدة فتمضخت عنها الثورة السفيفة التي اشتعلت على عهد المماليك ضد الأقباط.

وليتلاحظ أنها ليست ثورة دينية!! بلديل أن الهيجاء كان ضد تصرف الأقباط.

فحسب.

أما اليهود فإن أحدًا لم يمضهم بسوء ولم يرد لهم في هذه الفتنة أي ذكر. ولو كان القصد إنشاء أمير أو جماعة لأنها لم تعنتن الإسلام، لما كان هناك أي معنى البنت لترك اليهود يرجون كيف يشاءون!

ومع ذلك فما الذي حدث في هذه الفتنة؟

(1) الرحمن: ٢٠٠.
وماذا كان موقف السلاطين المماليك أنفسهم منها؟

بدأت الفتنة وعمال الخير يقومون بإنشاء البركة الناصرية.

وكانت المساحة التي ينقلون الأثر منها تتسع حتى اقتربت من جدران كنيسة الزهراء.

وهنا عمق الفعلاء الخزائن حفرهم قصد أن تسقط الكنيسة من تلقاء نفسها.

بل إنهم تصابوا بطلب الهدم ، ولكن رؤساءهم تصاموا عليهم.

وفجأة تجمع عدد من الغوغاء ، والناس حكومة وشعبًا مشغولون بصلاة الجمعة ، وهدموا الكنيسة ثم انتقلوا عنها إلى غيروها ، فهمروا خمس كنائس أخرى ونهبوا ما فيها من صناديق النذور وجرار الخمر وروّعوا سكانها من الرهبان والراهبات.

حدث ذلك كله والناس لم يخرجوا من صلاة الجمعة (!)

قال «المقرزي»: «... فعندما خرج الناس من الجوامع شاهدوا هولاً كبيرًا من كثرة الغبار ودخان الحريق ومرج الغوغاء وشدة حركاتهم ، ومعهم ما نهبوا ، فما شبه الناس الحلال لهوله إلا بيوم القيامة.

وانتشر الخبر وطار إلى "الترميلة" تحت قلعة الجبل.

فسمع السلطان ضجة عظيمة ورجة منكرة أفزعته ، فبعث لكشف الخبر.

فلما بلغه ما وقع انزعاجًا عظيمًا ، وغضب من تجروء العامة وإقدامهم على ذلك بغير أمره.

وأمر الأمير "أبدغمش" أمير "آخور" أن يركب بجماعة "الأوشاقية" ويتدارك هذا الخلل ويدحض على من فعله.

فأخذ "أبدغمش" يتهيأ للركوب ، وإذا بخبر قد ورد من القاهرة أن العامة ثارت.

وخربت كنيسة بحارة الروم ، وكنيسة أخرى بحارة زويلة.

وجاء الخبر أيضًا بأن العامة قامت في جمع كبير جدًا ، وحصمت إلى الكنيسة "المعلقة" بقصر الشمع فأغلقها النصارى ، وهم محصورون بها وهي على وشك أن تؤخذ.

فتزاد غضب السلطان ، وهم أن يركب بنفسه ويبطش بالعامة ثم تأخر لما راجعه.
الأمير «أيدغمش» ونزل من القلعة في أربعة من الأرما إلى مصر وركب الأمير «بيبرس» الحاجب والأمير «ال만큼» الحاجب إلى موقع الخفر، وركب الأمير «طينال» إلى القاهرة.

وكل منهم في عدة وافرة.

وقد أمر السلطان بقتل من قدروا عليه من العامة بحيث لا يعفو عن أحد.

فقامت القاهرة على ساق وفر النهبة.

فلم يظهر الأرما منهم إلا بمن عجز عن الحركة بما غلبه من السكر بالخمر التي نههما من الكنائس.

وثقت الأمير «أيدغمش» بصره، وقد ركب الوالي إلى الكنيسة «الملعقة» قبل وصوله ليخرج من زقاق الملعقة من حضر للنهب، فأخذوه الرحم حتى فر، ولم يبق إلا أن يحرق باب الكنيسة.

فجرد «أيدغمش» ومن معه السيوس يريدون الفتى بالعامة، فوجدوا عالما لا يقع عليه حصر، وخوف سوء العاقبة فامسك عن القتل.

وأمر أصحابه بإرفاج العامة من غير إهراق دم، ونادي منديه:

من وقف حل دمه.

ففر سائر من اجتمع من العامة وتفرقوا.

وصار «أيدغمش» وافقا إلى أن أذن العصر خوفا من عود العامة، ثم مضى وألزم الوالي أن يبيت بأعوانه هناك، وترك معه خمسين من «الأوشاقية».

وعلى هذا النسق أخذ «المقريزي» يسرد الحوادث.

ولابد لنا من وقفة هنا لتقارن بين هذه الكارثة - كما سماها الكاتب الكاثوليكي - وبين المذبحة التي أوقعها آباؤه الكاثوليك بخصومهم البروتستانت في عبد القديس «بارثيميو» في فرنسا عام 1572 م.

إن الفتنة هنا لم تبدأ بصيحات المؤذنين من فوق سقوف المساجد إشارة لبدء التخريب على النحو الذي تم في فرنسا، حين بدأت أجراز الكنائس الكاثوليكية تدق في منتصف الليل إيذانا ببدء الذبح في أوعس نطاق... كلا... كلا!
الأمر في فرنسا كان اضطهاداً دينياً مبيناً بدقه، قصد به إبادة الخارجين على الكنيسة ابتعاد وجه «يسوع».

أما الذي حدث في مصر فهو مظاهرة من الرعاع انتهجت أطمئنان الحكومة إلى سيادة الأمن، وانشغال المسلمين الأثرياء بأداء الصلاة في وقت الجمعة، فهجمت على الكنائس تسرق ما فيها من النذور وجراء الخمور، وأظن أن الإسلام معروف حكمه على الصلاة والسكارى، ومعروف مكان اللصوص والسكارى من جمهور المسلمين.

أما الفرق بين موقف «المماليك» في مصر، و موقف البابا والملوك الكاثوليك في أوروبا، فهو فرق بعيد المدى، إنه فرق ما بين الحضيض والقسم.

إذا كان البابا وملوكه يستخفهم الطرب لأنبء المذبحة التي أودت بهحياة الألوف،
وخلع أولئك الشيخ وقارهم فكادوا يرقصون في خفة الغلام.

حتى إن البابا الأعظم أمر بتصوير مناظر الجزيرة ليستمتع بها كلما شافه أن يسرح الطرف في صور الضحايا ومقام الدماء!!

فإذا تجاوزنا هذه السفوح التي تعج بأخلاء من الحما المسنون وارتقينا إلى سيرة «المماليك» النظيفة وإلى مسلكهم في مجابهة هذه الفتنة المفاجئة وجدنا طرفا آخر من احترام العقائد وصيانة الحقوق.

إن المماليك- الذين يعذرون في عهدهم - لم يقفوا موقف المشتهى أو المتفشى من هذه الفتنة الطائشة، بل ساقوا قواتهم في الحال لإطفائها.

وكان السلطان يشرف بنفسه على تحقيق هذه الظاهرات، ويصدر الأوامر الحاسمة بقتل المشاركين فيها، معترفا بالأшибات جزءاً من رعيته التي يجب أن يدفع عنها مما أساءت.

إنه لم يستكأس أوصام كالبابا «جريجوري» الثالث عشر لتخليد ذكرى الجزيرة.

لا، إن السلطان الناصر "محمد بن قلاوون" الحاكم المسلم في العصور الوسطى- كما يقولون- كان أرق عاطفة من البابا الذي يحكم أوروبا في نهاية القرن السادس عشر، وكان أرقى إنسانية منه.
ولبرغم علمه أن سيرة الأقباط بين المسلمين المنظورة على التخصص والفكر والاستغلال هي التي أدت إلى هذه الفترات، فإنه أبقى الرفوق جامدًا بإزائها، فلما بلغه ما حدث لكنائس الأقاليم بعد كنائس القاهرة هاج غضبه. قال "المقريزي":

".. فاستندت حقن السلطان على العامة، خوفًا من فساد الحال؛ وأخذ الأمراء في تسكن غضبه قالوا: هذا الأمر ليس من قدرة البشر فعله. ولو أراد السلطان وقوع ذلك على هذه الصورة لما قدر عليه، وما هذا إلا بأمر الله سبحانه وتعالى، لما علم من كثرة فساد النصارى، وزيادة طغيانهم، ليكون ما وقع نزمة وعذابًا لهم".

**

ربما فقد النصارى في هذه اللحظة عشرة أشخاص أو بضعة عشر شخصًا.
ولا شك أن الفتى في المنتظرين ضدهم يبلغون ذلك أو يزيدون، لكن خسائرهم في الكنائس كانت جسيمة.
ولست أرجح أن هذه الأمور كانت عن تدبير منظم.
بل هي انفجار مستنبط لشعور مكبوت، إثر إذلال وتعصب طويلين من الموظفين والأعيان الأقباط.
وقد كان العامة في مصر يعرفون نقصة السلطان على مقتفي هذه الجرائم.
وكان الأقباط يعرفون أن السلطان حزين لمصابهم، وأنه أرسل يتعرف الكنائس الخرية.
ومن أيسر الأمور عليه أن يعيد بناءها، ويعوض المصابين فيها.
ولو أن الأقباط تحدثوا إليه وقروا دفاعه الخار عنهم، لاندمل الجرح، وانحلت الأزمة، خصوصًا، وقد سبق أن أساء النصارى إلى المسلمين، بالانضمام إلى أعدائهم من الرومان أو الصليبيين، ثم تغلب الحكم على ما يعقب ذلك غالبًا من هياج الكثيرة ضد القلعة المهمة بالغدر.
لكن الأقباط لم يفعلوا ذلك، وقرروا إعلان الحرب الخفية على المسلمين، ففيتروا النية على إحراق القاهرة. قال «المقرزي»:

» لم يمض سوى شهر من يوم هدم الكنائس حتى وقع الحريق بالقاهرة ومصر في عدة مواضع، وحصل فيه من الشناعة أضعاف ما كان من هدم الكنائس.

وقع الحريق في ربع بخت الشوانين من القاهرة يوم السبت عاشر جمادى الأولى وسرت النار إلى ما حوله واستمرت إلى آخر يوم الأحد، فتلف في هذا الحريق شيء كبير.

و عندما أطفئ وقع الحريق بحارة الدليم في زقاق العريشة بالقرب من دور كرم الدين ناظر الخاص. ولعل ذلك السلطان فانزعج إزعاجًا عظيمًا لما كان هكذا من الحوادث السلطانية وسيرة طافية من الأمراء لإطفائها، فجمعوا الناس وتكاثروا عليها، وعزم الخطب من ليلة الاثنين إلى ليلة الثلاثاء.

فتنزأدت الحال في استعمال النار، وعزم الأمراء والناس عن إطفائها لشدة انتشارها.

في الأماكن، وقوة الريح التي ألقت بأسفاق النخل وغرقت المراكب.

فل لم يشك الناس في حريق القاهرة كلها، وصعدوا المذان، وبرز الفقراء وأهل الخير والصلاح، وضجوا بالتكبير والدعاء، وجاروا، وكثر صراخ الناس وتكاؤهم.

وسعد السلطان إلى أعلى القصر فلم يتمالك الوقوف من شدة الريح.

فما هو إلا أن أكمل إطفاء الحريق، ونقل الحوادث، وإذا بالحريق قد وقعت في ربع الظهر» خارج باب جزيرة.

وكان يشتمل على مائة وعشرين بيتًا، وهبت مع الحريق ريح قوية.

وركب الحاجب والوالي لإطفائها، وهموا عدة دور من حولها حتى انطفأت.

وقعت في الثاني يوم حريق بدار الأمير «سلار» في خُط بين «القصرين» وحريق بحارة الروم، وعدها مواضع أخرى، حتى إنه لم يخل يوم من وقوع الحريق في موضعه.

فتنبه الناس لما نزل بهم، وظنوا أنه من أفعال النصارى.

وذلك أن النار كانت ترى في منابي الجوامع، وحيتان المساجد والمدارس فاستعدوا
لمثير حريق، وتبعوا الأحوال حتى وجدوا هذه الحراقين من «نفق» قد لفت عليه «خلق» مبولة بزيت وقطران.

فلما كانت ليلة الجمعة «النصف من جمادى»قبض على راهبين عندما خرجا من المدرسة «الكهارنة» بعد القيادة الأخيرة، وكانت الناقورة اشتعلت في المدرسة ورائحة الكبريت في أذنهم فحملها إلى الأمير «علم الدين الخانز» والقاهرة فأعلم السلطان بذلك، فأمر بعقوبتهم.

فما هو إلا أن نزل من القلعة، وإذا بالعامة قد أمسكوا تصرفناً وجد في جامع الظاهرة، ومعه حرق على هيئة «الكعبة» في داخلها قطران ونفق، وقد ألقى منها واحدة بجانب المنبر، ومازال واقف إلى أن خرج الدخان مشمس يريد الخروج من الجامع.

وكان قد فطن إليه شخص وتأمله من حيث لم يشعر به فقبض عليه، وتكاثر الناس فجروه إلى بيت الوالي، وهو بهيئة المسلمين.

فوقع عند الأمير ركن الدين «بدرس الحايب».

فارتفع بأن جماعة من النصارى اجتمعوا على عمل نفط وتفرقة مع لفيف من أتباعهم، وأنه من أعطى ذلك مثلهم وأمر بوضعه عند منبر جامع «الظاهرة».

ثم أمر بالرهابين فوقعوا، فاعترفا بهما من سكان «دير البغل» وأنهما هما اللذان أحرقا المواضع التي تقدم ذكرها بالقاهرة غيرة وحتحا على المسلمين لما كان من هدمهم للكنائس.

وأأن طائفة النصارى تجمعا وأخرجوا من بيتهم مالاً جزيلاً لعمل هذا النفق.

اتفق وصول «كرم الدين» ناظر الخاص من الإسكندرية، فعرفه السلطان بما وقع من القبض على النصارى فقال:

النصارى لهم بطريقة يرجعون إليه ويعرف أحواالم.

فرمم السلطان بطلب البطريرك عند «كرم الدين» ليتحدث معه في أمر الحريق، وما ذكره النصارى من قيامهم في ذلك.

فجاء في حماية ولي القاهرة ليلاً خوفاً من العامة.
فلمّا أن دخل بيت "كرم الدين" بحارة الديلم، وأحضره إلى الثلاثة النصارى من
الوايلي فقالوا "لكرم الدين" بحضرة الوالي والبطريق جميع ما اعترفوا به قبلًا.
فبكي البطريرك عندما سمع كلامهم وقال:
هؤلاء سفهاء النصارى قصدوا مقابلة سفهاء المسلمين على تخريبهم الكنيس.
وانتصر من عند "كرم الدين" مبجلًا مكرمًا.
وجد "كرم الدين" قد أقام له بغلة على بابه ليركبه، فركبها وسار.
فعظم ذلك على الناس وقاموا عليه يبدأ واحدة، فلو أن الوالي كان يسرره لهلك.
وأصبح "كرم الدين" يريد الركوب إلى القلعة كعادته.
فلما خرج إلى الشارع صاحت به العامة: ما يحل لك يا قاضي أن تخامي للنصارى
وقد أحرونا بيوت المسلمين وتركهم بعد هذا الغال.
فشق عليه ما سمع وعظمت نكايته، واجتمع بالسلطان.
فأخذ يهون أمر النصارى الغبيوسين، ويذكر أنهم سفهاء وجال.
فرسم السلطان للوايلي بتشديد عقوبته، فنزل وعاقبهم عقوبة مؤلمة.
فاعترفوا بأن أربعة عشر راهبًا "بدير البغل" قد عالقوه على إحرار ديار المسلمين كلها.
وفيهم راهب يصنع النفط، وإنهم اقتسموا القاهرة ومصر، فجعلوا للقاهرة ثمانية
ولمجر ستة.
فكتب "دير البغل" وقبض على من فيه وأحرز من جماعته أربعة بشارع
"صلبة بن طولون" وقد اجتمع لمشاهدهم عالم عظيم... ه. وه.
*
*
*
وليس بستغرب أن تشعشع نيران الفتنة، وأن تمتد أضرارها حتى يصلب بها من
ليس له ذنب فيها. من مسلمين وأقباط.
وإذا نحن ننظرنا إلى هذه الغمة من ناحية الخسائر المادى، وجدنا مصاب المسلمين
ومصاب غيرهم سواء.
فالفك حملة عنها تحت عنوان "كارثة النصرانية في عهد المماليك" ليست كتابة نزيهة.

على أن لنا ملاحظات يجب إثباتها للفعّالية كافعلى الوقف كله. فإنه ظاهر للعيان أن الحكومة الإسلامية الفائقة اعتبرت الشغب الحاد خروجًا عليها وأنزلت مرتقبة ألم العقاب.

وأنها استنكرت مظاهرات الغوغاء وساندت جمهور الأقباط واستنعت "البطريرك" ليشرف بنفسه على مجري التحقيق واستقبلته وودعته بإكرار وتحية.

ولو أن الأقباط قدروا للحكومة مسلاكها، ورجعوا إليها في المطالبة بتغيير عما فقدها ؛ لكن ذلك أدل على إدراكهم للألم وشكونهم للصيني.

لكن ما حدث أن مظاهرات الغوغاء قابلتها مؤامرات الرهبان والقساوسة لحلف القاهرة!!

ولو أن حضرات الرهبان والقساوسة اكتملا بالهرب إلى أن ظهر مقوم الشؤون الأولاً، ووقعته بالعاصمة أفدح الأضرار ثم ظفرت بالنسب من غواص فعملتهم، كان ذلك أجدل عليهم وعلى طائفتهم.

غير أنهم ازدادوا ضراوة وحاجة، ومضوا في خطتهم يريدون تدمير كل شيء!!

ومع ذلك كله فقد أثبتت حكومة المماليك أن تنظيم إلى المشكلة من راوية التعصب الديني، بل اعتبرت الرعية من العامة والسفهاء من القسس مجرمين في حق الأمن العام فقط، واقتضت منهم على هذا الأساس.

مضمت الأيام، وغالية على مسلمي مصر طهورهم الوادعة، فنسوا ما كان، وتلاقي

الفرقان في المواضيع والأعمال يستأنفون حياة لا اضطراب فيها.

وازداد الأقباط في شتى مناصب الدولة، وتطالوا في البنية.

وباهوا غيرهم بسرعة النفوذ وسطة التمرأة، فكيف يقول قائل بعد ذلك:

إن كارثة النصرانية في عهد "المماليك" هي التي جعلتهم يرغبون بغزو الفرنسيين لمصر؟
بędą, أن الكاتب المغرض يريد ليبرر هذه الخيانة - التي لا مبرر لها أبدًا - فيقول في ص 272:

"يمكننا أن نستنتج من حوادث هذه الحملة - الفرنسية - ثلاثة أمور:

أولاً: أن احترام المسلمين للأقباط جعل التفاهم بين هذين العنصرين عميلاً.

ثانياً: أن وجود أمة مسيحية في مصر أساء إلى العلاقة بين الأقباط والمسلمين.

بالرغم من أن هذه الأمة كانت مشيدة بروح العطف على الأغلبية.

ثالثاً: أن الأقباط الذين اضطهدتهم المماليك واحتقوهم أصبحوا يحبون بأم "أوروبا" المسيحية على شرف أن تكون هذه الأمة بعيدة عن كل غضب ديني.

أي أن الأقباط - في رأى الكاتب - يجب أن تحتل مصر دولة مسيحية من دول أوروبا الكاثوليكية أو البروتستانتية على شرف أن تدع الأقباط يستمتعون بحريةهم الدينية نصاري أورثودكس.

وهذه هو بيت القصيد عند الكاتب، وقد مهد له بكل من السببين الأولين وكلاهما باطل اجتاحتاً لتسوغي ما بعده.

فقد المسلمين في مصر لم يتبرعوا باحترام الأقباط، ولا تعبدوا الله بالإساءة إليهم.

ثم إن الزعم بأن الفرنسيين أو الإنكليز جاءوا إلى مصر عاطفين على المسيحيين من أهلها هو كلام تخسر افتراضهم دور الدعاية في الدول المستعمرة.

وسوقه هنا يكشف عن نية صاحبه في خدمة الاحتلال الأجنبي، وتحرير المقاومة الإسلامية للعاصبين، ومن يعمل معهم من الغادرين.

* * *
ماذا یی‌دون؟
إنه يتضح من استقراء الحوادث التي حفل بها التاريخ المصري من الفتح إلى اليوم، أن لدى النصارى رغبة جامحة في تنقص الإسلام، واعتبر أهل غرباء في هذه البلاد، ومحاولة الاستثمار بالسلطة دونهم، حتى يتم بالخديعة أو بالقهر هدما الحكم الإسلامي، وإقامة حكم آخر مكانه آيا كان لونه!!

ومن الظلم أن نتهم الأقباط عامة بأنهم شركاء في الوصول إلى هذه الغاية الجائرة، ففي كل زمان ومكان - أهل إنصاف وعدل.

يريدون أن يقاسموا المسلمين حياة آمنة مستقرة ولا يرون غضاضة في إعطاء المسلمين حقهم بأعترافهم كثرة.

ومن حق الكثير المعترف به في الأنظمة كلهما أن تكون الدولة لها والولاية العامة في بنها. وما دامت القلعة ستعيش مساوية في حقوقها وواجباتها وحرياتها للكثير التي تجاورها، فأي حرج سوف يحلها؟

لكن سياسة الأقباط لا يرسمها - للأسف الشديد - هذا النفر المعقول.

فما أكثر ما بقت الزمام منه، فتبدو الطائفة - وكأنها لا تستريح إلا إذا زال الإسلام ووزالت دولته من الوجود -

وهنا موطن الصعوبة في علاج المشكلة.

فنحن - المسلمين - لن نترك دينا، ولن نحن شريعتنا، ولن ننصب عبادته.

وفي الوقت نفسه لن نخور على غيرا، ولن نحصر شعائره أو عباداته.

وإذا كانت راحة النصارى الوحيدة في أن نترك دينا، فلن نستحق ما حيا وحيبنا، وإذا كانوا سيفتحون ويطلقون كلما سمعونا نحن تتبعون من الحكومة الإسلامية فلن تكون عقبى هذه المشاعر النافرة مجدية عليهم شريق، ومن الخير لهم أن يلتزموا الجادة.

وسواء اعتدلوا أم تطردوا فلن نخف عليهم! بل سنظل أشرفًا في مسلكنا.

* * *

ونحن أن نلقى نظرة عجلى على حوادث السبعين عامًا الأخيرة، لبراء القارئ الجاحز الذي يدير عليه النصارى سياستهم بإزاء الإسلام.

في سنة 1882 م ضرب الأنكليز الإسكندرية وشنوا هجومًا شاملاً على مصر، وكان السبب الأصيل لهذا العدوان خوف الأنكليز من قيام دولة دستورية قوية في وادي النيل.
إذا إن "عربى" أراد وضع حد لفوضى الحكم الفردي والمفاسد التي تنتشر تحت ستاره الداكن.

"عربى" قائد مسلم في أمة تسعة أعوامها مسلمون.
فهل يستغربه منه أن يدعو إلى الجهاد الدينى لمقاومة الغزاة؟ هل يستنكر عليه أن يستثير حمية أمه الدينية في ساعة محتشمتها؟ لماذا لم يستنكر ذلك من "تشيرشل" و"روزفلت"؟
أم إن الراد هضم الإسلام وحده؟ أرسل "عربى" إلى "غلاديستون" يهددهـ قبيل قذف الإسكندريةـ بإعلان الجهاد العام حسب تعاليم الإسلام.
وكان هذا الإعلان كافياً ليفض الأقباط من حوله وينفرهم من الدفاع عن البلاد!! وذكر الكاتب في ص ٢٣٤: "إن هذه الأسباب أثرت على مجري الحوادث، وحدث أن المتظاهرين والقوات المتقهقرة كانوا يخلطون كثيراً بين الأجانب والنصارى الوطنيين".

وقيل: إن هناك مؤامرات لإبادة النصارى جميعاً!!
ويقول الكاتب في الصفحة نفسها:

"... احتتج عرابى لدى "م. جريجوري" مراسل جريدة التيمس على اتهامه بالتعصب.

غير أن "بلانى" لاحظ أن القائد المصري أضاف على الحركة طابعاً دينياً أكثر من مشايخ الأزهر أنفسهم!!

وقد انهزما "عربى" وأخفقت ثورته(1).
وبدلاً من أن نظفر مصر المسكونة بالخلاص من أوزار الحكم الفردى، سقطت في مخالب الاحتلال البريطانى ووضعت بريطانياها - وهي دولة صليبية - يدها على مقاليد البلاد التي تخشى من قيم دولة قوية في ربوعها.

(1) لقد هاجم البعض الحركة العراقية وأيدها البعض ووقع تحت تفجير الأهواء المختلفة ، وفي شتى الأحوال لا يمكن إ兵马 الآراء الجيدة بالدراسةـ حصول موقف عربى والأحداث الصادمة لثورته الإسلامية انظرـ سلسلة كتاب الهلالـ مذكرات عرابىـ تقديم اللواء محمد غلبـ رئيس الجمهورية ـ العدد ٢٥ ٢٤ فبراير ١٩٥٣.
فلم يكن عجيبًا أن ترسم لها سياسة تصل بمستواها المادي والأدبي إلى حد معين، الحد الذي يجعلها مطية ذللاً، أو بقيرة حلوًا للإمبراطورية الفاجرة.

فماذا كان موقف الأقباط من هذا الاحتلال الصليبي الجديد؟

***

اجتماع الأقباط في «أسيوط» على هيئة مؤتمر وتقدموا إلى حكومة الاحتلال بمطالب عديدة مثل أمانة الأمة القبطية.

ونحن نعتدي الأقباط الحق كله - لو كانوا مطلعين - أن يستعينوا بالشيطان في دفع الضر عن أنفسهم، وترفض اتهامهم بخيانة الوطن، والحياة هذه.

فلننظر، أكان الأقباط مطلعين حقًا حتى يلجأوا إلى المحتلين يطلبون نصفتهم؟

نقل الكاتب نتائج من مقدمة تقرير عن مؤتمر «أسيوط» للأستاذ «توفيق حبيب» - وهو قبطي، جاء فيه:

"كان الحكام يختصرون بالوظائف العمومية نفقات أو طرائف معينة، سواء بحكم الميل أم الضرورة.

ومن هذا القبال غيّد جميع الحكام والولاية الذين تقدموا (محمد علي) بل محمد علي" نفسه وبعض خلفائه قد اختصوا الأقباط ببعض مصالح الحكومة في القاهرة والأرياف، كما اختصوا الأتراك بالوظائف العسكرية والإدارية.

ولو قرأت أغواء المؤرخين المسلمين لما وجدت اسم المصري المسلم في غير وظائف القضية الشرعية إلا نادرًا، صفحة 247.

"هذا التقرير يصور فكرة الأقباط عن الوظائف ومعنى المساواة فيها.
فلتتدبره جيدًا، ثم لنضم إليه كذلك الإحصاء الذي أرسله السير (ألدون غوست)
المعتمد البريطاني إلى حكومته في تقرير عن سنة 1901 م.

وو هذه الإحصاء - كما أثبت الكاتب - يدل على أن الأقباط الذين هم عشر السكان كانوا يحتلون 42.32% من الوظائف، ويبقون 40% من المرتبات.

في حين أن نصيب المسلمين لم يتجاوز 44%، والأجانب 26%.

فمما كان الأقباط يشكلون؟

وأين نظالم النازل بهم من المسلمين قدمًا أو حديثًا؟"
ومن الذي يطلب المساواة ويستصرخ من العدوان النازل به؟
القلة المدفونة؟ أم الكثرة المهملة؟
إن مؤتمر "أسيوط" هذا، كان خيارات دنيئة، وغرورًا مركزيًا.
وهو - مع صمامة الأحداث السابقة في التاريخ القديم - دلالة لا ريب فيها على
تعصب أعمى ضد الإسلام وأهله، وضحكة صليبية لا يخفى منها شيء.

* * *
والواقع أن الإنكليز لما دخلوا مصر وجدوا الحالة نفسها التي وجدها الفرنسيون قبلاً.
استقبلهم المسلمون بخطوة من المجهود وذلقة المغلوب على أمرهم.
وهرع غيرهم لاستقبالهم بنوع من الإنصاف واللبونة.
ويش الإنكليز في وجه من بشوا لهم.
ولكنهم لم ينسوا أن يريدون استغلال خيارات مصر خイスهم الخاص، وأنهم في
هذه الحداد يقولون العون ويرحبون بالخيانة.
ولا عليهم أن يضموا أيديهم في أيدي الخونة من المسلمين أو من النصارى.
وقد كان الأقباط في ظل الدولة الإسلامية المضطربة، والحكم الفردي العابث
يختانون الخبر الكثير لأنفسهم أفرادًا وطائفة.
وقد رفض "نايليون" هذا الوضع - كما بينا أنفًا - ورفض الإنكليز أيضاً هذا الوضع.
واعتبر الكاتب الصليبي بهذه الحقيقة رغم أنفه، فقال ص 247: "ليس
الاحتلال البريطاني هو الذي ألغى احترام الأقباط للأعمال الحسابية، فإن إدخال
الطرق الحديثة في العمل هو الذي أدى إلى إلغاء هذا الاحترام.
وقد شكا "هاملون" بحق من أن كل نظام كفيف بتسهيل العمل الإداري كان
يرفضه الأقباط إذا كانوا يعيشون في الفوضى ومن الفوضى.
لكن.. هل أقصى أولئك الذين يعيشون في الفوضى ومن الفوضى عن وظائف
الدولة وما أنفق ألسنتهم بالشكاهة وطلب المساواة؟
كلا كلا.. وما كان الإنكليز ليفعلوا ذلك.
فإن نسبة الأقباط - حتى انعقاد مؤتمر "أسيوط" وما تلاه - كانت ترجع على
المسلمين بشكل مروع.
غير أن هذه النسبة مهماً علت لن تشييع مطاعم قوم يريدون إقصاء الإسلام بشكل
حساس عن كافة مظاهر الحكم.
وقد صرح الأستاذ «توفيق حبيب» بهذه النية، إذ قال في حديثه عن مؤتمر
«أسيوط» القبطي:
» لقد أباح رجال الاحتللال للمسلمين بل أعدوه لدخول جميع الوظائف
الكتابية والخضائية وغيرها مما كان محتكراً للأقباط قبلا».

***

استرد المصريون صوابهم بعد الضربة الموجعة التي أنزلها الاستعمار الإنجليزي بهم،
ونشط الأحرار لمقاومة اللصوص الحمر، وتعسير مقامهم في أرض الوادي، فتألفت
«الحزب الوطني» لتنظيم الجهود وإعلان الجهاد.
وكان مؤسس هذا الحزب شابًا صادق الرغبة في خدمة المصريين جميعًا ورفعة
 شأنهم.

وقد أظهر الأقباط أنهم والمسلمين سواء، وأن اتحادهم مع مسلمى مصر في مواجهة
العدو اختل عليه واجبات الشرف والرجولة.
وقد نص الزعيم الشاب في برنامج حزبه على أن الدين لا يفرق بين مصري
ومصرى في الحقوق والواجبات.
وقد انضم إلى هذا الحزب أول تكوينه نفر من الأقباط المعقولين، وساهموا في أداء
الواجب القومي، وإناثة البلاد وأهلها الحرة المشودة.
غير أن الحزب الوطني اهتم في سياسته الخارجية بالوحدة الإسلامية، واهتم في
سياسته الداخلية بشؤون المسلمين باعتبارهم كورة كبيرة.
فأقر الإسلام دينًا رسميًا للبلاد، واعترف بحق معتنقيه في نيل أنصيحتهم كاملة في
الإدارة والتجهيز العام.

وما إن رأى المتطرفون من الأقباط إخوانهم المسلمين يستممكنون بذينهم - على هذا
النحو - حتى كفروا بالحرب ومبادئه، ومواصوا بمقاطعته، وصدر الأمر إلى الأقباط
جميعًا بترك الحزب الوطني!!

(1) مصطفى كامل.
(2) كان مصطفى كامل يحمل الفكرة الإسلامية. وقد أمى بفكرة الجامعة الإسلامية التي نادي بها الشيخ جمال
الدين الأفغاني وآمن بها السلطان عبد الحميد الثاني سلطان الدولة الإسلامية العثمانية.
إذا ف Tweezing إذ نذكر أن رئاسة الحكومة المصرية أسست في العصر الأخير إلى
رجلين ليسا مسلمين ، هما "نوباء باشا" و "بطرس غالى باشا".
فأنا أولهما فقد مكن للأجانب في البلاد، ورسخ امتيازاتهم على حساب أهلها.
فأصبح المسلم يقتل في عقر داره فلا ينتقد الحاكم إلى الجاني بعقاب ، لأنه من
أصحاب الامتيازات 1!
وأما الآخر فقد سلم السودان للإنجليز، وعمل على مطابق، قناة السويس،
ومضى في سياسة طائشة للإفراط في الوظائف العامة بالأنشطة دون المسلمين، فانتهى الأمر
بقتله 1.
ولما كان القاتل شابًا مسلمًا والقتي ببطول، فقد اعتبر الأقباط ذلك عدوانًا
dينيًا على طفائفهم في حين اعتبر الوطنين ذلك عملا سياسيا بحتا.

* * *
إذا لنا ناسي كلما سمعنا هارفًا يزعم أن اعتبار الإسلام دينًا رسميًا للدولة، والعودة
إلى شريعة في الحكم، والانضواء تحت جامعته الكبرى في الخارج... إننا نسيح إذ
نسمع من يصف هذا بالرجعية (!).
من قال: إننا نتأخر عن ملاحظة الحضارة الحديثة لأننا مسلمون؟
هل تكون دولة أكثر رجالها من التصاري هو الذي يجعلنا تقدميين؟
هل ترك الدولة في حضانة الكنيسة - ترسهم لهم سياسة القضاء على الإسلام - هو
المؤايمل للحضارة الحديثة.
إذا نؤيد أن الدولة في يد الأقباط أداة للقضاء على الإسلام.
ونظرة واحدة إلى مسلمي الحبشة تحت حكم الأقباط هناك تدل على هذه الحقيقة المرة.
سافرت بعثة من الأزهر مؤلفة من الأستاذين الفاضلين "عبد الله المشداً
ومحمود خليفة" الأستاذين بكلية الشريعة إلى بلاد "الصومال" و"أريتريا" و"عدن"
والحبشة لدراسة أحوال المسلمين بهذه البلاد.
وأستغرقت رحلة البعثة ثلاثة أشهر ما بين يوم 26 من شعبان سنة 1370 هـ الموافق
أول يونيه سنة 1951 ويوم 29 من ذي القعدة الموافق أول سبتمبر سنة 1951 .

(1) كان بطرس غالى أحد أعضاء المحكمة التي أعدمت أهالي دانشواوى والتي أقامها الإنجليز نкаяة في أهالي البلدة
المفهورة.
وكتبت تقريرًا مفصلًا ويقع في ستين ومائة صفحة كبيرة، يتسم بالدقة والاعتدال والواقعية.

وبهذا فقد حوى ذلك التقرير عجبًا عجابًا عن الاضطهاد الدينى في القرن العشرين.

وهذه براعة الاستهلاك:

«عقب انتهائنا من زيارة بورما من أعمال الصومال البريطانية، رأينا أن نواصل الرحلة إلى الحبشة» نظرًا لأن الميعاد المحدد لدخولنا فيها قد أوشك أن ينتهي فسافرنا يوم 22 من يوليو سنة 1951 بالسيرة إلى جيجيجحا وهي أول مدينة من مدن الحبشة في جنوبها الشرقي، تعتبر عاصمة الصومال الأوجادين.

وبعد أن نزلنا الفندق وكمشتنا فيه ساعة ونصف الساعة أمراً بمارحة المدينة، ولم يسمح لنا بالإقامة، فاضطررنا للعودة إلى هرجيسة في مساء اليوم الذي دخلنا فيه، ثم برحنا هرجيسة إلى عدن، ثم منها إلى أسمرا.

وبعد أن أمضينا عشرة أيام أخطرنا من السفارة المصرية بأديس أبابا لأن وزارة خارجية أثيوبيا سمحتنا لنا من جديد بدخول الحبشة.

فسافرنا بالطائرة إلى أديس أبابا يوم الخميس 16 من أغسطس سنة 1951 وأقمنا بها اثنين عشر يومًا حاولنا في خلالها أن نقوم بزيارة معاهد التعليم في العاصمة والمدن الحبيرة، وأن نتصل بالمسلمين، فلم نستطع إلى ذلك سبيلًا لأسباب خارجة عن إرادتنا.

ولم ينعننا ذلك من الوقوف على كثير من شؤون المسلمين في الحبشة.

وسنذكر بعض ما يمكننا ذكره منها في هذا التقرير متوخين الحقائق التي يهم أولى الأمر الإطلاع عليها».

ثم يمضي التقرير فيذكر هذه الحقيقة الغريبة التي لا يكاد يعرفها أحد.

وهي أن نسبة المسلمين في الحبشة بصفة عامة لا تقل عن 55 في المائة من مجموع السكان، وأنها ترتفع في بعض المناطق إلى 85% وتهبط في بعضها إلى 25%.

وهي في عمومها أغلبية كبيرة مع انقسام البقية من السكان إلى مسيحيين ويهود ووثنيين.

ويعتبر التقرير في هذا على الإحصاء الإيطالي الدقيق الذي قام به الإيطاليون في سنة 1936 لإحصاءات القتاليات الأجنبية في الحبشة.

وهي حقيقة غريبة كما قلت.
ويزيدها غرابة ما سنعرفه من إهمال العنصر الإسلامي إهمالًا تامًا في الوظائف والتعليم والعيشة وتجريدهم من سائر حقوق المواطنين!!

ثم يذكر التقرير هذه الحقائق المفجعة العجيبة:

أولاً: أن الحكومة الخبيشية بعد انتهاء الاستعمار الإيطالي، قد اغتصبت من المسلمين ثلثي أملاكهم العقارية وسلمتها للمسيحيين من الرعايا، مع بقاء الضريبة الفادحة على الرعايا المسلمين، حرصًا على إفقارهم وانحلالهم.

ثانياً: أن الحكومة الخبيشية تمنح إرساليات التبشير المسيحية كل العناية والرعاية في الوقت الذي تحرم فيه على المسلم أن ينقل من محلته إلى محل أخرى لإرشاد المسلمين ووعظهم، وتقتضى على كل محاولة ترمى إلى ذلك.

وقد جاء في تقرير لهذه الإرساليات، أنه يمكن تنظيم جميع المسلمين في هذه المناطق خلال خمس سنوات نظريًا لجلهم وفقرهم، وعدم وجود من يعلموهم دينهم، أو يحبسون على التمسك بعقائدهم.

ثالثًا: أن أكثر المسلمين في الخبيشة اهتمامًا بنشر علم الدين هم مسلمو مقاطعات كفتا «جيمان» و«اللوهرة»، وأنه في «جيمان» وحدها أكثر من ستين مدرسة لتعليم أبناء المسلم.

ولكن بعد أن أعلن ضمها إلى الإمبراطورية الخبيشية، واعتقى سلطانها الأمير «عبد الله» ابن السلطان «محمد بن داود» المشهور باسم «أبي جرار» وزج به في غيابات السجن... استولت الحكومة الخبيشية على هذه المدارس ثم أغفلتها، وغيرت مناهج ما بقي منها.

 ولم تجعل للغة العربية ولا للدين الإسلامي أثراً فيها.

رابعاً: أن السلطة الخبيشية جاهزة في سبيل نشر التعليم بين أبناء المسيحيين في البلاد بقدر ما تسمح لها مواردها.

وأنها أنشأت لذلك حوالي مائتين مدرسة ابتدائية وثانوية للبنين والبنات.

ليست بين تلاميذها وتلميذاتها أكثر من ثلاثة في المائة من مسلمي الخبيشة الذين لم تجد الحكومة بدًا من قبولهم لظروف خاصة.

---

(1) عن اغتاله وأسائل القمع وسياسة التنصير التي مارسها الغرب الصليبي في الخبيشة وأزريا انظر: محمد الغزالي - الاستعمار أحقاق وأطماع - طبعة دار نهضة مصر.
وأيضا على الرغم من زيادة عدد المسلمين على المسلمين في البلاد، لا تقوم الحكومة بالإتفاق على تعليمهم بأكثر من خمسة في المائة من ميزانية التعليم.

هذا إلى أن برنامج المدارس الحكومية ليس للغة العربية ولا للدين الإسلامي نصيب منها حتى في المناطق الإسلامية الخاضعة.

خامساً: إن المسلمين قد أظهروا على وزارة المعارف في هذه المناطق بتقرير دراسة الدين الإسلامي، واللغة العربية في المدارس التي بها.

فعينت مدرسين في بعض هذه المدارس باسم تعليم الدين الإسلامي، ورفضت طلب تدريس اللغة العربية.

واختارت مدرس الدين الإسلامي من بعض الجملة الذين لا يدركون شيئاً من تعاليم الإسلام، ولم تحدد خاصة الدين زمنًا خاصًا كغيرها من حصص الأمهية والإنجليزية وسائر العلوم التي تعلم في المدرسة.

بل كلفت مدرسة الدين الإسلامي أن يجمع التلاميذ في الأوقات المخصصة لراحتهم ليعلموا فيها المبادئ التي لا تخرج عن أوقات الصلاة المفروضة وعدد ركعاتها وأركنها وشروطها، وما شاكل ذلك.

فكان ذلك المدرس لا يجد من أوقات راحة التلاميذ ما يسمح بتعليمهم، ويرجعه كله دون أن يلقى عليهم درسًا واحدًا.

سادسًا: أن الحكومة اختارت في العام الماضي بعثة من المدرسين من المتخرجين في بعض المدارس وأوكلتها إلى المعاهد المختلفة في الخارج ليعودوا فينولوا المناصب الكبيرة في الدولة.

وقد كان من بين المبعثرين أثنان من المسلمين بحكم تفوقهما الباز.

ولكن بعد أن تمت إجراءات سفرهما حيل بينهما وبين السفر لأسباب غير معروفة سابعاً: أنه كان للمسلمين ثمانية مدارس، وكانت الدراسة فيها قائمة على أساس اللغة العربية والدين الإسلامي.

ومواردها تأتي من تبرعات والهبات بواسطة جمعيات لهذا الغرض، وكانت تقوم بتعليم ثلاثة آلاف من أبناء المسلمين.

وقد ظلت تؤدى مهمتها رغم جميع المنايع إلى سنة 1949.

ولكن الحكومة أرادت إخضاعها لبرامجها الحالية من اللغة العربية والدين.
فَلَمَا رَفَضَ القَايِمُونَ عَلَيْهِ هَذَا الْأَمَرُ سَلَكَتُ الْحُكْرَمَةُ مَعَ هذَا الْجَمِيْعَاتَ مَسْلِكَا
اِضْتَرَّ أَعْضَاَوْا بِبِسْبُوْهُ إِلَى الْتَخَلُّقِ عِنْ مَسَايِدَةِ هذَا الْمَدَارِسِ وَالْتَنْزَالِ لِلْمَعَارِفِ عَنْ
تَسَالِي مَدَارِسِهَا .
وَعَنَّدَثُ حَذَفَتْ مِنْهَا مَادَتِى الْلِّغَةِ الْأَرْبَعِيَةَ وَالْكَانِيَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .
ثَانِيَةً : أَنَّ الْمَدَارِسِ الْبَاقِيَةُ فِي طَرِيقَهَا إِلَى هذَا الْمُسْمِىَ الْبَائِسُ .
لَكِنَّ الْوَسَائِلِ الَّتِي اَتَبَعَتْ بِشَأْنِ الْمَدَارِسِ الْكَلَّى مَانِعَةَ فِي طَرِيقَهَا .
وَقَدْ تَرْكَتْ الْبَعْثَةُ الْخَبْشَةِ وَمُدْرَسَةً رَابَعَةِ تَلَاقِي مُسْقِرُها .
تَسَلَّعَا : إِلَى الْمَدَارِسِ الْبَاقِيَةُ طَلَبَتْ مِنْ الْمَعَارِفِ أَنْ يَسْمَحَ لِبَعْضِ المُدْرَسِينَ
المَصْرِيِّينَ بِالْخَبْشَةِ أَنْ يَقْمُوا بِتَدْرِسَ بَعْضِ الْعَلَمَا فِي أَطْنَاءِ فَرَاغِهِمْ نَظَرًا إِلَى الْحَاجَةِ الْمُدْرَسَةِ
إِلَى بَعْضِ المُدْرَسِينَ الْأَكْفَاءِ .
ولَكِنَّ وَازْرَةَ الْمَعَارِفِ الْخَبْشَةِ رَفْضَتْ هذَا الْتَطْبِيْبَ .
عَانِشَاءً : أَنَّ الْكِتَابِ الْعَرَبِيَّةِ لَا يُسْمَحَ بِبِدْخُولِهِ إِلَى «أَثِيوْبِيَا» وَلَا تَدَاوِلَهَا .
أَيَّا لَهُ تَأْرِيِّنَةِ وَالْفِلاجَةِ الْأَرْبَعِيَةِ فَيُسْمَحَ بِبِدْخُولِهَا عَنْتَ الْمَارِيْعَةِ السَّحِيدَةِ .
والْحَقُّ أَنَّا فِي مَصْرٍ نَتوْجُسُ مِن مَّتْنَ الْقُلَّةِ القَبْطِيَّةِ إِلَى الْتأَسِّيِ بِأَخْتِهَا فِي
الْخَبْشَةِ .
أَيْ أَنَّا نَتوْجُسُ مِنَ الْزِّوْالِ الإِسْلَامِ وَأَقْفُ نَجَّهِهِ ، لَوْ تَرَكْنَا الْنَّصَارَى يُتْلَوَّنُ المَنَاصِبُ
الْكُبْرَى وَيُصِرُّونَ كَمَا يُحَلُّ لَهُمْ .
وَنَنَّقِلْ هذَا الْتَقْرِيرُ (1) النَّاَطِقُ بِأَحْزَانِ النَّسَمِينِ وَأَلَامِهِمْ لِيُوَلَّهُمْ شاهدًا عَدْلًا عَلَى
الْفَروْقَ بَيْنَ حُكمِ وَحَكِيمٍ ، وَدِينٍ وَدِينٍ .
كَلَّمَةً أَخِيْرَةً :
لَا ضَرَوْرَةٌ لِلَّمْعَادِ أَوْ مَوْارِيْعَ .
إِنَّا سَنْكِشَفُ عَنْ نَوَاتَانَا كَلَّهَا ، لَأَنَّا لَيْسُنَا مَا نَسْتَحْبِيْ بِمِنْ إِلَاعُنَّا ، لَنَقِدْ رَضِيْنَا
بِاللَّهِ رَبَّنَا ، وِالِإِسْلَامِ دَيْنًا ، وَيَحْمِدُ نِيْبَوْا وُرُسُوْلًا ، وَنَزَمْنَا يَوْمُ أَسْلَمُنا ، أَنْ نَنْفِذُ تَعَالِيمَ
كِتَابُنا وَسَنْتَيْنَا نَيْبًا ، وَلِيَسِىْنَ فِي هذَا التَّعَالِيمِ وَلَا فِي تَلْكَ الْسَّنَةِ مَا يُضِيْرًّا أَمْرًا يُؤُثَّرُ الْكَفَرُ
بَا ، وَيَرْغِبُ فِي الْعِيْشِ بعَدًا عَنْهَا .

(1) التَّلَحِيْصُ لِلْأَسْتَاْذُ سَدِيدٌ قَطْعٌ.
إنه سيعيش في بلادنا مثلنا، له مالنا وعليه ما علينا.
فإذا اجترأ أن نترد عن ديننا حتى يرضي عنا، نستدعه يموت بغيره، ولا يلومنا
على ذلك إلا أحمق أو منافق.
ومن تعاليم كتابنا ووصايا رسولنا أن نتحاكم إلى قانون بعينة، وأن نحارب منكرات
بعينها، وأن نتعرف في الدنيا بهذه الوجهة البينة.
وإلا فنحن - إن فرطنا في ذلك كافرون بما أنزل الله.
ومن تعاليم كتابنا ووصايا نبينا أن ننهض بأمور المسلمين حيث كانوا، وأن نكره
الأذى لهم، وندفع القسر عليهم ما استطعنا.
ونحن - إن فرطنا في ذلك كافرون بما أنزل الله.
وقد أحسننا إلى جيراننا من أهل الكتاب.
فمن قدر منهم حسن عطرتنا له، شكرنا له جميل تقديمه.
ومن غلبه ضغينته عذّبنا مع أنفسنا.
وإذا وقع منا خطأ نحو أحد، فلسنا الذي يصر على هفوة بدرت منه.
ومن حق كل إنسان أن يجادلنا بالحق، وأن ينزلنا على حكمه.
ذلك، ولن ندرخ وسعًا في محاربة الاستعمار الأوروبي، حتى ننظر من بلادنا آخر
جندي من جنود الغزو الصليبي الحديث.
ولن نقبل مهادنة لهذا الاحتلال المكر.
فمن والاه أو سالمة فهو يستعين بخصومتنا ويستهدف عداونا.

* * *
المراجع

النصوص والشواهد المدونة في هذا الكتاب مقتبسة من:

1- القرآن الكريم.

2- كتب السنة المعتمدة.

3- قصة الاضطهاد الديني في المسيحية والإسلام للدكتور توفيق الطويل.

4- أهل الامة في الإسلام للدكتور أ.س. تزتو.

5- الإسلام سوanj وخواطر للكونت هنري دى كاسترو.

6- خالد بن الوليد للأساتذة أ.ب. زيد شلبي.

7- إقام الوفاء في سيرة الخلفاء للأساتذة محمد الخضرى.

8- مصر الإسلامية للدكتور محمد عبد الله عنان.

9- محاكم التفتيش للدكتور على مظهر.

10- كلمة سواء. مناقشات بين القس ألفريد نيلسون وبعض العلماء.

11- العهد القديم والعهد الجديد.

12- السلوك في معرفة دول الملوك - المفريزي.

13- تاريخ الرسول والملوك - للطبرى.

14- الصديق أبو بكر - محمد حسين هيكل.

***
<table>
<thead>
<tr>
<th>الموضوع</th>
<th>الصفحة</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>الصلاحيات والنفس يتحالفون ضد الإسلام.</td>
<td>147</td>
</tr>
<tr>
<td>كيف دخلت المسيحية مصر؟ كيف كبلت المسيحية مصر؟</td>
<td>163</td>
</tr>
<tr>
<td>الدين والعصبيات</td>
<td>9</td>
</tr>
<tr>
<td>عودة الجاهلية</td>
<td>14</td>
</tr>
<tr>
<td>الإسلام يدخل مصر</td>
<td>18</td>
</tr>
<tr>
<td>غارة على الإسلام</td>
<td>22</td>
</tr>
<tr>
<td>هل أضرت بالمسلمين سماحتهم؟</td>
<td>181</td>
</tr>
<tr>
<td>المسلمون وأهل الدمعة</td>
<td>33</td>
</tr>
<tr>
<td>مسلك عمر نحو الديب</td>
<td>40</td>
</tr>
<tr>
<td>بين المسيحية والإسلام</td>
<td>50</td>
</tr>
<tr>
<td>اليهودية والسيحية في الإسلام</td>
<td>74</td>
</tr>
<tr>
<td>علاقة الإسلام بغيره من الأديان</td>
<td>46</td>
</tr>
<tr>
<td>حقائق لا مندوحة عن ذكرها</td>
<td>87</td>
</tr>
<tr>
<td>مظالم تبائنة</td>
<td>81</td>
</tr>
<tr>
<td>قبل بعثة محمد</td>
<td>84</td>
</tr>
<tr>
<td>أثر الاضطهاد في النصرانية نفسها</td>
<td>85</td>
</tr>
<tr>
<td>حول مؤتمر «نفيقة»</td>
<td>88</td>
</tr>
<tr>
<td>اضطهاد المدعوين في العالم المسيحي</td>
<td>90</td>
</tr>
<tr>
<td>من نتائج الاستبداد</td>
<td>92</td>
</tr>
<tr>
<td>حران المسلمين من الحكم</td>
<td>99</td>
</tr>
<tr>
<td>أسلوب النسخ والمعامة في تاريخ</td>
<td>101</td>
</tr>
<tr>
<td>المراجع</td>
<td>117</td>
</tr>
<tr>
<td>الفهرس</td>
<td>126</td>
</tr>
</tbody>
</table>